ALI SHARIATI



علي شريعتي







الحج
الفريضة الخامسة

دار الأمير

الحج
الفريضة الخامسة

إسم الكتـاب : الحج ـ الفريضة الخامسة

إسم المؤلــف : د. علي شريعتي

إسم المترجم : عباس أمير زادة

تنضيد وإخراج : زهرين

تصميم الغلاف : بشير محمد

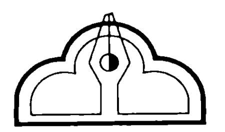
الترقيم الدولي : ISBN 978-9953-494-09-8

الطبعة الأولى : ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م

الطبعة الثانية : ١٤٢٨ هـ ـ ٢٠٠٧ م
(بعد تدمير الدار خلال حرب تموز ٢٠٠٦ م)

الناشـــــر : دار الأمير للثقافة والعلوم ش.م.م

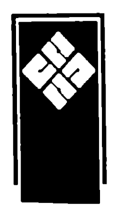
التوزيع في العراق:
دار الباقر ـ النجف الاشرف هـ :07801263579



دار الأمير للثقافة والعلوم
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر ـ بيروت ـ لبنان

تلفاكس: 49 64 27 1 961+
ص.ب : 113/5551 الحمرا ـ بيروت ـ لبنان

Website: //http:/www.daralameer.com
E-mail: daralameer@daralameer.com



مؤسسة نشر آثار
الدكتور علي شريعتي

تلفاكس: 2232729 21 98+
ص.ب: 6516-19395 طهران
www.shariati.com

سلسلة الآثـار الكاملـة ـ ٧ـ

الحج
الفريضة الخامسة

الشهيد الدكتور علي شريعتي

ترجمة

عباس امير زادة

دار الأمير

وتستمر دار الأمير ...

إذا كانت مسؤولية المثقف تجاه أمته وتحديات لحظتها التاريخية هي الهم والرسالة التي حملها علي شريعتي، فإن نشر فكر الوعي الحضاري بدوره مسؤولية، إذ كيف يصل هذا الفكر للناس دون ناشر مسؤول؛ يعطيه العناية ويكفل أن يظل هذا الزاد الثقافي حاضراً في الوعي؛ متاحاً للأجيال لتنهل منه في صياغتها لرؤى التجديد والنهضة وتستثمره في حركة التغيير وصناعة المستقبل.

وقد وعت دار الأمير هذه المسؤولية منذ تأسيسها عام ١٩٩١م، وحملتها بأمانة، وتحملت تبعاتها المادية والمعنوية في مواجهة حسابات السوق وفكر الجمود، ورغم الدمار الكُلّي الذي لحق بالدار في حرب تموز ٢٠٠٦م، والذي كان أول ضحاياها كتب علي شريعتي التي أحرقتها صواريخ الهمجية الصهيونية؛ حين دكّت مقرّ دار الأمير في بيروت ومعرض الدار في بنت جبيل، فإن إرادة البقاء وعزيمة الإنتصار بقيت متوهجة، وها هي دار الأمير تستأنف دورها ونضالها بعد أشهرٍ معدودةٍ من العدوان، وتقدم من جديد فكر شريعتي في إخراج متميز، وتنهض من بين الركام مستعيدة دورها المسؤول في نشر ثقافة العودة إلى الذات، والنهضة، والمقاومة في مسيرة الفلاح التي شعارها: **إلهي علمني كيف أحيا..، أمَّا كيف أموت، فإني سأعرفه**. والحمد لله الذي نصر عبده.

محمد حسين بزي

بسم الله الرحمن الرحيم

لا أدري عزيزي القارىء من أين أبدأ؟

ولا أدري بماذا أبدأ؟

وأنا على هذه الحال قررت أن ألخّص قصتي مع هذا الكتاب، وهي من شقّين:

الأول: الدافع الحقيقي والمباشر للتعرّف على الكتاب، وهو بفضل صديقي الدكتور «المغربي» الذي يعمل حالياً مدرساً في جامعات إيطاليا.

الثاني: الدافع الحقيقي والمباشر لنشر هذا الكتاب.

وحتى لا أطيل عليك عزيزي القارىء أبدأ هذه القصة مع شقها الأول:

في النصف الأول من العام الميلادي الحالي (٢٠٠٢) كنت مشاركاً بصفتي كناشر في أحد المعارض التي تنظمها دولة عربية خليجية، وأثناء وجودي في الجناح المخصص لي من المعرض حضر شخص تنبي ملامحه عن نقاء سريرة وصفاء نفس، سلّم بتحيّة الإسلام وقال: هنا دار الأمير أليس كذلك؟ فأجبته: نعم. قال: أنتم الذين تقومون بنشر مؤلفات د. شريعتي؟ فأجبته بالإيجاب، ثم سأل عن كتاب الحج. قلت: حتى الآن لم ننشره ولكننا سنقوم بنشره ضمن «مجموعة الآثار الكاملة».. فتنهّد تنهيدة قد سمعها من هم على بعد بضعة أمتار منّا، ما دعاني لأسأله لماذا كتاب الحجّ تحديداً؟ قال يا أخي دعك من هذا وهمَّ ليسأل عن كتاب آخر للدكتور، فلم أنتظر حتى يكمل سؤاله، فقاطعته مؤكداً على استفساري، فتكرّم مجيباً وبابتسامة لطيفة ارتسمت على محيّاه، لكن نظرة

سارحة ابتعدت به عني، غير أنه سرعان ما قال: يا أخي لقد أعدت بي الذاكرة لعشرين سنة أو يزيد.. لا بأس دكتور تكلم.. وهنا قال:

في العام الذي انتصرت فيه الثورة الإسلامية في إيران أو العام الذي يليه جئت إلى مكة لأداء فريضة الحج، وهناك التقيت بالدكتور الشهيد مفتح[1] ـ ولا أدري إن كان يعرفه من قبل ـ وكان يحمل معه كتاب الحج للدكتور شريعتي، وعندما بدأنا بمناسك الحج أخذ الشهيد مفتح يترجم لي بعض الفقرات التي تتعلق بهذا المنسك وفلسفته، وهكذا فعل مع كافة المناسك، وما زالت دموع مفتح وهو يترجم تلك الفقرات أمام عيني حتى الآن ـ وهنا بكى صديقنا المغربي و... هذه يا أخي خلاصة القصة، فما كان مني إلاّ أن عانقته واعداً بالبحث عن الكتاب، متسائلاً في نفسي أي كتاب هذا الذي يجعل مفتح الشخصية العملاقة تجهش بالبكاء على هذا النحو، وبعد جهد متواصل توصلت إلى الكتاب وقرأته مرة.. مرتين.. ثلاث، حينئذ عذرت الدكتور «المغربي» في إلحاحه على الكتاب، وفهمت حينها دموع الدكتور مفتح (رضوان الله عليه).

وهنا عزيزي القارىء وصلت إلى الشق الثاني من القصة وهو: إنني وبعد قراءتي لهذا الكتاب خلت نفسي وكأني لم أحجّ، لذا ارتأيت أن اقدّمه للقارىء الكريم ليفهم فلسفة الحج كما رآها الدكتور شريعتي والله من وراء القصد. والحمد لله رب العالمين.

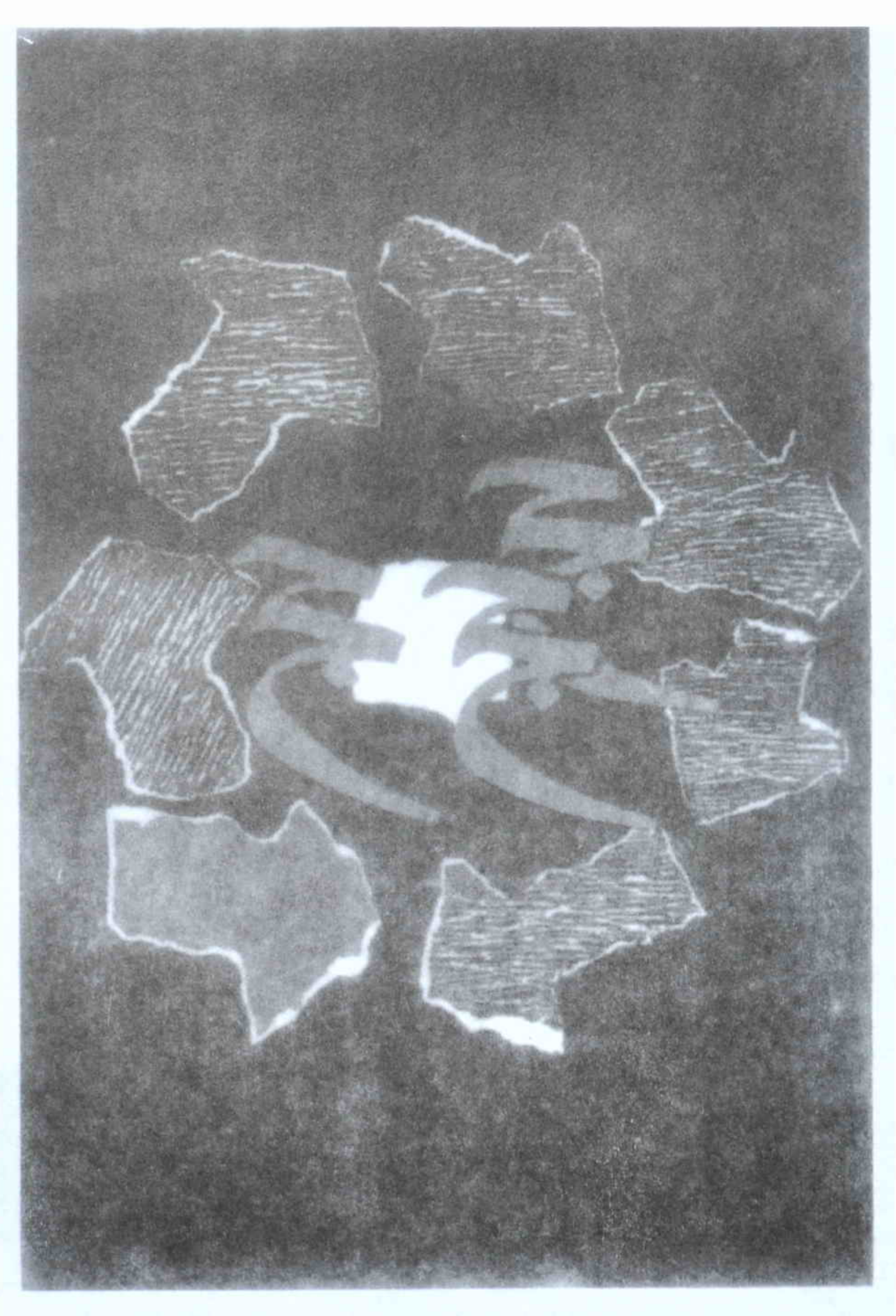
محمد حسين بزي

بيروت في ٢٧/ ١٢/ ٢٠٠٢م

(١) أحد قادة الثورة الإسلامية البارزين، وعميد كلية الإلهيات في طهران، والمؤسس للوحدة بين الجامعة الحوزة العلمية. استشهد على يد منظمة «الفرقان» على مدخل الجامعة في بداية الثمانينيات، أطلق الإمام الخميني هذا اليوم «يوم الوحدة بين الجامعة والحوزة» تخليداً لذكراه.



الدكتور شريعتي أثناء أدائه لفريضة الحج عام ١٣٨٩هـ ويبدو إلى اليسار الشهيد مطهري



رسم الغلاف كما اقترحه الدكتور الشهيد :

الكل يطوف في الإتجاه الخطأ، والحسين وحده يغادر الطواف لتلبية دعوة الشهادة

بسم الله الرحمن الرحیم

ولتکن منکم امة یدعون الی الخیر

حسینیه ارشاد

جَعَلَ اللهُ الکَعبَةَ البَیتَ الحَرامَ قِیاماً لِلنّاسِ...

تحلیلی از مناسک

حج

تحليل لمناسك الحج

تاریخ - مهرماه ۱۳۵۰

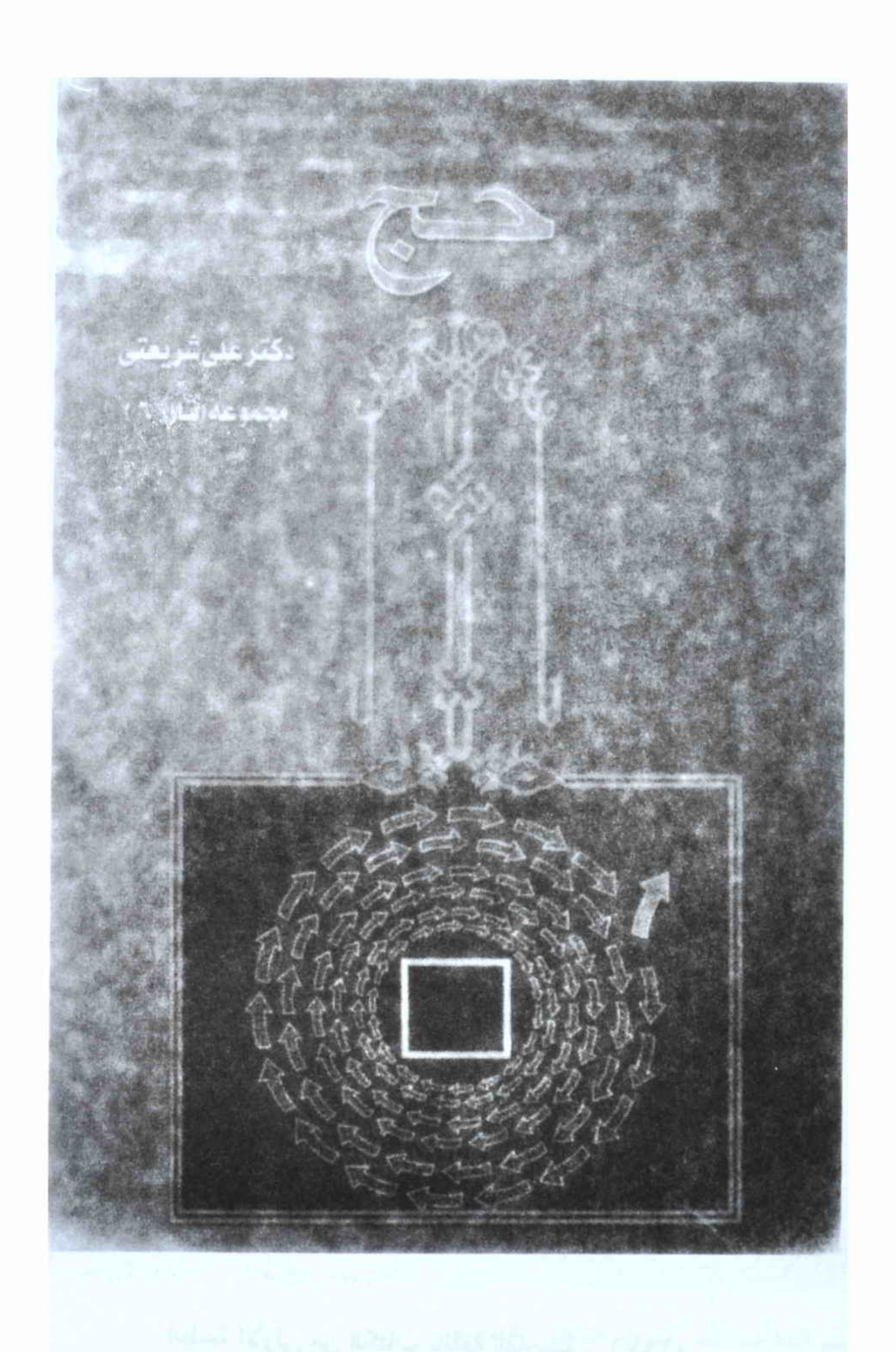
چاپ اول

صفحهٔ تجدید نظر شده عنوان کتاب

الصفحة المعدلة لعنوان الكتاب

الطبعة الأولى ۱۹۷۱م

الطبعة الأولى من الكتاب باللغة الفارسية - ۱۹۷۱م



آخر إصدار للكتاب باللغة الفارسية



ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلاً



مناسك فكرى حج

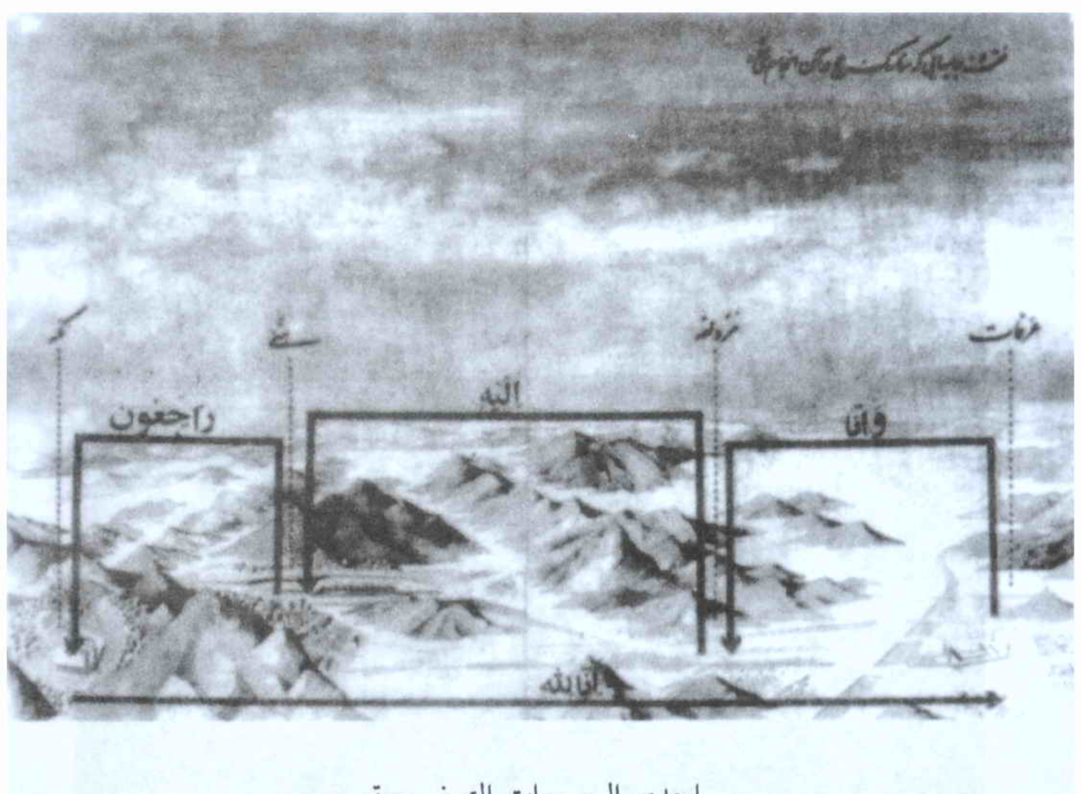
هديه به حجاج بيت الله الحرام

وزارت ارشاد ملی جمهوری اسلامی ایران ـ سازمان حج و زیارت
متن مطالب برگرفته از کتابهای معلم شهید دکتر علی شریعتی
تهیه و توزیع از: سروش ـ انتشارات صدا و سیمای جمهوری اسلامی ایران
چاپ: شرکت سهامی افست (سهامی عام)

۱۳۵۹

الطبعة الأولى من ملخّص الكتاب

الذي طبعته وزارة الإرشاد في إيران عام ١٩٨٠م ووزعته على حجاج بيت الله الحرام



إحدى الرسومات التوضيحية

مأخوذة من الكتاب الذي نشرته وزارة الإرشاد الإسلامي عام ١٩٨٠م

[illegible]

[illegible]

نماذج من إضافات وتعليقات الدكتور شريعتي على الطبعة الأولى

ای که در " مقام ابراهیم " ایستاده ای و "خاتمیت وحی " ، بار سنگین " رسالت" را بر دوش تو نهاده است ،

ای انسان آگاه ! جانشین خدا ، وارث پیامبران ! ای که باید " رسول " را نمونه خود گیری تا خلق تورا نمونه خویش گیرند ،

ای مسئول بنای " امت" ، پیرو مذهب " کتاب" ، " ترازو" و " آهن " !

ای " قائم به قسط " در زمین ، ای خصم ستمگر ، یار مظلوم ، ای مجاهد مسلمان !

دعوت " مستضعفان زمین" و فریاد ... های آگاه جهان ما را بشنو " که چگونه از شر" وسواس خناس" می نالند :

تا ین بی ، تمدن بشری را در تهدید " دشمنان داخلی " می بیند : هجوم دیوانه وار " مصرف و مصرف و مصرف " !

مارکوزه اعلام خطر کرده است که انسان " یک بعدی " شده است ، همچون ابزار .

اریش فروم دیوژن وار ، " با چراغی خاموش" ، گرد این شهر می گردد و " انسان به خود " را ... فریاد برآورده است که در شهر " اران " " طاعون " آمده است ، و در " معبد " این ... " اطفال معصوم ، بی آنکه بدانند چرا ، از بیماری مرموز و هولناکی ... " و ژان ایزوله از " شاهزاده ای مسلح " سخن می گوید که " سراپا غرقه در سلاح و طلا است ، اما از درد جانکاه و ناشناخته ای رنج می برد که درمانی ندارد " !

نماذج من إضافات وتعليقات الدكتور شريعتي على الطبعة الأولى

لمحات من حياة
الدكتور علي شريعتي

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾

«قرآن كريم»

«في مغبة الفرار إلى التاريخ، خوفاً من انزواء الحال، التقيت أخي (عين القضاة) الذي خفت نوره في الثالثة والثلاثين من عمره، مع بدء تفتّحه، لارتكابه جريمة ـ الوعي والشعور وضراوة الفكر ـ إذ كانت الذات والشعور والتأملات، أيام الجهل المطبق، جنحة خاصة إذا كان موقعها وسط جمهرة المستضعفين وزبائن سوق الباحثين عن ارتقاء الروح وعزة النفس وثبات القلب، أو وسط أرض الغدير، فعلى حد تعبير بوذا: «من وطأت قدمه (جزرة الغدير) ارتكب جريمة لن تغتفر».

علي شريعتي

من مقدمة كتاب (كوير)

أجل، كان الوعي والاحساس المرهف وجرأة الفكر وتعالي الروح وشجاعة القلب، من السمات الإنسانية النبيلة التي اشترك بها شريعتي مع (عين القضاة). ولما كان قد استلهم أفكاره الراسخة فأنه سيلقى بلا شك المصير نفسه، الذي يُرسم لمن ينهج هذا النهج، ليواجه في عنفوان شبابه الموت الزؤام والمباغت.. ولا داع للعجب، لأن من يتمتع بمثل هذه الرؤية يمكنه أن يتنبأ بكل شيء، ولا يخشىٰ أن يبوح ما في مكنونات قلبه. ولكنه كان يعلم بأنه يعيش في المجتمع القائم على الظلم والتحقير، في عصر الجهل ووادي الأغفال ـ ومن الأفضل أن نقول في عصر يغض النظر فيه عن الحقيقة ـ ولا يمكن للوعي والاحساس العميق أن يرافق جرأة التفكير وبسالة القلب، بل علىٰ العكس فإنّ مقاييس بروز المفكرين أضحت تنحصر بالمال والجاه والآمال العسجدية لتولي المناصب، وعلى هذه الشاكلة صار المفكر بحد ذاته أداة علّة الظلم والتحقير الذي لحق بالوعي.

انه كان يسخر ممن عدوا أنفسهم في عداد المفكرين الذين لم يتجرأوا أن يشتركوا حتىٰ في الفساد، وظلوا في حيرة من أمرهم يحترزون أن يعملوا شيئاً خشية الاّ يروا وجه الهزيمة.

كان ينظر إلى مسألة (اختيار الطريق) بأنها ليست الخطوة الأولىٰ فحسب، بل معنىٰ الحياة برمته، معتبراً التريث والشك والتردد على أنها من نتائج العبودية الفكرية، وهو ما يسميه بـ(المفكرين المتشبهين والمقلدين). وفي مجمل حياته القصيرة والزاخرة بالتجارب المثمرة، ناضل بكل ما امتلك من حول وقوة،

ضد أمثال أُولئك الأعداء المعروفين، ومن لحق بركاب الفكر في آخر الأوان بخطاهم الحثيثة ومواقفهم المتحفظة.

كان في نفس الوقت الذي يحارب فيه السذاجة في التفكير، وتقبل الوقائع والأحداث كبديل للأساس والأهداف المرسومة، كان يحارب اللاجدوائية واللامبالاة، والحياة التي تخلو من هدف، والفساد والابتذال والفراغ الفكري، وكبت دوافع المقاومة لدىٰ شرائح المجتمع المختلفة، وحتىٰ لدىٰ المناهضين لهذه الآفات والوعكات الاجتماعية الذين يرون أنفسهم حراساً لأركان مجتمعهم الصالح في حين كانت حالتهم أشبه إلى النوم منه إلىٰ اليقظة، فوصلوا إلى حد من اللامبالاة بحيث أصبحوا غافلين عن رؤية طريق الصواب، التي يستلزم فيها الإيمان والعزم الثابت والفكر الديناميكي والوعي المتيقظ لضمان عدم انحرافها، فحدا به أن يشرع بإعلان محاربته ورفضه الدائم للقيم الفاسدة التي تسللت لمجتمعنا للأسف، وكان يؤمن بأن جذور المجتمع التي جفت يمكن ارواؤها مرة أخرىٰ باتباع نهج واحد، شرط أن نغض النظر عن كل شيء، حتىٰ الحياة، وهو أن نسلك درب الشهادة:

«لا يمكننا أن نمضي في هذا الصمت ونتحمله، كما لا يمكننا أن نقول شيئاً، ولكننا سوف نظل صامتين. إني تغمرني أحاسيس من يحتضر ويفارق الحياة وهو على يقين بأن ثمة راحة وطمأنينة ونجاة، بعد عذاب الحياة المضني الذي لا يختلف على طول العمر المديد عن (الاحتضار الذي يؤلمه في معاناته لسكرات الموت)...
إنه لشهيد! ألا ترىٰ كيف يرحل بطمأنينة وراحة بال؟

لقد هجر أولئك حياتهم اليومية، وظلّت ارواحهم خالدة، فالموت فاجعة أليمة، وهو شؤم الزوال والضلالة في اللاوجود، إذ أن نغمات الهجرة عن الذات تبدأ من خلال الموت. يا لهم من عظماء أولئك الرجال الذين استمعوا لهذا الأمر من الله سبحانه وتعالى فأتبعوه».

(عن كتاب كوبر)

إن من تعرف على الدكتور علي شريعتي من خلال مؤلفاته، يدرك جيداً بأن ليست مؤلفاته وأفكاره البنّاءة وحدها مدعاة للوعي، بل طريقة حياته تعد أيضاً انعكاساً لاستنتاج صحيح وعميق حول كنه العالم، ذلك الاستنتاج الناشيء من إيمانه الراسخ.

وعليه عمدنا هنا أن نعرض وصفاً لحياته المليئة بالعمل والنشاط والإيمان والعشق والمسؤولية، أي وصف حياة إنسان واعٍ ومضحٍ، مفعمة بنكران الذات، ونعتذر منه ومن زملائه فيما لو ظهرت نقيصة في هذا العرض.

وصف لحياته

في الواقع، لم تكن حياته سوى كيف ولماذا ولأجل من؟ . . . وعليه فإنه لم ينشغل ليعط معنى للحياة وشكلاً خاصاً لها فحسب، بل كان يشعر بالعبء الثقيل للأمانة الصالحة التي ورثها عن آبائه وأجداده. كان يأمل أن يصل بها إلى مقصدها بالسرعة الممكنة كما ورد في نهاية رسالته التي قال فيها بأنه لم يكن ليفرّط حتى بلحظة واحدة من حياته في اللامبالاة واللاجدوائية:

«بلطف وتوفيق من الله تعالى، اللذين يجعلاني خجلاً أمام مظاهر المحبة المشفوعة بالمعجزات مما تألم قلبي فكانت رحمته قد سببت لي الانفجار بعد الهيجان، ودون أن أكون أهلاً سلكت طريقاً لم أفرط فيها حتىٰ بلحظة واحدة من عمري لأرتكب حراماً، فوفقني الله لكي أعالج ما أحسست به من ضعف، ولا تعلوها لذة عندما يمضي العمر القصير بهذا الشكل».

(من كتاب مع معارفنا المخاطبين)

لم يحمل على أكتافه عبء أمانة اجداده والصالحين من بني البشر فحسب، بل حمل عبء المسؤولية الكبرىٰ في البحث وتقصّي الحقائق والعدالة، التي فرضت علىٰ كاهل المستضعفين والمظلومين علىٰ مر العصور، كان يشعر بها كأنها الأمانة ذاتها التي وضعت على كاهل (الحسين وارث آدم) ونفسها التي حملتها السيدة زينب عليها السلام في قصر يزيد، الأمانة بعينها التي يحس بثقلها عباد الله في الأرض:

«مَن هذا؟ شبح الانزواء والغربة والهزيمة وخيبة الأمل والآلام، في صحراء مغطاة بالدم، ومن بحر الشهادة الأحمر رفع هامته وظل واقفاً وأطبق الصمت».

(من كتاب الحسين وارث آدم)

كان يؤمن بأن الوراثة هي أصل فلسفي وعقائدي في الإسلام، وبين علىٰ أساس ذلك الوقائع والحوادث الماضية، الحاضر والمستقبل، في مختلف الظروف والأحوال، بمثابة مسيرة

هادفة. فيحصل أن تجد هذه الحوادث والوقائع الهادفة تتفاعل مع بعضها لتؤول إلى ترابط موضوعي فيما بينها، وقد يجد تفاضلاً أو يؤثر بعضها على البعض الآخر، ويعد كل منها حلقة من سلسلة طويلة تمتد منذ بدء ظهور المجتمع البشري وظهور سيدنا آدم عليه السلام إلىٰ آخر حلقة من نظام التضاد والصراع في آخر الزمان. إن هذا الإستمرار المنطقي والتطور الحتمي يسمىٰ بالتاريخ.

ولعل هذا العبء الثقيل لأمانة التاريخ، الذي لم يكن لينساه حتى ولو للحظة، فقد ورثه من أجداده والصالحين الأقربين مما أنار له كل حياته التي بدأها في الصحراء.

وعندما وافاه الأجل، كانت العقيدة التاريخية والإجتماعية تشكل منهاجاً للإرشاد الفكري لجيل الشباب، واكتشافه «الطريق الوسط» التي تلائم منطلقات عصرنا، قد عمت أرجاء شتىٰ من البسيطة. وقد خلّف وراءه الطريق الحتمي لصالح المظلومين، بعد أن تبوأ لنفسه موقع شهداء التاريخ وشهوده.

وليست ثمة صدفة أن يكون (علي شريعتي) كمن سبقه من العلماء والمؤرخين والباحثين الكبار في أصول الدين، منتمياً إلىٰ عائلة قروية، إذ كان يفتخر بالصالحين واجداده الذين كانوا في عداد علماء الدين الكبار في زمانهم، وكان يفتخر بأنه ينتمي إلىٰ الصحراء بعيداً عن الضجيج والتشتت، اللذين أصبحا من الصفات الملازمة للمدن، فكتب حول هذا الموضوع يقول:

«منذ حوالي الثمانين عاماً، قدم إلىٰ هذه القرية رجل، كان

فيلسوفاً وفقيهاً قد نهل العلم من مدرسة المرحوم (الحاج هادي الأسرار) آخر فلاسفة سلسلة الحكماء الكبار في الإسلام، وكان تقياً ورعاً متميز الشخصية، اختار أن يقضي أواخر أيام عمره في اطراف الصحراء وحيداً فيكون بعدها نسياً منسياً.

وكما قال المرحوم (الحكيم السبزواري الكبير) لم يكن في محاضرات (الأسرار) تلميذاً كباقي زملائه التلاميذ، إذ كان قد درس الحكمة قبل قدومه إلى قريتنا عند أحد اخواله وهو (العلامة بهمن آبادي) الذي كان استاذاً في المنطق والحكمة والفقه. كان يتداول مع (الحكيم) اموراً في اسرار الحكمة، وحسب رأي بعض أصحاب الشأن كان يرجح عليه. وبدلاً من أن ينزوي في قريته (بهمن آباد) الواقعة على مقربة من قرية (مزينان) ذاع صيته في مدارس وحوزات طهران، مشهد، أصفهان، بخارىٰ والنجف. وانتشرت اصداء نبوغه وحكمته في طهران لدى ملك القاجار، فحدا به أن يدعوه ليزور العاصمة، فحصل أن انشغل في مدرسة (سبه سالار) في تدريس الفلسفة.

ولكن كان ما يراوده من حب العزلة والوحدة وولعه بالخلوة بنفسه مع الله، وهو أمر كان يدور في دماء أجدادنا، ادّىٰ لأن يقفل إلى (بهمن آباد) راجعاً، دون أن يأبه بما ينتظره من منزلة اجتماعية ومكانة دينية ومقام علمي مرموق، يوصله لزعامة الخلق والمرجعية الدينية، ومن ثم شهرة ذائعة الصيت».

(عن كتاب كوير)

تعلّم شريعتي أشياء كثيرة من حياة أجداده الطاهرين، سيما فلسفة البقاء على إنسانية الإنسان في زمن اتسم بالفسق والفساد، يصعب فيه البقاء عليها، في زمن نحن في أمسّ الحاجة فيه يوماً بعد آخر إلى الجهاد إلا أننا لم نجد إليه سبيلاً.

«كان الحكيم الآخوند جد والدي، وكثيراً ما كنت استمتع فيما يحكىٰ لي عنه. كنت أجد في هذه الحكايات المنبع الطبيعي للكثير من جذور احساساتي الكامنة في أعماق نفسي...

منذ ثمانين سنة، خمسين سنة، ومن قبل مجيىء إلى هذا العالم كنت أحس وجودي في وجوده... وها أنا الآن في غاية الامتنان لما كان عليه وما حققه».

(من كتاب كوير)

كان عم والده، واحداً من أبرز التلاميذ لدىٰ المفكر المعروف (أديب نيشابوري) إلاّ أنه بعد أن درس الفقه والفلسفة والآداب، اتّبع طريق أجداده ورجع إلىٰ (مزينان). وكان شريعتي يرث تركة أجداده العلمية والإنسانية عن عمه هذا بالذات. كان يرىٰ روحه الخالدة في نفسه، ويرىٰ في تلك الروح الضوء الوهاج الذي أضاء له طريق حياته.

وقبل كل ذلك، كان والده استاذه المعنوي والروحي، بحيث أصبح الإبن النور المنعكس من جوهرة الأب:

«أما والدي فقد خالف سنن حياتنا، حيث بعد انتهاء درسه لم يعد من المدينة، قاسىٰ الويلات ولم يعد، وظلّ في المدينة إلى أن

حدا به أن يقرر مقارعة سكون مستنقع المدينة، فنذر عمره كله للعلم والمحبة والجهاد... وبناءً على ذلك فقد خرج ببدعة ـ حسب سنن الأولين عندنا ـ فاختار أن يبقىٰ في المدينة، وأنا ربيب هذا القرار، وورثت كل الضياع والعقار التي تترك في مملكة الفقر.. لأصبح حاملاً لتلك الأمانة الغالية».

(عن كتاب كوير)

فالسيد محمد تقي شريعتي استاذ ومجاهد كبير، مؤسس (مركز نشر الحقائق الإسلامية) في مشهد، وواحد من بناة الحركة الفكرية الإسلامية في إيران. وقدّم علىٰ مدىٰ أربعين عاماً خدمات جليلة في الدعوة والإرشاد المنطقي والعلمي للدين بشكل يواكب التقدم العصري. وكان في مقدمة الذين دأبوا لتوعية الشباب الخريجين الجدد، للعدول عن المفاهيم الغربية الخاوية والمادية الجوفاء، والتمسك بالإسلام الذي يضمن نور الحياة.

يقول علي شريعتي بهذا الصدد:

«لعل فكرة تعيين القرآن والرجوع إليه كمحور أصلي للبلاغ والبحوث الإسلامية والشيعية، وإيجاد مذهب خاص في تفسير القرآن، في السنوات الأخيرة، مرهونة إليه إلى حد كبير».

إنَّ التأكيد علىٰ تأثير الأب (محمد تقي) على الدكتور شريعتي يأتي من هنا، وهذا يساعدنا للتعرّف على الأبعاد المختلفة لحياة شريعتي. وكل من تعرف علىٰ ذلك الرجل النجيب والعالم البارز يتفق مع هذا الرأي.

ويؤكد هذا الأمر حقيقة الإنسان الذكي الصادق عندما يعتمد علىٰ معلّم ماهر فأنه بلا شك سوف يشق دربه ويجتاز الموانع والحواجز الموضوعة أمامه ويسبق عصره، وبدلاً من التأثر بالقضايا يصبح بذاته منبعاً للتأثير على الآخرين بشكل فاعل ودون الخوض في الإنفعالات.

إن من عرف شريعتي ـ الأب ـ عن كثب، واطلع علىٰ أبعاد حياته المختلفة الدينية منها والعلمية، الإجتماعية، السياسية والإنسانية، يدرك عمق التضحية والمقدرة والصمود والمعرفة عنده. وأيضاً من خلال كتبه ومقالاته ومحاضراته الفلسفية ومن ضمنها: (الخلافة والولاية في القرآن والسنة)، (الوحي والنبوة)، (علي، شاهد الرسالة)، (موعود الأمم)، (فائدة واقتضاء الدين)، (الإقتصاد الإسلامي)، والأهم من ذلك (التفسير الجديد).

ونتيجة لذلك يعرف جيداً مدىٰ نضاله الشجاع ضد كل العناصر التي تحول دون تفجير الطاقات الخلاّقة لا بل كبحها في كل مكان، وحتىٰ في الجامعات والأوساط الدينية، كما يدرك الدور البارز في تحليل طرق الإجابة على التساؤلات التي تراود أذهان الآخرين حول الإسلام، واختيار طريق الصواب في خضم القضايا والتناقضات الموجودة في عصرنا، العصر الذي قلّما تجد فيه أباً وإبناً علىٰ ذلك النسق:

«كان أبي أول من وضع لبنات الآفاق القويمة لروحي! إنه علمني منذ البداية فن التفكير وفن الإنسانية (أي كيف أكون إنساناً)

طعم الحرية، الشرف، العفة، عفة الروح، الإباء، ثبات الإيمان، استقلالية القلب وعدم التردد. كما علمني كيف آنس بقراءة كتبه، لقد كبرت، نشأت وترعرعت منذ السنين الأولىٰ للطفولة والصبا بين كتب والدي واصدقائه واكتسبت تربيتي بهذا النحو.

لهذا عندما كنت انتقل من صف إلى صف خلال سنيّ دراستي كنت متقدماً على زملائي الطلبة بقدر (مائة درس) وعن أغلب معلّميَّ بقدر (تسعة وتسعين درساً) كان قد أهدىٰ إليَّ آراءه ونظراته في الطفولة والصبا، تلك الآراء التي يمكن أن يتعظ بها الكبار في سنيّ حياتهم المتقدمة بعد خوضهم أنواع شتى من الصراعات والمساعي المتواصلة خلال تلك السنوات الطوال، وتعد مكتبة والدي من أعزّ الخواطر التي تتملكني، ولي مع كل كتاب من كتبه حكاية، حتى أغلفة الكتب قد تركت أثراً في قلبي، وان غرفته لمقدسة، تلك التي تضم مجموعة من الماضي البعيد والوديع والصالح، فيخفق لها قلبي حباً بها».

(عن كتاب كوير)

أما النبوغ والذكاء، فانهما يزيلان كل قيود المحيط وأغلاله، ويجعلان المرء يسبق عصره. فلو أراد الإنسان أن يستخدم قدرته للتأثير على الآخرين فيستلزمه أن يحرّك الأسس الموجودة لتقفز هذه الأسس إلى الأمام وبأخلاقية تامة، ويحرر نفسه من وثاق المحيط فلا يوحي إلىٰ نفسه بأنه مكبل بقيوده.

لقد فك الدكتور شريعتي وثاق المحيط وتعقيدات التقاليد

وقرّر بعزم راسخ وإرادة ثابتة ألاّ يتبع هذه القوالب الجامدة، بل يسخرها خدمة لأهدافه، فأفلح في تعامله مع الإرادة وشواخص الطبيعة. وفي الوقت الذي كان منهمكاً بالبحث والدراسة، شرع في مهمة التعليم، وشمل عمله نطاقاً واسعاً وآفاقاً متعددة من الوعي والمعرفة، مما جعل اقرانه يعرّفونه بأنه قد سبقهم ومحيطه والزمن الذي عاش فيه.

فالذكاء، المحيط الملائم، والأهم منهما العقيدة الراسخة الحقة بالإسلام وشعوره العميق بتعلقه بهذه الأمور، إضافة إلى تحليه بشخصية صادقة ومثقفة في طبيعة تفكيره وسلوكه، مكنته من استخدام الإمكانيات المتاحة على أحسن وجه للوصول إلىٰ الأهداف السامية التي يروم تحقيقها، فوصف المحيط العام لتعليمه كما يلي:

«كم من النعم منّها الله تعالىٰ عليّ، وللأسف أنا أنكرها ـ دون جدوىٰ ـ فلم يكن أحد اجتماعياً بقدر ما كنت عليه، لقد جعلتني الأرواح غير العادية العظيمة والجميلة البنّاءة والمفعمة بالإيثار، أن أجلس إلى جانبها وأن أوقفها لأكلمها أو أتحدث إليها. فحصل أن أنسابت تلك الأرواح في جسدي وتواجدت فيه بشكل فاعل ومؤثر، وأنا أشعر في الوقت الحاضر بأنني أعيش معها، وأنها حية تعيش معي».

(عن كتاب كوير)

فإضافة إلى كون الأرواح العظيمة ـ والتي تمثلت بمعلميه وأساتذته والآخرين الذين علموه الحقائق المختلفة عن الجهاد في

الإسلام ـ قد ألهمته أشياء كثيرة، وكان بدوره النبع الفياض التواق للتعرّف على الحقيقة، فسلك طريق التأمل والإلتزام والمسؤولية، وسعىٰ للوصول إلى الكمال؛ فتخلد ذكره عند الجميع، واحتفظ بعلاقته وحنينه إلى منزله الأول وإلى عائلته وخلانه، ولم ينس الصحراء التي عاش فيها، وعندما كان يذكر اسم (مزينان) قريته، يتبسّم، وتدل كل سحنات وجهه عن الرضىٰ وعن لذة الذكرىٰ.

كان في صباه وبدء شبابه، كالكثير من الناس، طالباً اعتيادياً، ويؤدي امتحاناته كالآخرين ويرتقي صفاً بعد صف في كل عام بشكل اعتيادي منذ أن بدأ الدراسة الإبتدائية ثم الثانوية. وكان أثناء ذلك يتعلم اللغة العربية والعلوم الدينية. وبعد إتمامه للدراسة الثانوية دخل معهد اعداد المعلمين وذلك لشغفه بحرفة التعليم، حيث كثيراً ما يوجد من لم يتسن له أن يدخل الجامعة على الرغم من كونه مؤسسة تعليمية بحد ذاته، وقد بدأ خلال تلك الفترة كتابة مؤلفات عديدة مثل: (المذهب الوسيط) في فلسفة التاريخ، وأخذ بألقاء الخطب في (مركز نشر الحقائق الإسلامية) في مدينة مشهد.

لم يكن يحلم بالاستمرار في الدراسة التقليدية والدراسات العليا في الخارج بقدر ما كان ولوعاً بالتأمل والإلتزام والتعلّم، فصار ولعه مؤثراً في تكوين شخصيته وتوجيهها الوجهة الفكرية الحسنة، فأكسبه إيماناً عميقاً وقاطعاً بالدين الإسلامي، وتعلقاً دائماً بمحيطه ومنزله الأول الذي رأى فيه منبع نبوغه.

كان لمركز نشر الحقائق الإسلامية في مشهد دوراً زاخراً

بالنشاط على طول السنوات الثلاثين، ومؤثراً في حياة الملتزمين والمثقفين لتلك المدينة. وكان له دور كبير جداً في بلورة أفكار الدكتور شريعتي، كما كان لشريعتي دور كبير بالمقابل في توسيع نشاطات ذلك المركز عن طريق القاء المحاضرات والخطب، والرد علىٰ الأسئلة وترأس الجلسات التي تعقد في مناسبات عديدة في المركز المذكور.

ومنذ ذلك الحين، عرج الدكتور شريعتي إلى الكتابة والخطابة بصفتهما الوسيلة لضمان التحوّل الفكري وتعميق الإيمان، مما حدا به أن يتبع هذه الطريقة دوماً باستخدام قلمه ولسانه الفصيح.

كان لإتقانه اللغة العربية والفرنسية قبل دخوله الجامعة أثراً بالغاً، حيث مكنّاه من ترجمة بعض الكتب من هاتين اللغتين إلى اللغة الفارسية، ومن هذه الكتب: (أبي ذر الغفاري) من اللغة العربية و(الدعاء) من اللغة الفرنسية، إضافة إلىٰ المقدمات القيمة والبليغة التي وضعها لترجمتيه تلك مما يبين صراحة فكره الإسلامي وصدقه.

كان يرىٰ في الإسلام بين المذاهب الفلسفية المختلفة وبين الإشتراكية والرأسمالية، مذهباً وسطاً، فضمن تعامله مع الجوانب الإيجابية والمميزات الخاصة لبعض المذاهب الفكرية الأخرىٰ، كان يعرج إلى تفنيد بعض ما ورد في تلك المذاهب.

كان يبعث الأمل في الحركات العقائدية المناهضة للإمبريالية في رقعة واسعة من العالم الإسلامي من شمال أفريقيا إلىٰ

أندونيسيا، فكان يحس الآلام التي يعيشها المسلمون هناك، وكانت ترجمته لكتاب (أبي ذر) و(الدعاء) ـ على الرغم من صغر حجمهما ـ وهي من نتاجات عصر شبابه، ما جعله يتجه للمراجع الأصيلة في الإسلام ليستنبط منها الجديد من الحكم والمواعظ حول سيرة النبي الأكرم ﷺ والوجوه الدينية الأخرى على مرّ التاريخ الإسلامي. وقد ترك الكتابان المذكوران أثراً كبيراً على أفكار شريعتي الشاب.

وعندما تأسست كلية الآداب والعلوم الإنسانية عام ١٩٥٦م في جامعة مشهد، تمكن شريعتي من الإنضمام إليها، والإستمرار بتحصيل العلم إلىٰ جانب عمله التعليمي. وكثيراً ما كان يبحث في القضايا ويناقش اساتذته في مجالات الفكر المتعددة، فاكتسب تجربة شقَّ بواسطتها طريقه في النهج الفكري وتابعه أكثر فأكثر. وحتى في الدروس التي كان يحضرها كتلميذ لم يكن يقتنع أن يمضي الدرس دون اشتراكه في نقاشات موضوعية تهديه والآخرين سواء السبيل.

لقد أتاحت له هذه الأمور آفاقاً في البحث وتقصّي الحقائق وشغفاً متزايداً لتتبع تاريخ الأديان وتاريخ الإسلام وفلسفة التاريخ، وطرح الكثير فيما يخص فلسفة التاريخ لدى (توينبي) وله انتقادات على موارد عديدة منها.

لقد أبدىٰ شريعتي دفاعاً مستميتاً عن الحقيقة والعدالة، وأعار أهمية خاصة للوقائع والأحداث الدينية والإجتماعية والسياسية المؤثرة في مصير الناس، معبراً بذلك عن استقلاله الفكري والعقائدي.

لم يستطع أن يغض النظر أو أن يختار الصمت القاتل مقابل الاجراءات التعسفية التي اتخذها الحكام الجائرون في إيران، وخاصة بعد المؤامرة التي أطاحت بمصدق عام ١٩٥٣م، فقام بمحاربتها والنضال ضدها، على الصعيدين السياسي والإجتماعي، إذ سلك طريق توعية الجماهير وتبيين الحق عن الباطل وتعبئتها بهذه المواجهة، وذلك عبر خطبه وكتاباته ونشاطاته الأخرىٰ التي لاحقه بسببها أزلام النظام الشاهنشاهي.

كان يحارب على جبهتين في آن واحد، الأولى ضد المتقوقعين والتقليديين من المسلمين الذين أنزووا في زاوية من زوايا المسجد، وعزلوا الإسلام عن المجتمع، وأبدوا ردود فعلهم السلبية إزاء أية حركة فكرية حرة تبرز في المجتمع، وذلك لكونهم قد أسدلوا ستاراً مظلماً على وجه الإسلام المشرق، واختاروا لأنفسهم مخبئاً خلف ذلك الستار.

أما الجبهة الثانية التي كان يحاربها شريعتي فهي التي يشكلها المثقفون الذين اغتربوا عن ذواتهم، فقلدوا من سبقوهم ممن تمسكوا بنزعة العلمية الجديدة ـ العلمانية ـ فاستبدلوا خندقهم الأصلي بذلك الموضع، وكانوا يبدون تواضعهم أمام تباهي العصر الذي ملأ فساداً وغروراً وعنجهية.

في جامعة السوربون

لقد سنحت الفرصة لشريعتي عندما كان في جامعة السوربون ـ باريس ـ مدة خمسة أعوام، ليتخلّص من وسوسة وقلق ما كان يرواده من احتمال أفول رغبته في الاستمرار بالبحث والدراسة،

ومن ثم الاطلاع على مراجع وكتب لم تكن موجودة في إيران أو على أقل تقدير لم تكن في متناول يده. لقد استطاع أن يتعرف على المذاهب الفكرية المختلفة، الإجتماعية منها والفلسفية، وأن يتصل بروادها، ويدرس الأبحاث التي كتبها الفلاسفة والعلماء والكتاب أمثال: (هنري برغسن)، (البير كامو)، (جان بول سارتر)، (شوارتس) وعلماء الإجتماع: (غورفيج)، جان بيرك)، والمستشرقين مثل: (لويس ماسينيون).

لقد اتجه نحو الدراسات الإسلامية وعلم الإجتماع بصورة خاصة، وشرع بها بشكل رسمي ومنظم. وقد ترك النهج التحليلي والإنتقادي لعلم الإجتماع الفرنسي تأثيره عليه، ولكن وبالرغم من اتجاهه لهذا الضرب من علم الإجتماع، أصبح يواكب بحوثه بحيث جمع بين علم الإجتماع والرؤية الإجتماعية المستنبطة من فكره وعمله.

فلم يكن مقتنعاً بما جاءت به (البوزتيفية) التي تنظر إلى علم الإجتماع نظرة علم مطلق، ولم يرض بالاستنتاجات المحضة للماركسية، على أن أياً من هذه الطرق لم تكن لتدرك أو تحلل الحقائق في البلدان غير الصناعية أو ما يسمى بالعالم الثالث.

كان شريعتي منهمكاً دوماً في البحث عن نوع من علم الإجتماع دون الإعتماد على التحولات التي تحصل في بنيان المجتمع الرأسمالي أو النظام الشيوعي، بحيث يتمكن علم الإجتماع هذا من أن يعبر عن تحليل حقائق الحياة للأفراد والمرتبطين بالإمبريالية والتي تقبلها الأطراف الشيوعية في أوروبا الشرقية. ولكن

مع وجود هذه الحالة، دأب أولئك الأفراد مراراً لخوض نضال دائم في سبيل تحقيق اهدافهم في نيل الشرف والإستقلال.

كانت فترة إقامة شريعتي في فرنسا متزامنة مع هيجانات الثورة الجزائرية، التي اتخذت خلالها الأحزاب والتكتلات السياسية المختلفة في فرنسا، وحتىٰ المفكرين وعلماء الإجتماع، اتخذوا مواقف مختلفة، سلبية وايجابية من مصير الشعب المسلم الذي استبدته قوة رأسمالية غاشمة، ذلك الشعب المسلم الذي رزح لمدة قرن كامل تحت نير تلك القوة، فقرر أن يعمم حربه الجهادية القاهرة ومعركة الموت والحياة بمفهومها الواضح إلى داخل فرنسا. وكان موقف الحزب الشيوعي الفرنسي والحزب الشيوعي الجزائري يخلص إلىٰ الحاق الجزائر بفرنسا ومعارضتهما للثورة الجزائرية، موقفاً يدعو للتأمل، إذ أنّ فيه الكثير من الدرس والعظة.

لقد اهتم شريعتي بما يجري في الجزائر اهتماماً بالغاً، لأنه لم يجد نفسه بعيداً عن نضال الشعب المسلم هناك، بل يرىٰ نفسه شريكاً مع المصير الذي يناضلون من أجله. كانت الثورة الجزائرية الدامية يُنظر إليها من زاوية أخرىٰ، وهي اعتراف العدو قبل الصديق بكونها نموذجاً للكفاح ضد الإمبريالية، فقد دخل عشرة ملايين مسلم من القرىٰ والأرياف والجبال ليواجهوا عدواً يعد من أشرس المدافعين عن القيم الرأسمالية، جنّد قوة مؤلفة من خمسمائة ألف جندي مستخدماً تقنية عسكرية عالية، فضحىٰ الشعب المسلم بمليون شهيد مجبراً العدو على الإنسحاب والإنصياع لمطالب الشعب الجزائري المكافح.

إن القضية المهمة التي يجب أن أتطرق إليها هنا هي عدالة مطالب المسلمين، سواء كانت علىٰ صعيد العالم العربي أو ما وراءه، الذين ساندوا الحركة الجزائرية بصفتها قضيتهم. وبأمر من الجبهة الشعبية لتحرير الجزائر ترك الكثير من الطلبة المسلمين دراستهم، كان من بينهم طلبة في السنة الأخيرة من مرحلتهم الجامعية في فروع الطب والهندسة، والتحقوا بصفوف المجاهدين الجزائريين وتولّوا واجبات ومسؤوليات مختلفة في التصدي للعدو وتحرير البلاد.

إن البعد الآخر للنضال هو تبلور الأفكار والنظريات الحاصلة من ذلك النضال. وان التحليلات الفلسفية، علم الإجتماع وعلم النفس كانت مطروحة على بساط بحث القضية الجزائرية لأجل فهم وتوضيح الجذور العميقة لتلك القضية.

إن هذا النشاط النظري الذي شهدته الساحة الجزائرية ـ إضافة إلى العمليات الفدائية ـ قد انعكس في مقالات عديدة وبلغات مختلفة في كل أرجاء العالم، وكانت الصحيفة الناطقة بلسان الجبهة الشعبية لتحرير الجزائر تقوم بدور فعّال في شرح أبعاد القضية الجزائرية، وان للمقالات والتحليلات التي كتبها المفكرون حول النضال التحرري الذي قام به الشعب، أصداء في كل البلدان. ولا يخفىٰ بأن كان لبعض المفكرين الفرنسيين موقف إيجابي في هذا العمل الإعلامي.

كانت لمقالات (فرانس فانون) أهمية خاصة والذي كسب من

خلالها اهتمام الآخرين. كان (فانون) هذا من أهالي مدينة (مارتينك) الواقعة في جزر (انتيل) وقد اكتسب التبعية الجزائرية، وهو من علماء النفس المعروفين. انضم إلى صفوف الثورة الجزائرية وكتب مؤلفات مهمة مثل: (معذبو الأرض) و(السنة الخامسة من الثورة الجزائرية).

لقد اكتشف (فانون) من قبل (جان بول سارتر) فعرفه للمجتمع الأوروبي. وفي الواقع أن الدكتور شريعتي كتب مقالة عنه عام ١٩٦٢م نشرتها احدى المنشورات السياسية ـ الإجتماعية للطلبة الجامعيين الإيرانيين في أوروبا، وشملت مقالته بحثاً مهماً عن (فانون) إذ عرّف من خلالها كتاب فانون (معذبو الأرض) بأنه تحليل عميق عن الحالة الإجتماعية والنفسية للثورة الجزائرية ورأى فيه هدية للمناضلين الإيرانيين. وبعد أن أوضح شريعتي بعضاً من نظريات (فانون) الذي لم يكن معروفاً لدىٰ أحد من قبل، وترجم بعض الأقسام من كتبه، استطاع بها أن يوصل إلى الحركة التحررية للشعب الإيراني اصداء فكر (فانون) في الثورة، إذ كتب عبارات تجلىً فيها تأثره بفانون:

«لنذهب أيها الأصدقاء ونبحث عن ساحل آخر، ونخترق جدران الليل الظلماء، ونتسلل حثيثاً من الظلمة التي عتمت حياتنا لنخرج منها دون رجعة، وعندها يجب أن نجد سبيلاً للوصول إلى ذلك اليوم الجديد الذي سنرفع فيه رؤوسنا شامخة فخراً بالمقاومة والصلابة التي أبديناها، ذلكم يوم الوعي والفكر الجريء الدائم التحدي».

لقد قام الدكتور شريعتي بتعريف أفكار (فانون) للملأ، فأصبح الأخير صديقاً فكرياً له، يفهم دعواته الصادرة من أعماق روحه، فأصبح معروفاً في إيران، وبعدها قام أفراد آخرون بترجمة أعماله ومؤلفاته في إيران، فاشتهر بين الإيرانيين أيضاً.

ولشريعتي دور كبير آخر في التعريف بأفكار الثوريين من القارة الأفريقية، ومنهم: (عمر اوزغان) الذي كتب (أفضل الجهاد). كما قام بتعريف عدد آخر من المفكرين والشعراء غير المسلمين، وذلك لإيمانه بأن الأفكار المتبلورة التي جاءت بها الحركات التحررية الشعبية، الإسلامية منها وغير الإسلامية، يمكن أن تكوّن حالة مرنة من الفكر الجديد يستلهم منها المسلمون الإيرانيون في نضالهم الإجتماعي والسياسي. وفي الواقع كان ينصح أصدقاءه وتلامذته لأن يقوموا بدورهم باكتساب الفائدة القصوىٰ من الحركات الصحيحة والصادقة للنضال الإسلامي.

لم يكن شريعتي في دراسته لآثار وأفكار الباحثين والكتّاب الملتزمين الأجانب في أوروبا، واتصاله الشخصي مع بعض أولئك، ليتأثر بأفكارهم السلبية (كما حصل لبعض المفكرين) بل خلص إلى أفكار جديدة، خلاّقة وأصيلة أخذ يعرضها على الناس.

لقد صبّ شريعتي جهوده في دراسة علم الإجتماع وتأثيره على الحركة والظواهر الواقعية للمجتمع أكثر من علم الإجتماع الرسمي الصرف. لم تكن دراسته للحقائق والظواهر الواقعية تخلو من النقد. وخلال مدة إقامته في باريس، التي انتهت بنيله شهادة الدكتوراه في علم الإجتماع، كان منهمكاً في إقامة النشاطات

الإجتماعية التي تصوغه إنساناً واعياً ومجاهداً بارزاً، بدلاً من أن يقضي أوقاته منكبّاً علىٰ مطالعة الكتب فقط.

يمكننا أن نتبيّن مزيته عن اقرانه وزملائه الطلبة، بتشخيص ثلاثة أنواع من نشاطاته، وهي: نضاله الفكري، نضاله العلمي، ونضاله لرسم طريق متكامل لنظام تعليمي حقيقي. وكانت كل هذه النواحي الثلاث تخدم المصالح الشعبية، أو بالأحرىٰ مصالح الأمة، بدلاً من افتعال الضجيج الذي يشوب النشاط السياسي للطلبة، إذ أنه اختار أن يرسم الطريق القيّم والأمثل للشعب بما يتضمنه ذلك الطريق من مقومات ديمومته. فانصبت كتاباته ومساعيه في ذلك الطريق، وكان يدرك أكثر من غيره حركات القواعد الشعبية كمؤشر يهتدي به قبل غيره.

لقد تزامنت فترة إقامة شريعتي في باريس مع مرحلة حياتية جديدة في تحوّل الجناح التقدمي للحركة الدينية داخل إيران. ولم تمر فترة طويلة حتى هبَّ نسيم الحرية على إيران، فحدا بالسلطة الحاكمة أن تعتقل وتختطف وتلاحق رواد الحرية في البلاد، وحاكمت المعتقلين وزجتهم في السجون، وقامت بتعذيبهم بوحشية متناهية، هادفة من وراء ذلك اجهاض وتدمير الوعي الوطني والديني، وخاصة الأفراد الملتزمين من أعضاء (حركة تحرير إيران) المجموعة الوحيدة التي قدمت عقيدة وسياسة واضحة، وخططاً عملية لتنتهجها ضد السلطة الحاكمة في وثبتها يوم الخامس من حزيران عام ١٩٦٣م (١٢ محرم عام ١٣٨٣هـ) فأعطت للحركة الإسلامية في إيران بعداً جديداً ميزت فيه

المجاهدين الحقيقيين عن المحتجين الفصليين.

كان شريعتي شغوفاً بأفكار هذه الحركة ويراها نابعة من ذاته، ولهذا لم يتخلَّ ولو للحظة واحدة عن كتابة وتبيين وتحليل حقيقة الحركة الإسلامية المقتدرة التي قادها الإمام الخميني، في زمن كانت اغلب المنشورات الصادرة باللغة الفارسية تحمل في طياتها لحناً غير ديني أو حتىٰ منافياً للدين، رغم تجلّي الحقيقة المبنية على وجود حركة إسلامية مستندة علىٰ عقيدة دينية تقدمية.

ولا يخفىٰ، من أن مفكرين إيرانيين خارج البلاد أطبقوا الصمت، سواء لجهلهم وعدم استيعابهم لآفاق الحركة الإسلامية، أو متعمدين للوقوف بوجه الصحوة الإسلامية، فغضوا النظر عن الحقائق الإجتماعية في إيران، وأنكروا جوهر الواقعية للنضال الشعبي فيها. فعرضوا زوايا ضيقة من الأحداث، بل لم تسلم الصحوة من انتقاداتهم في كثير من الأحيان.

ولحسن الحظ استطاع شريعتي وبالتعاون مع بعض زملائه الذين يتفقون معه في الفكر، أن يؤسسوا أكثر الصحف الإيرانية انتشاراً باللغة الفارسية في أوروبا. فجعل من تلك الصحيفة لسان حال الحركة الشعبية في إيران، ومساندتها وعرض حقائقها، وذلك بتنسيق الأفكار المطروحة من قبل المثقفين خارج البلاد حول نضال الشعب الإيراني في الداخل.

وبكلمة واحدة، إن الفترة الزمنية التي قضاها شريعتي في فرنسا لمواصلة تحصيله الدراسي كانت مقرونة بنشاط دائم جسد فيه

نفوذه وموقعه بين الإيرانيين في الخارج. وعلى الرغم من أهمية المجالات المختلفة لنشاطه، فإنه لا يمكننا أن نعرض جزئياتها الكاملة هنا، وإنما أرتأينا أن نلخص بعضاً من أعمال هذا المفكر والمناضل الكبير.

العودة إلى إيران

نشرت صحيفة كيهان ـ وهي شبه رسمية تصدر باللغة الفارسية في إيران ـ مقالاً بمناسبة وفاة الدكتور شريعتي جاء فيه:

«بعد أن ارتأىٰ شريعتي عام ١٩٦٥م العودة إلىٰ الوطن والعيش بين الناس، وخدمة وطنه وشعبه وتعاليم دينه الحنيف، توجه إلى إيران برفقة زوجته وطفليه...

وللمرحوم الدكتور شريعتي نظرات قيّمة بالنسبة للمجتمع الإيراني، إذ أوجد نهجاً جديداً لمعرفة الدين، وحارب ضمن تواجده في خندق الإسلام الأصيل، كل القيم الداعية للخرافة وزرع الفرقة والفتنة والتشتت بين صفوف المسلمين، والتي تضر بأهداف الشعب وتحرف نضاله... وبمجرد مجيئه إلى إيران زاول المرحوم الدكتور شريعتي عمله كأستاذ في جامعة مشهد!»

(عن صحيفة كيهان ٢٣/٦/١٩٧٨)

(٢/٤/١٣٥٦هـ ش)

إذا قبلنا ما جاء في الجملتين الأولىٰ والثانية من مقال الصحيفة، فإن الجملة الثالثة ستكون عين المنطق. فلو كان شريعتي

قد جلب معه مثل هذه الهوية القيمة إلىٰ إيران، فيستلزم أن يكون عمله مناسباً كأستاذ في الجامعة. ولكن هذا ليس كل ما حدث. فمجرد أن دخل الدكتور شريعتي إيران عن طريق المنطقة الحدودية (بازركان) ـ بين تركيا وإيران ـ بعد خمسة أعوام من الفراق، اعتقل أمام عيون زوجته وطفليه وأودع السجن فوراً. ومن ثم حرم من رؤية أبيه مدة طويلة. حتىٰ بعد أن اطلق سراحه عين معلّماً في الثانويات المختلفة والمعهد الزراعي، وهو المستوىٰ الذي كان يعمل فيه قبل سفره إلى الخارج، رغم حصوله على شهادة الدكتوراه، وهكذا «كان تواجده قيماً وسط المجتمع الإيراني».

أجل، فلدىٰ عودته إلى إيران، هكذا تم استقباله. لقد كان وطنه في كل فترة حياته سجناً له، تعرض فيه إلىٰ كافة أنواع الضغوط وقاسىٰ أنواع العذاب والمحن. إلاّ أن كل هذا جعله أكثر صلابة في مواصلة نضاله.

وبعد عدة سنوات أصبح استاذاً في جامعة مشهد، دون أن يتابع طلبه للإشتغال استاذاً في جامعة مشهد، فكانت حالة أقرب للالتباس منه إلى الصدفة، وعندها نذر نفسه لتعليم وارشاد جيل الشباب، وأصبح الطلبة الذين تتلمذوا على يديه فخورين به، وتهافت الكثير على سماع خطبه وحضور دروسه ومحاضراته بشكل أقلق مسؤولي الجامعة. وبسبب ضيق أُفق، وحسد وتعنت وحقد المسؤولين أولئك، حالوا دون قيامه بألقاء المحاضرات، فلم يعد مسؤولو الجامعة يتحملون خطبه ومحاضراته، مما حدا بشريعتي أن يرجح التدريس بشكل حر على الشكل التقليدي، لأنه لم يجد ثمة تفاوت

بين الحرية والمعرفة. علىٰ أية حال نال فخر التقاعد الإجباري!.

لقد منحه التقاعد من التدريس في جامعة مشهد فرصة ليدخل مرحلة جديدة من النشاط الدؤوب، حيث أخذ بكتابة التحليلات وإلقاء الخطب والمحاضرات حول أُمور اجتماعية ودينية يفيد جيل الشباب ويلائم التيار الفكري الجديد وكل شرائح المجتمع. فكان عاقبة هذا العمل أن قضىٰ خمسمائة يوم في زنزانة انفرادية دون محاكمة، وبالتالي استشهاده في المنفى!

لقد كان شريعتي مؤمناً بالتوحيد بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنىً، ومفكراً يشعر بالمسؤولية الإجتماعية، ولم يتخلَّ عن مسؤوليته هذه أبداً. وقد استطاع أن يبرهن، رغم تَفشي الجهل، كيف أنه سخّر كل من: حياته، ومطالعاته، وعمله، وحتى عائلته، لخدمة هدفه وابلاغ دعوته.

لقد منح كل وقته للجهاد والنضال والإرشاد على أمل أن يحررّ هذا الجيل المنسي واللاواعي من الحيرة والهذيان الذي يرفل فيه.

فعلىٰ الرغم من وجود العقبات والمشكلات، وعلى الرغم من المساعي الكبيرة التي بذلت لمصادرة جهوده وآثاره من قبل العناصر الفاسدة والوضيعة؛ استطاع أن يترك الأثر الذي أراده للمجتمع الإيراني بفضل منطقه القوي ومنهجه العقلاني في فضح مرامي اعداء الشعب، فوجه ضربات ماحقة لمواقع الأيديولوجية الرجعية والإمبريالية الأجنبية. وأضحت آثاره المتعددة مشعلاً ينير الدرب للجيل الجديد. طاب ثراه.

أفكاره ومؤلفاته

لم تكن لشخصية ونشاط شريعتي أهمية بقدر ما كانت لمؤلفاته وأفكاره، تلك المؤلفات التي سجلت على أشرطة تسجيل لكونه قد ألقاها ضمن محاضراته، أو ملاحظاته التي كتبها أثناء التدريس، فتم طبع ونشر عشرات الآلاف من النسخ من كتاباته ومقالاته، تلقفتها الأيدي الشابة لتتابع باشتياق ولهفة الإطلاع عليها، مما تركت أعمق الأثر في قلوبهم. إن كل ما كتب أو قيل من قبل الدكتور شريعتي كان نابعاً من الصدق والإيمان، لذا تراه يحظىٰ بالإقبال الكبير لدىٰ الجميع.

«الرجل الصالح لا يتركه الزمن ولا تتركه الحياة لوحده، فحياته تدافع عنه، والزمن يبرئه، ولا يتمكن الأنذال من أن يدنسوا الطاهر من الرجال مهما رموه بحجر أو اطلقوا عليه من كلاب».

(عن كتاب كوير)

في نظرة عابرة لمؤلفاته المثمرة والعميقة الأصالة، يتبين لنا بأن شريعتي لم يكن يؤمن بالأعمال السطحية والظاهرية. ومن هنا فقد تمكن بواسطة قلمه المقتدر وأسلوب بيانه الفصيح أن يعبّر عن أعمق الأفكار الفلسفية وأعقد الموضوعات العلمية والإجتماعية فيصوغها مفهومة للسامع والقاريء. أما الإنسان المتعصب فهو وحده الذي لا يقبلها. ولكن قد يكون هناك شيء من الإبهام في بعض كتاباته، من خلال استفادته من التمثيل والإستعارة واللغة الرمزية، والتعمّق في الكلمات، ومثل هذا يولّد الريبة والشك لدى

بعض الأفراد ممن يفكرون بصورة سطحية وهامشية، ومثل هذا الأمر جعل بعض الأفراد ـ ضيقي الأفق ـ يواجهون كتابات الدكتور شريعتي باعتراضاتهم. لقد اعتاد مثل هؤلاء أن يطرحوا انتقاداتهم الواهية عندما يتعاملون مع فكر أو بحث مرن وحيوي، وان ما كان يرمي إليه أولئك الناقدون ينطوي على أذواقهم المنحرفة، وقد نسوا قوله تعالىٰ: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾.

على الرغم من أن نظريات شريعتي تتسم بطابع الدعوة للتمسك بالدين، إلاً أن كتاباته تضمنت سبل المعرفة والأسس الفلسفية والتاريخية، وأسس علم الإجتماع بصورة واضحة، مستعيناً على ذلك بالعمل والانعكاسات الدائمة للديالكتيكية.

نستطيع القول طبقاً لوجهة نظر شريعتي، أن التفكير الصحيح مقدمة للمعرفة الصحيحة، والمعرفة الصحيحة مقدمة للإعتقاد، وأن توفر هذه الميزات الثلاث في الضمير الواعي واليقظ، وفي أية حركة، من الناحيتين العملية والنظرية، يوصل إلى الكمال.

عندما تكون العقيدة سطحية ويكون الإيمان سطحياً أيضاً دون وعي، فسرعان ما تتحول هاتين المزيتين إلى ضيق الأفق وتبعية عمياء للخرافة، وتصبحان حجر عثرة أمام بناء المجتمع. فبدون التحوّل العقائدي لا يمكن أن يحدث أي تحوّل عميق في المجتمع، ففي عصرنا الجديد الذي ظهرت فيه تحولات عديدة يستلزم أن نوجد تحولاً فكرياً وعقائدياً.

وقبل أن يظهر هذا التحوّل بهيئة حركة عامة، ينبغي أن

يترسخ في أعماق وجود المرء، وهذا يستدعي أن تبعث روح الحركة والنشاط في المؤسسات (المقدسة) التي مضى عليها زمن طويل من السبات والسكون، وذلك لكي تؤدي دورها الأساس في حركة وجود المجتمع.

إن المعرفة الصحيحة للإسلام تأتي على طريق فهم فلسفة التاريخ، وتستند إلى التوحيد وعلم الإجتماع حول الشرك، وهي مؤشر للحقائق الإجتماعية.

إن التحليل التاريخي الذي اثبته الدكتور شريعتي في كتابه (الحسين وارث آدم) يبين بأن الإسلام لم يكن عقيدة إنسانية تقتصر على زمان ومكان معينين، بل هو تيار يسري في كل تاريخ البشرية، نشأ من ينابيع جبلية بعيدة جداً، وقبل وصوله إلى البحر مرّ بالصخور الموجودة في طريقه. ولا يمكن لهذا التيار أن ينقطع أبداً، وفي بعض الأحيان يظهر الأنبياء والأولياء ليسرّعوا بحركة هذا التيار. وما شهده التاريخ من حروب فإنها كانت تدور بين الحق والباطل، بين التوحيد والشرك، بين المستكبر والمستضعف، والغاصب والمحروم. وهذه الحروب والمنازعات جُسّدت في قصة هابيل وقابيل، وبشكل مبسط اكثر في كفاح موسىٰ وهارون ضد فرعون، إذ مثّل الأخير الجبروت والثروة وتزوير التاريخ بصورته المثلىٰ.

لقد شكلت رهبنة الملأ من جهة، وظهور أفراد أقوىٰ منهم وأكثر حيلة (طبقة المترفين) من جهة أخرى شكلتا معاً طبقة

مستثمرة (بكسر الميم) تنازعت مع الأنبياء، في حين وقف المحرومون والمستضعفون والمؤمنون إلىٰ جانب الأنبياء والشهداء. فالإيمان بالتوحيد يعدّ من مسؤولية التزام أُولئك الذين يقرّون به وهو أمر غير قابل للتشتيت، وعلى هذا المنوال ينبغي على المجتمع الذي يؤمن بالتوحيد أن يستعين بالجهاد بشكله العملي، إذ يرجع عهد النضال المستمر إلى فجر ظهور التاريخ الإجتماعي لبني البشر في زمن آدم، وإن حملة أعلام النضال في سبيل تحقيق العدالة كانوا دائماً من الأنبياء والصالحين، وعليه فالحركة الإجتماعية للبشر تقترن وتتناسق مع النظرة التوحيدية للعالم.

لقد وضع عبء أمانة التوحيد بعد الأنبياء على كاهل الأئمة، أي علي عليه السلام ومن خلفه. فعلى مر الزمن تأصل التشيّع بفعل رفض علي والحسين ثم زينب. ومن ثم استبدل في العهد الصفوي وما بعده، حيث استخدموه كأداة لفرض سيطرتهم وإغناء ثرواتهم. وعلى رغم إرشاد الأئمة ظل وجه الشيعة الواقعي مخفياً تحت غبار الانتهازيين والشكاكين والأزدواجيين. فأخذ شريعتي على عاتقه توضيح الحقائق في محاضراته ومؤلفاته من مثل: (الحسين وارث آدم)، (التشيع العلوي والتشيع الصفوي)، (أبو ذر الغفاري)، (سلمان الفارسي)، (الشهادة) و(مسؤولية التشيع) و(الحج).

وتمكن ملاحظة انعكاس صوت شريعتي في هذه المؤلفات من خلال دفاعه عن الحقيقة وأحقية الإسلام. إن هذه المؤلفات بصورة عامة، تبين المحصلة الفكرية والتحليلية العميقة للتاريخ

والدين لدىٰ الدكتور شريعتي الذي استخلصها من المجتمع بالنهج الذي عرف به.

هناك جانب آخر من اهتمامات الدكتور شريعتي الفكرية، اختص بـ(علم الإجتماع حول الشرك) «دراسة تأثير الشرك في المجتمع» الذي يتضمن تحليلاً واقعياً وانتقادياً لمجتمعات العصر الحاضر. وفي هذا المجال، سلط شريعتي الأضواء علىٰ دور المجموعات والطبقات المختلفة في المجتمع، خاصة المفكرين والمثقفين والعقائد المتنافسة، والمذاهب الفكرية الموجودة في العالم، ودور الحضارات، والثقافات المتفاوتة التي تشترك بصفة واحدة وهي كونها عارية من الإعتقاد بالتوحيد.

كان شريعتي يؤمن بأن الإنسان المعاصر ـ إذا لم يكن معتقداً بالتوحيد ـ فإنه لا يتعدى عن كونه «موجود غريب عن نفسه» وان عمله، بنفس الوقت الذي يفقد فيه ضميره، يتحول إلى نوع من التعلّم الجديد، مدعياً فيه بأنه قد حل محل المثقفين الواقعيين. انظر مؤلفاته التالية:

«العلم والمدارس الجديدة، الحضارة والتجديد، الإنسان الغريب عن نفسه، علم الإجتماع حول الشرك، المثقف ومسؤوليته في المجتمع، الوجودية والفراغ الفكري».

ووفقاً لوجهة نظر علم الإجتماع الصرف، يمكننا أن نقول بأن عدداً قليلاً جداً من المفكرين الإيرانيين نهجوا نهج شريعتي في البحث عن الحقائق الإجتماعية في مجتمعنا المُعاصر. كانت

المفاهيم الإنتزاعية والمجردة لا جدوىٰ فيها حسب رأيه، وإنما كان يصب جُلَّ اهتماماته في الوقائع الموجودة، والقيم، وطرق العمل والفكر، والكيان العقائدي الموجود في المجتمع الإسلامي.

ولأجل عرض مثل هذا التحليل، لم يكن شريعتي يكتفي بمعرفة التيارات الفكرية في أوروبا من جهة، والحقائق الإجتماعية لمجتمعه من جهة أخرىٰ. وفي الواقع فإن معرفة كهذه تذهب بصاحبها إلىٰ الضلالة، وتكمن في طياتها نتائج غير واقعية.

ان تحليل الحقائق الإجتماعية الموجودة يمكن تقبله فقط عن طريق المراجعة واستخدام الإصطلاحات، والتعابير والمفاهيم الموجودة في الفلسفة، والثقافة، والدين، والآداب، التي تتوفر بشكل كبير ودقيق في اللغات الأجنبية أكثر من النماذج التي توجد في اللغة المحلية.

إن ترجمة وتكرار مفاهيم وكلائش علم الإجتماع الغربي، والتي تعبر عن نتاج لتحليل المجتمع الصناعي في القرن التاسع عشر في أوروبا والمجتع الرأسمالي في النصف الأول من القرن العشرين، تبقىٰ دون قيمة بالنسبة لنا، وذلك لعدم تضمنها أوجه الشبه مع حياتنا المعاصرة. ينبغي أن نحلل القيم والعلاقات الخاصة التي تبلورت في مجتمعنا، والتي تتطابق مع جوهر الحياة والسلوك الإجتماعي والحقائق الموجودة في المجتمع وردود الفعل النفسية للأفراد ازاء كل هذه الحقائق. وعليه يجب أن نأخذ بعين الإعتبار صورة المجتمع الإيراني التي تشكلت في التاريخ الإسلامي. ومع

تقديم نظام جامع للإصطلاحات والمفاهيم المتعلقة بعلم الإجتماع يمكننا أن نحلل الأمور. ومن هذا المنطلق فمصطلحات مثل: الإمامة، العدالة، الشهادة، التقوىٰ، التقليد، الحج، الصبر، الغيبة، الشفاعة، الهجرة، الفكر، الشرك والتوحيد وأمثالها هي ناطقة أكثر من الإصطلاحات الأوروبية.

كان شريعتي يضع الواقعية والحقائق نصب عينيه، ويتجنب التفكير المجرّد والإنتزاعي. كان واحداً من علماء الإجتماع الواقعيين والملتزمين، إذ تمكن ـ باستخدام نهج خاص وفكر اسلامي أصيل ـ أن يذهب أبعد مما ذهبت إليه الماركسية في البحث عن القضايا الإجتماعية. كما تمكن من تطبيق نهج تاريخي ديني عميق لعلم الإجتماع المعاصر في الإسلام، وتثبيت أسسه وفق آفاق جديدة.

لقد قام الدكتور شريعتي بتحليل واقعي لتلك الآفاق، إذ أخذ بنظر الإعتبار الأبعاد الاستاتيكية للمجتمع، أي كيانه الحالي من حيث العمل، والقيم وعقائد المجموعات الدينية وغير الدينية المتفاوتة. والأبعاد الديناميكية للمجتمع التي تعني التغيرات والتحولات التاريخية للأمة الإسلامية والمجتمع الإيراني في فترات مختلفة.

أما ظاهرة (الحياد) في علم كعلم الإجتماع فإن شريعتي لم يكن ليقبل بها. كما لم يكن يحبذ في عقيدته أن يكون الباحث الإجتماعي مشرفاً اجتماعياً فقط، حيث شهد عالم اليوم أخيراً

فقدان مفهوم الحياد العلمي بشكل كبير، وقد حلّ الإلتزام والإشتراك الإجتماعي محل المشاهدة والوصف.

بناءً على هذا، فمن الأفضل أن تدرس مؤلفات وأفكار شريعتي وفق وجهة نظر علم الإجتماع.

لقد أسس الدكتور شريعتي أُسس علم اجتماع اسلامي واقعي ذا ابعاد مختلفة، وكان رائداً في ذلك.

والشيء المهم لنا هو أن بحثه للتاريخ، وفلسفة التاريخ، الدين، والشريعة وعلم الإجتماع كان ضمن إطار النظرة التوحيدية للعالم. وعليه فإن مسألة التوحيد ذاتها تعد أساساً فكرياً وعقائدياً لفلسفة التاريخ، إذ أنها تكشف عن ماضي الإنسان والمجتمع البشري، وهي المسؤولة عن تنبؤ المصير الذي ينتظر الإنسان في المستقبل.

إن كل تحليلاته الفلسفية، والتاريخية والعقائدية ـ على حد تعبيره بكل صراحة ـ ناجمة عن إيمانه بالتوحيد:

«التوحيد برمته منزل من السماء إلى الأرض، وهو يقتحم المجالات التعليمية والتحليلية والبحث والجدل الفلسفي والكلامي والعلمي، ليتنازع مع بقية المفاهيم الإجتماعية، ويطرح نفسه وما تنطوي من قضايا في ثناياه، ليعين العلاقة بين المجموعات الإجتماعية، والعلاقة بين الطبقات، وعلاقة الفرد بالمجتمع، والأبعاد الإجتماعية المختلفة، والبنية الفوقية والتحتية للمجتمع، والمؤسسات الإجتماعية، والعائلة، السياسة، والسلوك والعلاقات

الإجتماعية والعائلية والفردية والطبقية والمسؤوليات الفردية والجماعية ازاء المجتمع، لتصبح لهذه المجاميع الإجتماعية ركائز فكرية في التوحيد. وبصورة عامة، فالتوحيد ـ وفق ما ذكرنا ـ يعد حجر الأساس للعقيدة، والترسانة الفكرية لبناء المجتمع التوحيدي، ذلك المجتمع الذي نمت بنيته التحتية المادية والإقتصادية دون تضاد (التوحيد الإجتماعي) كما يتضمن البنية التحتية الفكرية دون تضاد (التوحيد العالمي) أيضاً».

(عن كتاب معرفة الإسلام)

فأصبح لهذا النهج الجديد الذي طرح فكرة التوحيد بأرضية اجتماعية، وربط بين فهم المجتمع ومفهوم التوحيد، مؤشراً لمرحلة ما وراء التضاد والتناقض.

إن علم الإجتماع لدىٰ شريعتي هو انعكاس لنظرته للعالم التي أعطت نتائج طيبة للمجتمع. كان يرىٰ في علم المجتمع حرباً مستمرة بين التوحيد الإجتماعي والشرك الإجتماعي، على طول التاريخ. وكانت تحليلاته الديناميكية في هذا المضمار على الشكل التالي:

«كما هو في النظرة التوحيدية للعالم، التي تعني التوحيد في العالم، فإنه بتحليل الوحدوية في الوجود، يقوم في المجتمع هذا النوع من التحليل للتجمع البشري، وبالشكل الذي يطرح التوحيد نفسه في ساحة الوجود للنظام العالمي، وهو عامل للنضال ضد القوىٰ الداعية للتفرقة والتضاد، وأرباب الأنوار، والقوىٰ الغيبية وما وراء الطبيعة، المؤثرة في تقرير مصير الإنسان والمجتمع.

عرف التوحيد في المجتمع البشري أيضاً، بصفته عاملاً مفنداً للأرباب الموجودين على وجه الأرض، والمسيطرين علىٰ مصائر الناس والغاصبين لقدراتهم، الذين يعيّنون النظم الإجتماعية وشكل حياة الأفراد، والطبقات والعلاقات الإجتماعية، وبعبارة واحدة عامة هو الشرك الإنساني».

(عن كتاب معرفة الإنسان)

ومن وجهة نظر الدكتور شريعتي، فإن كل من الإسلام المدرسي والإسلام الشعبي العام، لم يكونا ذا قيمة، وإنّما أصبحت القيمة الكبيرة (للإسلام الواعي اليقظ). إذ أنه يُرجّح المسلمون الواعون والمثقفون على المسلمين التقليديين. حيث أن بناء الذات وايجاد التحولات الداخلية مقترنان مع بعضهما في الإسلام. وعليه فإن فهم عبارة (ان الحياة عقيدة وجهاد) ـ والتي كان شريعتي يعتز بها ـ ميسّر وقابل للتطبيق.

إنها لدعوة حياتية وفورية للمسلمين الواعين واليقظين في عصرنا، وإن خطابه كان موجهاً بشكل خاص إلىٰ الشباب المثقف، فقد أصاب عندما قال: «عندما يتشبث الشباب بالعقيدة والإيمان فإنهم ينهمكون فيها بشكل كامل، وسوف يمكن أن نبني منهم عنصراً فاعلاً للكفاح في سبيل تحقيق الإسلام».

وقد تركت مؤلفات الدكتور علي شريعتي تأثيراً واضحاً بهذا الصدد لا يمكن نكرانه.

الدكتور غلام عباس توسلي

الفرو المقلوب

كخبير بالعلوم الدينية . .

وخاصة أن ميدان دراستي هو : «تاريخ الأديان» . . !

وعبر تتبعي وبحثي للتطور التاريخي للأديان[١] توصلت إلى بعض النتائج ، واستطعت أن أقارن بين كيفية الاعتقاد في الماضي وكيفيته اليوم . .

وبالقدر نفسه استطعت أن أستشرف المقارنة التي توضح أوجه الاختلاف بين العقيدة في حقيقتها وبين واقعها[٢] .

---

(١) إن مصطلح الأديان الذي أوردته هنا كمصطلح تاريخي واجتماعي ، واستخدمته كلغة لعلم الأديان ، والذي يطلق على كل رسالة ودعوة ذات جوانب دينية ، في مقابل الرسالات والدعوات الفلسفية والعلمية والسياسية والأدبية والفنية وغير ذلك إن كان لها جذور ما ورائية أو لم يكن لها . ذلك لأنّ البحث في حقانية الأديان وعدم حقانيتها من مهام الحكمة الإلهية وعلم الكلام لدى كل دين . ولا أنوي هنا الخوض في ذلك .

(٢) أرجو التأمل في كل كلمة .

ومن ثم فإنّ نتائج دراستي هذه ليست قائمة على تجربة أو شعور ديني شخصي ـ وبالقدر نفسه ـ ليست قائمة على تحيّز أو غرض..

فإذا تسنّى لي القيام بدراسة وتقييم لمدى تأثير كل دين على أساس مدى إسهامه في سعادة الإنسان وتطوره، فسوف نكتشف أن نبوة الأنبياء السابقين للنبي الخاتم محمد ﷺ لم تصل في تقدميتها وقوتها وفاعليتها ووعيها لنبوة محمد ﷺ، ولم تصل بتأثيرها في التطور الاجتماعي للإنسان، وفي وعيه الذاتي، وفي حركته وإحساسه بالمسؤولية وطموحه البشري وجهاده في سبيل العدل، ولا في واقعيتها وملاءمتها لفطرة الإنسان ودفعه للإبداع والتكيّف مع التقدم العلمي والاقتصادي، والتوجه نحو الرقي الحضاري والاجتماعي مثل رسالة التوحيد الإبراهيمية في رسالة النبي محمد ﷺ الإسلامية.

وفي الوقت نفسه لا أعرف رسالة وديناً من الأديان السابقة قد تعرّض لحملات الإفساد ومحاولات التحريف إلى ما يناقض طبيعته الحقيقية كما تعرضت له دعوة النبي الخاتم ﷺ!!..

فلو قارنت بين الإسلام الحالي مع سائر الأديان المنحطّة العالمية لعلّك تعتبر رأيي غير سديد، لكن هذه المقارنة خطأ، فيجب قياس انحراف أي حقيقة بالنظر إلى ماضي تلك الحقيقة، ورسم مؤشر بين وضعها الحالي وما كانت عليه عند نقطة البدء.

وإذا قمنا بتلك المقارنة بين المذاهب الإسلامية، وأجرينا

بحثاً وتقييماً سنجد أن وضع التشيع في الإسلام كوضع الإسلام بين الأديان.

ويا للعجب!

ففي المقارنة بين الحقيقة والواقع لدى الأديان الأخرى يمكن استعمال كلمة (اختلاف) لكن هذه الكلمة لا تعبّر عن المصير التاريخي للإسلام والتشيّع في المقايسة مع سيرتهما، ولا يمكن التعبير عن تلك الحالة إلا بالتضاد أو التناقض[١].

---

(١) والتعبير الأكثر دقة هو ما قاله أعرف الناس بالإسلام وأخبر علماء العلوم الإجتماعية وأدراهم بالمصير التاريخي للإسلام، وخير من تكلّم وعبّر وتفنّن وهو (علي) الذي عبّر بجملة واحدة عن كل ما أراد من التعبير عنه متخصصو العلوم الإسلامية والعلوم الإجتماعية وما طرحوه من تحليل علمي لتاريخ الإسلام وما أعدّوه من كتب ومؤتمرات مطوّلة، وما قاموا به من مقارنات بين الحقيقة الأولى للإسلام وواقعه الفعلي ورسالته البنّاءة، والدور الهدّام الذي أدّي، وما حاولوا إدراكه من فهم وإحساس الناس الواعين والمفكرين المسؤولين في الماضي والحاضر عن الإسلام، والمقارنة بين ذلك كله. وتبيان جمال الإسلام وجاذبيته، وقبح ما مسخ منه، ومحاولة إثباتهم أن الإسلام دين مميّز غير سائر الأديان، وأنه كان مميّزاً في انحطاطه أيضاً، أو دفعه إلى الانحطاط، وأن الإسلام الأول كان أجمل رسالة ودعوة، وأنه أصبح في سيره التغييري نحو الإنحطاط ليصبح أبشع رسالة. نعم لقد قلت إن أسمى رسالة فكرية وأكثر رسالة إنسانية تقدّمية تحوّلت إلى أشدّ الرسالات انحطاطاً، كل هذا الحديث بيّنه (علي) باستعارة بسيطة وطبيعية من حياة عامة الناس، وبشكل دقيق وكامل حين قال: «لُبِسَ الإسلام لبس الفرو مقلوباً». فالفرو لباس، لكنه مميّز عن سائر الألبسة في الشكل والإستعمال، والفرو هو اللباس الوحيد الذي ظاهره جميل جداً، وباطنه قبيح وأسود، ظاهره ذو نقش بديع، وباطنه يخيف الأطفال، أوليس أطفالنا اليوم يرهبون من الإسلام؟ فالإنسان يلبس الفرو مقلوباً والخروف يلبسه ظاهراً.

والأعجب!

إنَّ الأمر يبدو وكأن قوة ما أعدت لها التسهيلات المادية والتوجيهات المعرفية، ظاهراً وباطناً، ثم استخدمت جمع من الأذكياء ذوي العلم الواسع من فلاسفة التاريخ وعلماء الاجتماع وخبراء في مختلف العلوم الاجتماعية، بما فيها علم النفس الاجتماعي ودهاة السياسة وعلماء اللاهوت ومفسري القرآن ودارسين للغة العربية والآداب الإسلامية، بما فيها الشعر والنثر وعلوم الفقه ومتخصصين في الشؤون الاجتماعية للمسلمين: من عادات وتقاليد وأعراف، ومن العالمين بمواطن الضعف والقوة لدى المسلمين بعد دراسة متعمقة للشخصية المُسلمة وسلوكها النفسي والاجتماعي والاقتصادي..

كل هؤلاء التقوا في عملية التحريف الشاملة لعقيدة الإسلام من خلال متابعة حاذقة وعبر خطة علمية مدروسة مستهدفة الإسلام والمسلمين..

* * *

إنَّ المدى الذي بلغته معرفتي يؤكد لي من زاوية نظرية وعملية أن الدعائم الأساسية لعقيدة الإسلام (والتي تمثل الدوافع المحرّكة لأمة المسلمين، وتجعل الفرد المسلم حراً وواعياً وكريماً ومسؤولاً نحو المجتمع) هي: **التوحيد والجهاد والحج**.

ومن المؤسف أن ينحصر مفهوم التوحيد في مناهج المدارس الدينية داخل الجدل الفلسفي وعلم الكلام الذي لا يتداول إلاَّ بين

قلة من علماء الإسلام، والذي هو في حقيقته ليس إلاً جدل عقيم لا يمت بصلة إلى أي بعد تطبيقي عملي متعلق بحياة الناس. .

وبعبارة أخرى: إن الذي بقي من التوحيد هو مفهوم الإله الواحد، وليس التوحيد بأبعاده الحقيقية. .

أما مفهوم الجهاد فقد تمت مصادرته تماماً، ودفن في مقابر التاريخ. .

وقد حُرّف عماده المتمثل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأصبح يعني أن تلوم صديقاً لك! . .

فضاع معنى التصدي للفساد والانحراف ومظاهر الفسق في أشخاص مرتكبيها. .

وأخيراً فقد صُوّر الحج كعمل مشوه مناقض للمنطق يقوم به المسلمون كل عام. . !

لقد أفلح أعداء الإسلام في أن يلحقوا بفريضة الإسلام الخامسة التحريف الذي يبتغونه، وذلك بانتهاج سياسة موحدة. .

فقد أُضرمت الخلافات الفقهية في أبواب الطهارة والصلاة من كتب الفقه إلى حياة الناس لتستهلك طاقة كل من يلجأ إلى المسجد! . .

وفي الوقت نفسه دُفِعَ القرآن الكريم ليأخذ مجراه إلى الجالسين عند المقابر يتلونه على أرواح الموتى! . .

أما في المدارس الدينية فقد نُحّيَ القرآن الكريم عن حياتهم

بطريقة أخرى، ووضع على الرفوف لتحل محله كتب أصول الفقه وعلم الكلام (على أيدي المعلمين).

وواقع الحال الظاهر لكل عين سليمة يشهد على ما يؤول إليه حال المسلمين عندما يغيب القرآن عن حياتهم وعن مناهج الدارسين والمتعلمين منهم..

تُرى هل يستطيع المفكر المتجرد الذي يستشعر مسؤوليته تجاه شعبه، أو المسلم الذي يستمد شعوره بالمسؤولية من إيمانه، أو المفكر المتجرد الإسلامي الذي يستمد شعوره بالمسؤولية من إيمانه وأمته معاً.. وهو يقبع ساكناً أن يحس بالراحة؟..

هل ترى كل واحد منهم حين يظن أنه باللجوء إلى أحد مذاهب الفكر الغربي سوف ينقذ أمته ويحل مشاكلها؟!!..

كلا يا صديقي المفكر ويا أخي المسلم!!..

إن تكن تستشعر المسؤولية تجاه الله أو تجاه الشعب أو الأمة ـ سواء ـ فنحن في زورق واحد، ويناط بنا مسؤولية واحدة، وفي سبيل حريتنا واستعادة كرامتنا وعزتنا فالطريق الأمثل هو أن نسلك ذات السياسة التي ينتهجها عدونا، وأن نعود إلى الطريق التي ضللنا عنها:

فلا بدَّ أن نُعيد القرآن الكريم مرة ثانية من القبور والمآتم إلى الحياة وتفاعلاتها، وأن نقرأه على مسامع الأحياء لا الموتى، وأن نسحبه من على الرفوف ونفتحه أمام عيون الطلاب والدارسين بمختلف نوعيات دراستهم ومستوياتها..

فقد عجز عدونا عن القضاء على القرآن، ولكنه عمل على تنحيته بعيداً، مغلقاً في زاوية مهملة بعيدة، بعد أن أحاطه بهالة من الاحترام اللازم «للكتاب المقدس» الذي لا يُمسّ!..

وعلينا نحن أن نعيده «كتاباً للقراءة والدراسة والعمل» أي المعنى الذي يؤكده لفظ القرآن الذي سمي به[١]..

ترى هل يجيء اليوم الذي يصبح فيه القرآن الكريم هو الكتاب الأساسي، والدستور الأعلى لمدارسنا الإسلامية، ومصدر الإلهام في دروسنا الإسلامية؟..

هل يجيء اليوم الذي تكون فيه الدراسات القرآنية شرط للتأهل لدرجة الاجتهاد؟..

إننا إذا عدنا إلى القرآن الكريم، واهتدينا بهديه في حياتنا ـ عندها فقط ـ سوف يتسنّى لنا أن ندرك جوهر عقيدة التوحيد..

وإذا اعتبرنا القرآن دستوراً أعلى لنظمنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فسوف ندرك الفعالية والابداع اللذين تتضمنهما واجبات مثل: الحج، والجهاد، والإمامة، والشهادة... وسوف ندرك معنى حياتنا نفسها!!..

* * *

(١) من كثرة الآيات التي تبين هذا المعنى يضيق المجال عن ذكرها، وأحيل إلى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن باب: قرأ، درس، كتاب.. وكذلك إلى لسان العرب.

وقد حان الوقت للنظر في أحد هذه الواجبات: «الحج» انطلاقاً من وجهة نظر توحيدية. .

فهذا الكتاب هو ملخص تجربتي الشخصية وفهمي بعد أدائي للعمرة ثلاث مرات، وأدائي للحج الأكبر مرة. .

وهو لا يعدو كونه تعليقاً وتفسيراً لشعائر الحج من عبد خاضع لمولاه. .

فهو ليس كتاباً عن مناسك الحج على أساس شخصي، فهذا لا يجوز شرعاً. .

وهو لا يتحدث في أبواب الفقه، ولكنه أطروحة تدعوك للتفكير. .

وكل ما فعلته هو محاولة لتفسير المناسك كما يفعل أي حاج بعد عودته إلى بلاده، ومحاولة تداول الأفكار والآراء مع الآخرين. . وهذه سُنَة. .

ففي كل عام يتاح للأغلبية التي لم تجد فرصة للحج أن تشارك الأقلية التي استطاعت الحج مشاعرها وانفعالاتها وخطوات رحلتها وخلاصة ما جنته من هذه التجربة الفذّة.

ولو اضطلعت قيادة مسؤولة بمهمة توجيه وتعليم مليون مسلم يأتون من كل فج عميق من البلاد المتخلفة ومن مستويات تعليمية شبه أمية، أو قل شبه متعلمة. .

ولو أُعطي هذا العمل الاهتمام الذي يصرف للمأكل والصحة

والهدايا التذكارية ومظاهر الرفاهية الأرستقراطية القبيحة . .

ولو أنها اهتمت قليلاً بتأمل معنى شعائر الحج بدلاً عن الانصراف إلى التفاصيل إلى درجة الإغراق فيها وغياب الوعي . .

لو حدث كل هذا لأمكننا أن نجعل من الحج، كل عام دورة دراسية تُشرح فيها عقيدة الإسلام نظرياً وعملياً لمليون حاج يمثلون كل مكان في العالم، ولأدرك هؤلاء جميعاً ماذا تعني مقاصد الحج، وماذا تعني النبوة، ويدركون القيمة التي تنطوي عليها وحدة المسلمين ومصيرهم، ولأمكنهم أيضاً أن يعودوا بما حفظوا من المعارف والمعلومات إلى أوطانهم ومجتمعاتهم وأقوامهم وعشائرهم وأسرهم . .

خلاصة الأمر أنّ الحج بهذا الفهم كان سوف يصير مدى الحياة مرشداً لهم في ظلام المجتمع كالشعاع الذي يضيء في دياجير الظلام . .

علي شريعتي

مدخل

ما الذي تعلمته من الحج؟

هذا التساؤل ينبغي أن يطرح إبتداءً . .

وما هي ماهية الحج؟

الحج في جوهره هو عملية ارتقاء الإنسان نحو الله . .

وهو المظاهرة الرمزية لفلسفة خلق آدم . .

وبعبارة أوضح وأقرب: إنّ أداء شعائر الحج هو استعراض لعدة أشياء في وقت واحد؛ فهو: «عرض لقصة الخلق» وهو: «عرض للتاريخ» وهو: «عرض للوحدة» وهو: «عرض لعقيدة الإسلام» وأخيراً هو: «عرض للأمة» . .

الأركان الأساسية السائدة في وجه العرض هي:

* الله تعالى: وهو المدبر الذي يوجه الحركات على «خشبة المسرح»[1].

---

(١) يقصد بها المؤلف تشبيهاً مجازياً، ولا صلة لها بمفهوم المسرح الهزلي أو الفني السائد بتداعياته المقبولة وغير المقبولة!

* الموضوع الذي يُصوّر: هو حركة الأشخاص المشاركين في العرض.

* الشخصيات الأساسية في هذا العرض هم: آدم، إبراهيم، هاجر، الشيطان.

* المشاهد: هي المسجد الحرام، ومنطقة الحرم، والمسعى، وعرفات، والمشعر الحرام، ومنى.

* الرموز الأساسية في العرض تشمل: الكعبة، والصفا والمروة، والنهار والليل، والشروق والغروب، والأصنام، وشعائر الأضحية..

* الملابس والمكياج: هي الإحرام، والحلق والتقصير..

* أخيراً فإنّ الذي سيؤدي جميع الأدوار في هذا العرض هو شخص واحد: أنت!..

لا اعتبار لكونك رجلاً أو امرأة.. شاباً أو شيخاً.. أبيضاً أو أسوداً،.. فأنت السّمة الأساسية لهذا الأداء؛ فإنّ دور آدم، وإبراهيم، وهاجر وهم يواجهون الاختيار بين الله والشيطان ستؤديه أنت..

خلاصة الأمر: أنك أنت بالذات بطل هذا العرض.

* * *

إنَّ المسلمين في كل بقاع الأرض يدعون في كل عام للمشاركة في هذا العرض الجليل..

الكل سواسية كأسنان المشط، لا فرق ولا تمايز بينهم لاختلاف الجنس أو الأصل أو الطبقة الاجتماعية. .

ووفقاً لمبادئ الإسلام فإنّ الكل يساوي الفرد، والفرد يساوي الكل:

﴿. . . مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا. . . وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا. . ﴾[1].

* * *

وتستمر افتراءات أعداء الإسلام متمثلة في حملات تستهدف النيل من قيمه وتعاليمه، وخاصة ما يرمونه به من عدم احترام عقلية الإنسان وكيانه وحقوقه كإنسان! . .

وبالنسبة لفريضة الحج فقد جعلوها فريضة هامشية قليلة الأهمية. .

وكما يقول الإمام علي عليه السلام: «كأن الإسلام هو أن تلبس العباءة مقلوبة!»

ما الذي تعلمته أنا الباحث الشغوف من الحج «الركن الخامس للإسلام»؟

وإلى أي مدى أستطيع أن أستنبط، وأن أدرك من معاني هذه التجربة؟ . .

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٢.

إنَّ الصفحات الآتية تحوي جهدي المتواضع في محاولة للإجابة عن هذين التساؤلين. .

وليس هدفي ـ بالطبع ـ وصف ما الذي يجب عليك أن تفعله في الحج، فهذا الغرض يمكن تحصيله بالرجوع لأي كتاب من كتب المناسك. .

لكن الذي أريده هو أن أشركك معي في المعاني التي تجسدت لي من تلك المناسك، والتي ستعينك على أن تفهم الحكمة التي من أجلها شرّع الله الحج، أو على الأقل تدفعك للتفكير في تلك المناسك.

* * *

الخروج عن مألوفات حياتك

الحياة اليوم ليست هي الحياة كما ينبغي لها أن تكون؛ فهي لا تعدّ وكونها تدور في حلقة مفرغة، أو هي حركة لا تقصد إلى هدف ولا ترمي إلى غاية، أو هي كرقّاص الساعة يغدو ويروح بلا معنى.. فيبدأ الإنسان دورته نهاراً لينهيها ليلاً، ويبدأها ليلاً لتنتهي مع خيوط الصباح. وبين هذا وذاك يجلس ليراقب لعبة الفأر الأبيض والفأر الأسود وهما يمضغان نسيج حياته حتى يفضيان به إلى الهلاك[١].

فالحياة (حياة الإنسان) الآن أشبه ما تكون بقاعة مسرح، والإنسان مشاهد لتعاقب الليل والنهار حيث لا هدف ولا معنى..

ويبقى السؤال: ما الذي ترمي إليه هذه المسرحية الضيّقة الأفق؟

---

(١) راجع باب (برزويه المتطبب) من كتاب «كليله ودمنه». وهو كتاب في تهذيب النفس وإصلاح الأخلاق والإرشاد إلى حسن السياسة. جعلوه على ألسنة الحيوانات. نقله ابن المقفع عن الفهلوية. «المصحح».

إنَّ الإنسان إذا استشعر حاجته إلى شيء ما، فإنه يكافح في سبيل الحصول عليه، وإذا توصل إليه، فإنه ينظر إلى هذا الشيء وما بذله من جهد للحصول عليه بشيء من الاستخفاف! . فيا لها من حياة مادية لا معنى لها، نغرق أنفسنا فيها . .

إنَّ افتقاد الإنسان للوجهة، وجَعْل هدفه من الحياة هي الحياة ذاتها، وسلوك سبيل المتفرج السلبي لتعاقب الأيام، يجعل منه روحاً ميتة في جسد حي.

وقد جاء الحج ليغيّر هذه الحياة السقيمة . .

عندما تقرّر أن تؤدي فريضة الحج، وتبدأ الخطوات اللازمة لذلك؛ تكون قد دخلت بالفعل في الحج . .

قبل الشروع في الذهاب إلى الحج تكون ساكناً في بيتك مستقراً هادئاً . .

وما أن تُهّيء ذهنك للحج؛ فإنك تنهض وتتحرك بعيداً عن أجوائك الرتيبة . .

الحج مضاد لحياة اللامعنى واللاهدف.

أداء الحج خلاص من شِبَاك الحيرة المعقدة . .

سافر من دارك ووطنك لتزور «بيت الله» أو «بيت الناس»[(١)].

---

(١) يشير إلى الآية الكريمة: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ سورة آل عمران: الآية ٩٦.

إنك أنت ـ أيّاً من تكون ـ إنسان، وابن آدم، وخليفة لله في الأرض، ومن عيال الله (والناس عيال الله) ومحل أمانته، وسيد الطبيعة، والمتعلم من الله..

لقد علمك سبحانه الأسماء كلها ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[١] ونفخ فيك من روحه، وزوّدك بالخصائص المتميزة، وجعلك محل ثنائه..

حتى ملائكته ـ سبحانه وتعالى ـ أسجدها لك، وسخّر لك ما في الأرض جميعاً، وأحاطك برعايته..

وأينما تكون يراقب أعمالك..

وهو ـ سبحانه ـ في عونك..

* قلب المؤمن عرش الله أو عرش الرحمن[٢].

* ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾[٣].

* ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾[٤].

* ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[٥].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣١.

(٢) يقول المؤلف: جاء في حديث عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأورده صاحب أسرار الحكمة، ص ١٦٦، ٢٢٥.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٣.

(٤) سورة الحديد، الآية: ٢٥.

(٥) سورة الكهف، الآية: ٧.

* ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾[(١)].

ومع مضي الوقت وبتأثير قوى وعوامل مختلفة في النظام الاجتماعي الذي لا يقدر حقوق الإنسان ولا واجباته، فإنّ شخصيتك سيعتريها التغيّر، وفطرتك ستصيبها الآفات.

ومع تقلّبات الحياة وابتلاءاتها فإنك ستغدو مهملاً ومعزولاً..

لكن الأصل في الإنسان ـ الذي يحمل نفحة من روح الله في أعماقه ـ أن يكون خليفة لله في الأرض، وموضع ثقته سبحانه..

لقد ائتمنك الله على الوقت لأنه وسيلتك للوفاء بتلك الخلافة، ولكنك أخفقت لأنك أهملت نعمته ولم تحسن استغلالها ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾[(٢)].

* * *

هذا هو معنى الحياة الذي من أجله كانت..

لكن، ما الذي تحقق على أرض الواقع بالفعل؟! وكم مشروع تمّ إنجازه؟..

وما هو كسبك أنت بالذات؟ ما الذي قدمته أنت نفسك؟..

---

(١) سورة الملك، الآية: ٢.

(٢) سورة العصر، الآيتان: ١ ـ ٢.

كم من السنين الغالية بدّدتها هدراً؟ . .

والسؤال قائم: من تكون أنت؟ . .

إنك حامل أمانة الله وخليفته في أرضه، ولكنك وجهت وجهك نحو المال والنساء ومختلف الشهوات. . والطمع والعدوان والخيانة. .

لقد انحدرت إلى درك الحمأ المسنون الذي كنت فيه قبل أن ينفخ الله فيك من روحه، فأين هي روح الله اليوم؟!.

إنهض أيها الإنسان من هذه الأوضاع المزرية، وتحرّر من هذا الموت البطيء. .

اخرج من أرضك، واذهب إلى الأرض المقدسة لتلقى الله تحت أديم السماء العامرة بالإلهام، المفعمة ببركات الوحي: سماء المشعر الحرام لتهزم الغربة التي تعانيها. .

وأخيراً: ستلقى نفسك!. .

* * *

الموسم

والآن حان الموعد، إنها لحظة اللقاء، ذي الحجّة، شهر وحج، شهر الحرمة، السيوف هدأت، صمتت همهمة خيول الهيجاء وصرخات المحاربين.

التوجه تلقاء الله

يحين الحج في الشهر المبارك «ذي الحجة» على أرض مكة التي يلفها السلام والسكينة؛ حيث لا مكان فيها للخوف والبغضاء والحرب..

إنها صحراء تمتاز بالأمن والسلام، ويسود فيها مناخ العبادة والروحانية حيث يتاح للناس أن ينعموا بلقاء الله الرحمن الرحيم..

أم تسمع نداء إبراهيم عليه السلام:

﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[1].

أيها الإنسان، يا من خلقت من حمأ مسنون أو من صلصال كالفخار، إبحث عن روح الله فيك، واستجب لدعوته، واذهب لتلقاه فإنه ـ سبحانه ـ ينتظرك.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٢٧.

إنَّ بقاء الإنسان في الحياة دون التوجه للإنابة إلى روح الله استهتار لا معنى له . .

حرّر نفسك من رغباتك وأطماعك التي تنأى بك عن الله، وانضمّ إلى الفوج البشري الخالد المهاجر إلى الله في الحج . . وهناك ستلقى الله .

* * *

قبل الذهاب إلى الحج يجب أن تسدّد ديونك كلها . .

كل أحقادك وضغائنك تجاه الأهل والأصدقاء لا بدّ من تصفيتها ونبذها وإصلاح ما نتج منها . .

عندئذ فقط تكون نيتك حاضرة للحج . .

وهذه المقدمات كلها يقوم بها الإنسان ـ أيضاً ـ عندما يستشعر دنوّ أجله! . .

وهذه المقدمات تحقق طهارتك المادية والمعنوية والنفسية . .

إنها لحظات الوداع الأخير . .

وها قد تمّ تصوير مستقبل الإنسان بعد لحظات الوداع الأخيرة والرمز إليهما . .

والآن فقط صرت حراً لتنضمّ إلى قافلة الخلود . .

لا حيلة لك، وليس بيدك شيء، وأنت في موقف البعث أمام ميزان أعمالك، وسمعك وبصرك وفؤادك خير شاهد عليك:

﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[١].

أنت وكل جارحة في جسدك مسؤولون عن أعمالكم.

وما دمت في دار العمل فاستعدّ لدار الحساب، واختبر الموت قبل الموت، واذهب إلى الحج..

فالحج يمثل الرجوع إلى الله تعالى الذي لا تحدّه حدود، وليس كمثله شيء..

والرجوع إلى الله هو دلالة قاطعة على اختيار الإنسان وسعيه نحو الكمال والخير والجمال والقوة والعلم والحق والأخلاق الفاضلة..

في رحلتك إلى الباقي ستكون الرحلة سرمدية حيث يقودك إلى الصراط السويّ، وحيث تمتدّ الرحلة بلا نهاية..

وطريق الإسلام مختلف عن طرق الصوفية السكرى[٢] فحياة المسلم ليست بحياة لاهوتية ساكنة، ولكنها حياة جهاد ومجاهدة للتقرّب إلى الله:

﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[٣].

﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾[٤].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

(٢) يقصد المؤلف الجانب السلبي، والذي ينتج من الممارسات الخاطئة.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٥٦.

(٤) سورة الشورى، الآية: ٥٣.

فليس هدفنا أن «نفنى» لكن أن «نزهر»! مبتغين في ذلك وجه الله وحده تقرباً إليه سبحانه.

والله تعالى ليس ببعيد عنك حتى تجهد في الوصول إليه؛ فإنه أقرب إليك من حبل الوريد:

﴿.. وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[1].

وبهذا المفهوم نعلم أنّ كل شيء من دون الله هو أبعد عنّا من الله سبحانه وتعالى بُعداً متفاوتاً..

* * *

يا أيها الإنسان..

يا من أمر الله ملائكته بالسجود لك!

ها قد استطال عليك العهد، وأحكم المجتمع عليك نفوذه حتى تبدلت تبدلاً كبيراً..

فلم تبقَ صامداً ومخلصاً لعهدك بأن تعبد الله وحده، فتعبّدت للطاغوت..

وبعض الطواغيت صنعتها أنت بيمينك!!

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[2].

لقد أضحى طابع حياتك الإخلاص لبعض الأفراد والخضوع

(١) سورة ق، الآية: ١٦.

(٢) سورة القمر، الآية: ٥١.

للهوى الشخصي، والقسوة، والجهل، وانعدام الوجهة، والخوف، والطمع..

صارت حياتك ـ إذاً ـ مشاكلة ومشابهة لطباع الحيوان، وأصبحت مثل الذئاب والثعالب والفئران والخراف!.

أيها الإنسان عُد إلى أصلك، واذهب للحج، وزُرْ ربك الودود الذي خلقك في أحسن تقويم..

إنه ينتظرك ليراك..

دع قصور السلطان، وكنوز الثروة، ومعابد الضلال.

وأطلق سراح نفسك من هذا القطيع الحيواني الذي يرعاه الذئب.

انضم إلى جيش «الملبّين» السائر إلى «بيت الله» أو «بيت الناس»[1].

(١) إشارة إلى الآية الكريمة ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾. سورة آل عمران، الآية: ٩٦.

أدخل إلى الميقات فرداً[(١)]

يبدأ العرض في الميقات.

وفي هذا الموضع يجب على المثل (الإنسان) أن يبدّل ثيابه..

لماذا..؟!.

لأنّ ثياب الإنسان تكسوه من الخارج مادياً كما تكسوه الشخصية من الخارج معنوياً..

بعبارة أخرى: فإنّ المرء لا يرتدي ثيابه، ولكن ثيابه هي التي تغطيه؛ فملابسنا هي التي تعبّر عن أنماط حياتنا، وتميّزنا وتحدّد طبقتنا ووجهة تفكيرنا، وهي التي تقيم الفواصل والحدود بين الناس، مما يسبب التفرقة بينهم في معظم الأحوال..

(١) يشير إلى الآية الكريمة: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ سورة مريم، الآية: ٩٥. والآية: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ سورة الأنعام، الآية: ٩٤.

وأكثر من ذلك فإنّ الملابس تجعل مفهوم «الأنا» يقتحم، وليس مفهوم «النحن». . كلمة «أنا» ـ في الملبس ـ تأتي في سياق يعبر عن «عنصري» أو «طبقتي» أو «عشيرتي» أو «مكانتي» أو «أسرتي» أو «مقدرتي». . ولا تعبّر عن معنى «أنا» باعتباري إنساناً.

حواجز كثيفة أقيمت في حياتنا صنعتها سلالة قابيل من القتلة والقساة، حتى تمزّقت الروابط بين أفراد الأسرة الإنسانية من أبناء آدم، وتشتتت وحدة الجنس البشري إلى تقسيمات وأشكال عديدة، نتج منها شبكة من العلاقات تجسدت في:

سادة وعبيد. . مستكبرين ومستضعفين. . مستعمِرين ومستعمَرين. . مستغِلّين ومستَغَلّين. . أقوياء وضعفاء. . أغنياء وفقراء. . متخمين وجائعين. . أشراف وسوقة. . أشقياء وسعداء. . نبلاء ووضعاء. . متحضرين وغير متحضرين. . شرقيين وغربيين. . عرب وعجم.

وهكذا انقسمت الأسرة البشرية إلى أعراق وأجناس وأمم وطبقات وجماعات وعائلات. . لكل منها مرتبة مميزة وقيماً خاصة وأسماءً وألقاباً، وكل ذلك لإظهار التفرّد رغم ما يكلفه من تصنّع وجهد. .

* * *

إخلع ثيابك الآن عند الميقات، وارتدِ الكفن[1] المؤلف من قماش أبيض خالص. . أصبحت ثيابك مثل ثياب أي فرد، وبدا

(١) يقصد ثياب الإحرام.

الجميع في الزي الموحد. .

تحولت إلى جزء ينضمّ إلى الكتلة العريضة، وإلى قطرة تدخل في المحيط.

لا تكن مختالاً فخوراً، فلست هنا لتلاقي نداً أو نظيراً، بل تواضع وانكمش، واخشع لأنك ستلقى الله. .

كن الحي الذي يقترب من الموت، أو الميت الذي يستشعر وجوده. .

في أرض الميقات ـ ودون اعتبارات الانتماء والطبقة ـ إنزع عنك كل قناع كنت ترتديه في حياتك اليومية:

قناع الذئب الذي يرمز إلى الوحشية والطغيان. .

قناع الفأر الذي يرمز إلى المكر.

قناع الثعلب الذي يرمز إلى الخديعة. .

قناع الخروف الذي يرمز إلى الخنوع والذلة. .

دع كل ذلك في أرض الميقات وعد إلى جذورك الأصلية: إنسان فرد من نسل آدم لا غير، أو كما ستكون في المنتهى يوم تموت، وما بعد الموت. .

لف نفسك بقطعتين من القماش[١] تغطي إحداهما كتفيك

---

(١) تلف واحدة بوسطك وتسمى «الإزار» بحيث تغطي ما بين السرة إلى ما بعد الركبة بما فيها السرة، والأخرى توضع على الكتفين والظهر دون الرأس ويسمى «الرداء».

وتتدلى الأخرى من حولك لتغطي جزءك الأسفل.

ليس ثمة نسق خاص من التفصيل، أو نوع معيّن من القماش.. مجرد نسيج بسيط خالٍ من الألوان، والجميع يرتدون نفس النمط من الإحرام، فلا يعكس المظهر امتيازاً لأحد..

قوافل الحجيج من كل بقاع العالم تلتقي في الميقات، في ذات المكان وذات الزمان.. معاً في الطريق إلى الله، حيث لا يكون الإنسان كما هو، ولكن كما ينبغي أن يكون:

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾(١).

يا للروعة كل شيء يتحرك من طور إلى طور: الحياة والموت.. الموت والحياة.. التناقض.. التحوُّل.. والوجهة:

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾(٢)

وهكذا يبقى الله وحده كاملاً خالداً سبحانه:

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾(٣)

الحج أيضاً «حركة» حيث يقرّر الإنسان العودة إلى الله ويدفن كل أنانيته وحبه لذاته في أرض الميقات، ويشهد موته بنفسه ويقف بقدميه على قبره..

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٨.

(٢) سورة القصص، الآية: ٨٨.

(٣) سورة الرحمن، الآية: ٢٩.

هنا يستحضر الإنسان المصير الأخير لحياته، ويخوض تجربة الموت في الميقات، وسوف يخوض تجربة البعث عندما يستأنف المناسك بين الميقات والوقوف بعرفة..

فالمشهد أشبه ما يكون بيوم الحساب:

فعلى امتداد الأفق يتدفق طوفان من اللون الأبيض..

كل الناس يرتدون الكفن، ولا أحد يمكن التعرّف عليه..

تركت الأجساد في أرض الميقات، والروح وحدها هي التي تندفع هنا..

الأسماء والأعراف والمراتب الاجتماعية لا تستطيع أن تخرق هذا التضامن العظيم، حيث ينبعث مناخ الوحدة عبر الزمان والمكان..

إنه استعراض بشري خاضع لله الواحد القهار..

الخوف والرجاء.. الرغبة والرهبة.. الدهشة والإقبال..

كلها تنصهر داخل جسيمات دقيقة مجذوبة داخل حقل ممغنط..

تقشعرّ الجلود وتلين لذكر الله.. وتوجل القلوب وتنتشي الأفئدة..

جعل الله الكعبة قبلة له سبحانه، والإنسان وحده يعرض نفسه مولياً وجهه شطرها واقفاً تلقاءه سبحانه..

في هذه الأرض الجرداء القاحلة تتلاشى كل الأمم والعشائر في قبيلة واحدة ووفد واحد يستقبل القبلة الواحدة. .

* * *

الآن وبعد أن نزعت عنك ملابسك وكل شارة تميزك، وعليك أن تدخل إلى قلب الزحام وأنت محرم، وعليك أن تنسى كل شيء يذكرك بحياتك. .

كل واحد يفني ذاته، ويأخذ شكلاً جديداً هو شكل الإنسان كما خلقه الله. .

كل الأنانية والخصاصة تدفن، وتصبح المجموعات هي الأمة. .

كل «أنا» تموت في أرض الميعاد لتنشأ «نحن». .

قبل أن يحين موعد مغادرتك إلى «منى» يجب أن تكتمل في أمة كما فعل إبراهيم:

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1]

وفي النهاية سيصبح الواحد هو الأمة، والأمة هي الواحد، والجميع سواسية. .

لقد تحول مجتمع الشرك إلى مجتمع التوحيد، وهذه هي الأمة أو الجماعة التي هي على صراط مستقيم. .

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٠.

إنه مجتمع الكمال والنشاط الذي تقوده القيادة المسلمة «الإمامة».

كل من يؤدي الحج فإنه يبتعد عن نفسه وهواه، ويتوجه للقاء الله تعالى..

لقد نفخت فيك روح الله، وغادرت دار الغربة إلى دار السلام، وكشفت لك حجب الحقائق، وانتصرت على الجهل والقهر، وأشرقت روحك بمعاني الوعي والعدل، ونبذت الشرك واعتنقت التوحيد.

وقبل ذلك فإنّ أداء الحج لأولئك الذين أهملوا طبيعتهم الإنسانية والذين اغتربوا عن ذواتهم بالسلطان أو بالمال أو بالجاه أو بالأرض أو بالعصبية، والذين كانت حياتهم لا تعني سوى الحياة الدنيا..

كل هؤلاء قد أتاح لهم الحج أن يكتشفوا ذواتهم، فهم الآن يرون بعضهم بعضاً «مجتمعين» كأنهم «واحد» أو يرى كل واحد منهم الآخر «منفرداً» كل واحد «إنسان» ولا شيء غير ذلك..

* * *

النية

قبل أن تدخل إلى الميقات حيث التحوّل العظيم وبداية الثورة، لا بدَّ من الإفصاح عن نيتك..

فما فحوى هذه النية؟ وعلى أي شيء تنطوي؟

إنها نية تلبية دعوة رب الناس إلى بيت الناس..

نية الانتقال من بيتك إلى بيت الناس؛ من الحياة إلى الحب..

من الطبقية والعنصرية إلى المساواة والوفاء والحق..

من إنسان تغطيه الثياب إلى فرد عارٍ لا يستر جسده إلاّ خرقة..

من الحياة الرتيبة اليومية إلى الحياة السرمدية الأبدية.

باختصار: إنه الانتقال إلى حالة الإحرام.

ومن هنا كان لا بدَّ أن تؤكد على نيتك بقوة.

وذلك لأنك ستبدأ في النمو خارج قوقعتك كما تنمو نواة التمر.

ولهذا أيضاً يجب أن تكون في أعلى درجات الانتباه واليقظة، وأن تكون واعياً أقصى ما يكون الوعي.

والنية لا تكون صادقة إلاً إذا كان قلبك عامراً بالإيمان.

فاقدح زَنْد قلبك بنور الحب واليقين، واجعل الإيمان الفياض وقوداً لهذا الحب واليقين، ليبقى تلألؤه عامراً في قلبك..

انسَ كل ما يتعلق بشخصيتك.

* * *

لقد كانت حياتك في الماضي مزيجاً من التقصير والجهل، وكنت لا ترى لوجودك معنى..

حتى في حياتك الوظيفية والعملية صرت عبداً تعمل بحكم العادة أو مقهوراً بالأوامر..

الآن تحوّل عن هذا النمط من الحياة، وعد إلى فطرتك واعياً مؤمناً واثقاً بالله الرحمن الرحيم، وانظر نظرة جديدة إلى الحياة وإلى الناس وإلى نفسك!..

اختر وظيفة جديدة، وقبلة جديدة، وروحاً جديدةً..

* * *

الصلاة عند الميقات

حينما تصل إلى أرض الميقات أو تحاذيها، تستعدّ لتبدأ المناسك الفعلية للحج، وتركز ذهنك فيما يجب أن تفعله، ولماذا تفعله..

وفي ثياب الإحرام ستؤدي صلاة الإحرام[١].

لتكن أنت بنفسك حاضراً حضوراً كاملاً أمام الله الرحمن الرحيم..

عندئذ قل: (يا الله.. لم أعد عبداً للطواغيت. لم أعد عبداً للنمرود.. يا الله إني أقف أمامك كما وقف أمامك قبلي عبدك إبراهيم.. متجرداً من طغيان الذئاب.. متجرداً من غش الثعالب.. متجرداً من شح الفئران.. كلا!.. إني لا أقف بين يديك إلاّ كمجرد «إنسان» يلبس ذات الكفن الذي سيلقاك به في دار الآخرة).

إنَّ هذا الحضور الكامل يعني أنك قررت بكامل إرادتك ووعيك

(١) إذا لم يحرم عقب صلاة مكتوبة صلى ركعتين وهما مستحبتان.

أن تكون عبداً لله وحده، تؤمن به وحده، وتكفر بكل ما دونه.

وقد عبّرت عملياً عن حضورك التام كما كلفك به سبحانه من واجبات وفرائض.. إن هذا الحضور التام وهذه المعاني التي تنبثق منها هي المعاني نفسها التي تنبثق من الصلوات الخمس التي تؤديها في اليوم والليلة، ولكنها في هذا المقام تكتسب خاصية فريدة في استجابتك لدعوة أبيك إبراهيم، تتجسد في مناجاتك الحميمة معه سبحانه وأنت تستشعر حضوره جلّ شأنه قريباً منك.

قل: (يا الله.. يا أكرم الأكرمين.. يا أرحم الراحمين.. يا من تعالت رحمتك وعزتك فوق صداقة الأصدقاء وعداوة الأعداء، وصلاح الصالحين وفساد المفسدين، وإيمان المؤمنين وكفر الكافرين.

يا الله إني أعبدك لأنك وحدك أهل للعبادة.. لم أختر لي سيداً سواك.. أنت مالك يوم الحساب ويوم الدين: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1].

لك حبنا كله.. ولا معين لنا سواك.. ترانا أضعنا أنفسنا بجهلنا.. ترانا كيف ضلّ بنا الطغاة.. ترانا ضعفاء تائهين: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾[2].

عند الميقات في ثياب يوم الحشر البيضاء الكل يركع مستنكراً

---

(١) سورة الفاتحة، الآيتان: ٢ ـ ٥.

(٢) سورة الفاتحة، الآيتان: ٦ ـ ٨.

أفعاله التي دفعته إليها دوافع الخوف والطمع . . سائلاً المغفرة مما اقترفه في حياته من هذه الأفعال؛ فكل سجدة هي استغفار وتوبة مما ارتكبه طواعية واختياراً.

الصلاة عند الميقات هي عهد مع الله بتوحيده: فلا ركوع، ولا سجود لأحد غيره.

السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته.

السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. .

كل هذه أذكار تشير إلى القرب، لا إلى البعد.

فالله سبحانه، وإبراهيم الخليل، ومحمد الحبيب، والخلق، والدار الآخرة، والنجاة، والفوز، والتحرر، والحب. . كل منهم حاضر في الميقات. .

فأنت في ثياب إبراهيم الخالية من الألوان تُولد من جديد. .

إنك لا تُولد من جديد فقط، إنك تبعث. .

لم يعد للشيطان الرجيم ـ العاصي لأوامر الله ـ سلطان يخدعك به. .

لم تعد تحسّ بمشاعر الغربة المشرّبة بالخزي.

لقد عدت إلى الله. . وأنت الآن حر مسؤول.

* * *

محظورات الإحرام

وأنت محرم عليك أن تجتنب عدداً من الأشياء.

يجمع هذه الأشياء المحظورة هو أنها تذكرك بتجارتك أو وظيفتك أو طبقتك الاجتماعية أو منصبك أو مكانتك أو عنصرك وحسبك..

إنها تلك الأشياء الجوهرية التي تحدّد حياتك في دنيا ما قبل الميقات.

قد نتفق أو نختلف حول بعضها، ولكن نحددها مجملة كما يأتي:

* لا تنظر إلى المرآة.. حتى لا ترى صورتك، كي تنسى ذاتك مؤقتاً.

* لا تستعمل طيباً ولا تستنشق عطراً.. حتى لا تستحضر ذكريات الأوقات الممتعة في الماضي.. إنك في بيئة جديدة تعبق

فيها الروح، ومن ثم فلا تستنشق إلاَّ المودة والحب.

* لا تصدر أوامر لأحد حتى تستشعر معنى الأخوة.

* لا تؤذي حيواناً ولا حشرة.. ولتعش في سلام متوجهاً بكليتك إلى الخالق الأعظم.

* لا تقطع ولا تقلع نباتاً ولا شجرة.. حتى تشمل رحمتك كل شيء، ولتنزع من نفسك نوازع العدوان، وتستأصل عوامل الشر.

* لا تصطاد من البر شيئاً، ولا تأكل من لحمه إذا صيد لك.. حتى تكون رحيماً بالآخرين.

* اجتنب النساء، وكل مقدمات الجماع.. ولتستلهم الحب الحقيقي.. حتى تتسامى وتكون في مستوى قداسة الموقف ومناسكه.

* لا تعقد زواجاً لك ولا لغيرك، ولا تشارك في مراسم زواج.

* لا تفسق، ولا ترفث، ولا تلعن، ولا تبغض، ولا تقسم.

* لا ترتدي المخيط من الثياب، ولتكن كل ثيابك قماشاً خالياً تماماً من المخيط.. حتى تنأى عن التمييز بين إخوانك.

* لا تغطي رأسك.. للرجال.

* لا تغطي وجهكِ.. للنساء.

※ لا ترتدي حذاءً ولا جورباً. .

※ تجرّد من كل أنواع الزينة.

※ لا تحلق رأسك.

※ لا تقلم أظافرك.

※ لا تستعمل دهاناً.

لقد بدأ الحج! . . .

سارع إلى الله. .

أنت الآن في حالة الإحرام. .

قل: لبيك. . (لقد ناداك الله تعالى، وأنت هنا تلبية لدعوته، وعليك أن تكون في أتم الطاعة له).

لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إنَّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.

إنَّ نداء الناس: (لبيك اللهم لبيك) هو إعلان استنكار ورفض لطغيان واستغلال وخداع القوى العظمى.

إنَّ كل حاج من مكانه يخاطب الله الأعظم. .

تخيّل أيها الإنسان في هذا المقام كأنك جسيم من الحديد في مجال ممغنط. .

تخيّل كأنك في سرب من الطير الذي يضمّ الملايين وهو يصعد محلقاً في السماء عارجاً إلى الملأ الأعلى

أنت الآن تقترب من الكعبة. .

كلما ازددت قرباً ازداد خفقان قلبك، وجاشت عاطفتك، وتزلزلت أركانك. إن قلبك يخفق بشدّة تحت جدار الصدر، ويقشعرّ جلدك من هول الموقف.

إنَّ روح الله تملأ المكان، ولا تستطيع أن تحبس دموعك. .

إنه بيت الله الحرام، وأنت تحس به سبحانه أقرب إليك من حبل الوريد. . تحت جلدك وفي قلبك وفي ذهنك. . يملأ عليك حواسك؛ فتراه سبحانه على كل سطح جماد وفي كل حبة رمل. . في الوادي. . في الصحراء، لا ترى أحداً سواه. .

إنه هو وحده الموجود، وكل شيء دونه غثاء. . فقاعات.

إنه هو وحده الحق وكل ما عداه باطل. .

* * *

وبينما تمضي في رحلتك عبر مناسك الحج المختلفة، تبتعد رويداً رويداً عن نفسك. .

إنك مجبر على السير في اتجاه واحد لا تستطيع فكاكاً منه. .

إنك تتقدم إلى الأمام رغماً عنك، والكون كله يبدو كالقلب الخافق، والله تعالى يتجلى في كل أنحائه.

الآن تدخل إلى جوار الكعبة حيث أرض الحرم بكل بركاتها. .

الإحساس بالأمن يتولد داخلك بمجرد دخولك. .

لا قتال.. لا صيد.. لا قتل.. وحتى النبات لا يقطع!..
لا شيء من ذلك مباح في أرض الحرم..

هذه الضوابط وضعت يوم فتح الرسول ﷺ مكة وخلّص الكعبة من الأصنام، ومنذئذ أرسيت هذه السنن التي تُحرّم أفعالاً معينة في تلك الأرض المقدسة.

ما إن تدخل إلى جوار الكعبة حتى يتوقف نداء التلبية، ويلف الصمت المكان..

هذه علامة وصولك.. حيث تلقى المضيف.. صاحب البيت.. الله الرحمن الرحيم..

الجميع في سكينة وهدوء، ولكن في قلب كل واحد يشتعل الحب..

مدينة مكة أشبه ما يكون بسهل واسع منبسط تحيط به الجبال من كل جانب.

كل وادٍ وشارع ودرب يتوجه نحو هذا البيت العظيم، والكعبة هي المركز والقبلة..

إنك تنظر إلى موكب متناسق ينحدر من سطح الجبال كمجاري نهر أبيض يصب في المسجد الحرام..

ووسط هذا الخضم داخل هذا النهر تشعر كأنك قطرة..

كلما ازددت اقتراباً من الكعبة ازداد شعورك بالعزة والفخر..

إنك في انحدارك من الجبل باتجاه الكعبة تقترب من لقاء

الله . .

الكعبة هي القبلة، والتواضع والطاعة والانكسار والخشوع، وهي السبيل الوحيد الذي يقربك من الشرف والكرامة اللذين يوصلانك إلى العظمة . .

وهذا يعني أنه يجب عليك أن لا تبحث عنه سبحانه عن طريق الفلسفات والميتافيزيقيات (الماورائيات).

إنَّ أمامك الطريق سهلة منبسطة عبر هذه الأرض، وفي ثنايا هذه المناسك . .

إنك تستطيع أن تراه سبحانه من خلال منهجه، وفي كل مخلوقاته التي تُسبّح بحمده . .

تذكّر دائماً أنك لكي تلقى الله لا بدَّ أن تسلك السبيل القويم، ولذلك لا بدَّ أن توطّن نفسك وتستعد لتعرف هذا السبيل! . .

إنَّ هذا المنظر السابق يذكرك بمصير الإنسان: فهو منظر يرمز لانحدار الإنسان العميق نحو الأرض (حيث يدفن) ثم ارتقائه نحو الله (عندما يبعث يوم القيامة).

* * *

إنك لا تزال تقترب من الكعبة، والهواء عابق بالأفكار والعواطف والمشاعر والحب والصمت.

إنَّ في كل خطوةٍ تخطوها، وفي كل لحظة تمرّ عليك تزداد

رغبةً ورهبةً. . رجاءً وخوفاً. . حباً وإشفاقاً. . إن اقترابك من حضرة الله القدسية يزداد، وعيناك تتسعان، وأنت شاخص ببصرك تجاه الكعبة. .

لم تعد تستطيع أن تأخذ أنفاسك. . فؤادك ممتليء بالرجاء والحب. . شفتاك لا تنبسان بكلمة. . شعور يغمرك، وتعجب لجسدك وقلبك كيف يطيقان تحمل كل هذا؟!

عندما تنحدر وأنت قطرة وسط هذا النهر الأبيض، تشعر بنهايتك الأبدية. .

وفجأة تتجلى الكعبة أمام ناظريك. .

الكعبة التي هي قبلة كل المسلمين في صلواتهم في كل أنحاء الأرض.

الكعبة التي هي مركز وجودهم وإيمانهم وحبهم وحياتهم.

الكعبة التي هي قبلتهم حتى في لحظات الاحتضار قبل الموت.

وحتى بعد الموت حين يوجهون أجسادهم شطرها عندما يوارون الثرى. .

* * *

الكعبة

من حجارة خشنة سوداء تقف الكعبة في نسق غاية في البساطة. .

اللون الأبيض يسّد فرجات البناء، والكعبة مكعب فارغ.

ولا شيء غير ذلك. .

لا شيء مما ترى يجعلك تعجب أو تهتزّ. .

هنا. . لا يقف أحد. .

وليس هناك شيء تتأمله. .

لا ترى سوى غرفة مكعبة فارغة. .

هل هذا كل ما هنالك؟!. .

هل هذا مركز إيمانك وحبك وحياتك وموتك؟!. .

وتتوالى الوساوس في ذهنك: أين أنا؟. ماذا هنا؟. .

إنَّ الذي تراه هو النقيض لما في خيالك!

ربما كنت تتصورها لوحة في فن المعمار مليئة بالزخارف..

ربما كنت تتخيلها كأحد الأضرحة التي زرتها من قبل لأحد المشاهير..

ربما.... وربما..!..

ولا محل لهذا كله من الواقع الذي تشاهده أمامك.

وبدلاً من كل هذه التخيلات، تجد أمامك ساحة منبسطة، وغرفة فارغة لا تعكس أية مهارة معمارية ولا جمال ولا فن ولا نقوش ولا جودة!!..

ثم إنه ليس هناك ضريح لأحد حتى تتوجه إليه بالنية أو بالذكريات أو بالشعور!!!..

ستعلم أنه لا شيء هناك.. ولا أحد..؛ حتى لا يعكر عليك صفو اتصالك بالله تعالى.. إن الكعبة التي تريد التحليق فوقها وحولها لتتصل (بالمنتهى) و (الأبد) و (السرمد) هي منتهى مشاعرك ومطلق غايتك..

هذه آفاق لن تستطيع أن تبلغها في عالمك النسبي المزدحم..

قد تستطيع أن تفلسف الأمور، ولكنك الآن لا تحتاج إلى ذلك، لأنك تستطيع أن ترى (المطلق) الواحد الذي لا يحده حد ولا يحصره تصور سبحانه: الله! ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ..﴾[1].

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٤.

لا تحسب أن الكعبة بناء فارغ . .

إنها هنا لها وظيفة العلامة والدليل والمرشد، فهي ليست نقطة النهاية، وإنما هي هنا لتدلك على الاتجاه . .

إنها الزاوية التي إليها تركن، والمِعلم الذي يدلك على الطريق . .

إنك تبدأ الحج حينما تقرر أن تتحرك تجاه الأبدية . .

إنها حركة أبدية نحو الله لا نحو الكعبة . .

فالكعبة ما هي إلاً بداية . .

إنها المكان الذي يلتقي الله تعالى وإبراهيم الخليل ومحمد ﷺ بالناس . .

إنَّ وجودك مرهون بتخلية قلبك من ذاتك وتجردك منها؛ لذا عليك أن تذوب في محيط الناس . . إنك هنا لا ترتدي لباساً خاصاً . .

إنَّ الله قد جعلك من أهله «الناس عيال الله» وهو سبحانه القيوم عليهم وأولى بهم من أنفسهم . .

فالكعبة «بيت الله» وفي نفس الوقت «بيت الناس»:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾[1].

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٦.

لن يتسنى لك أن تبدأ رحلتك السرمدية داخل البيت الحرام حتى تتجرد من حصر اهتمامك في ذاتك . .

لقد سمّي البيت بـ «العتيق» وهو عتيق لأنه يمثل التحرّر[١] . .

فأرض الحرم ليست ملكاً لأحد . . إنها أرض حرة من أي رباط بالحكام والطغاة . . ولهذا لا يمكن لأحد أن يسيطر عليها . .

إنَّ أرض الحرم ملك لله وحده، وما الناس إلاَّ سكانها . .

لقد رُخّص للمسلمين أن يقصروا الصلاة كلما سافروا مسافة تزيد عن الأربعين ميلاً من مقر إقامتهم، لكن في مكة . . في أرض الحرم، ودون أي اعتبار لأي مكان جئت منه أو مسافة قطعتها، تظل صلاتك كاملة لا تقصرها .

إنها أرضك وأنت آمن بها . .

إنك لست ضيفاً . . إنه بيتك . .

قبل مجيئك إلى مكة فأنت غريب بأرضك . . منفي بها . .

ولكن الآن أنت أحد المدعوّين للانضمام إلى أسرة الله وأهله .

إنَّ الإنسانية بأُسَرِها ـ تلك الأُسَر المشردة في هذا العالم ـ مدعوة لهذا البيت . .

---

(١) من العتق: وهو للرقيق.

إنك كفرد من هذه الأسرة البشرية مستغرق في ذاتك، تشعر كأنك بلا دار.. غريب.. بلا مأوى ولا أهل..

لهذا عليك أن تنبذ كل ما يجعلك متميزاً؛ كي تذوب في المحيط البشري..

أنت الآن تتهيأ لتدخل وتنضم إلى أسرتك الجديدة..

لقد حللت أهلاً ونزلت سهلاً.. صديقاً وأخاً قريباً في أسرة الله لتصبح من (عيال الله).

إبراهيم عليه السلام أقدم وأكبر متمرد في التاريخ إنه يتجلّى الآن..

لقد أنكر كل أصنام الأرض، وأخلص حبه وطاعته وعبادته لله وحده، وبنى بيديه الكعبة.. هذا البناء الذي هو رمز الله في الأرض..

البناء غاية في البساطة، من حجارة جبل عجون[١] السوداء حيث وضع حجر فوق الآخر دون تخطيط معماري ولا رسومات هندسية ولا نماذج وديكورات..

لكن.. لماذا المكعب؟..

ولماذا تكون بهذه البساطة دون ألوان ولا زينة؟..

ذلك لأنّ الله ليس كمثله شيء؛ فلا هيئة تمثّله، ولا لون يشبهه سبحانه..

---

(١) عجون جبال قريبة من مكة.

إنه سبحانه لا شيء من النماذج والصور التي تحصر خيال الإنسان يمكن أن يتمثّله.. إنه (الوجود الكامل) و (القدرة المحيطة) وإليه (المنتهى)..

ورغم أن الكعبة ليس لها اتجاه - فهي مكعبة الشكل - فأنت حين تستقبلها في صلاتك تكون قد اخترت التوجه إلى الله، وتستقبل وجهه الكريم.

إنَّ خلو الكعبة من أي اتجاه قد يبدو صعباً على الأفهام، لكن الكونية والنهائية ينبثقان من تلك المسألة نفسها؛ فالمكعب هو الشكل الوحيد الذي يحتوي على ستة جوانب وفي الوقت نفسه لا اتجاه له..

الكعبة هي الأصل الذي يرمز لذلك:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾(١).

في أي مكان خارج الكعبة تصلي فيه يجب أن تستقبلها..

كل بناء غير الكعبة له اتجاه: شمال أو جنوب.. شرق أو غرب.. فوق أو تحت. والكعبة استثناء؛ إنها تستقبل كل الوجهات دون أن تقتصر على واحد منها..

* * *

ناحية الشرق من الكعبة يقوم جدار قصير في شكل شبه دائري..

---

(١) سورة البقرة: الآية: ١١٥.

إنه: (حِجْرُ إسماعيل)!..

وهو أشبه ما يكون بأطراف الرداء المثنى، وجداره هلالي الشكل..

كان لسارة زوجة سيدنا إبراهيم خادمة سوداء تدعى هاجر..

وكانت هاجر من المسكنة والضعف بحيث لم تعترض سارة على تسرّي زوجها إبراهيم بها حتى تحمل وتلد..

إنها امرأة لم تكن ترقى لأن تكون زوجة ثانية لإبراهيم.

ومع ذلك فقد جعل الله تعالى الجدار الذي يرمز إلى حِجرها موصولاً بكعبته التي ترمز إليه سبحانه.

كان حجر هاجر هو المكان الذي ترعرع فيه إسماعيل..

بيت هاجر كان هناك، وقبرها إلى العمود الثالث للكعبة..

يا للعجب..!!

لا أحد ـ مهما كان شأنه ـ ولا حتى الأنبياء يجوز أن يدفنوا داخل المساجد، لكن في حالتنا هذه نجد بيت الأَمة السوداء قد شُيِّد إلى جوار بيت الله!!..

وقبر الأَمة السوداء (هاجر) أم إسماعيل يوجد هنا، والكعبة ممتدة باتجاه القبر!!..

وهكذا تكون النتيجة مجاورة حِجرها لبيت الله..

* * *

يوجد ممرٌّ ضيق بين جدار حجر إسماعيل والكعبة، وعند

الطواف يأمرك الله أن تدور حول الجدار، لا أن تشق طريقك عبر الممر، وإن فعلت فإن حجك لا يقبل. .

على هؤلاء الملبين لدعوة الله المدينين بالتوحيد القاصدين بيت الله أن يطوفوا حول الكعبة بما فيها حجر إسماعيل. .

لقد أضحى قبر الأَمة الإفريقية السوداء والأم الصالحة التقية جزءاً من الكعبة يطوف حوله الناس أبد الدهر. .

إنَّ الله الرحمن الرحيم جلَّت قدرته أحد واحد فرد صمد، تناهت عظمته، لا يفتقر إلى أحد من خلائقه التي لا تحصى. . اختار أحدهم:

إنسان. . من أكرمهم.

من بين كل الناس: اختار من النساء.

من بين كل النساء: اختار من الإماء.

من بين كل الإماء: اختار أَمة سوداء!

أضعف خلقه وأكثرهم مسكنة وضعة هو الذي أعطاه مكاناً إلى جواره. . حجرة في بيته.

بل إن الله اختارها إلى بيته واختار جوارها، ورعى حجرتها. .

والآن لا يوجد تحت سقف هذا البيت سوى الله تعالى وهاجر.

في المجتمع الإسلامي (الجنود المجهولون) لا يتم اختيارهم هكذا. .

❊ ❊ ❊

إنَّ شعائر الحج هي مذكرات هاجر، وكلمة (هجرة) مشتقة من اسمها، والمهاجر الأمثل من كانت قدوته (هاجر) أو كما يقول الرسول ﷺ «المهاجر من صار كهاجر»

إنَّ الهجرة هي ما فعلته هاجر: أي الانتقال من الهمجية إلى الحضارة، أو من الكفر إلى الإسلام.

أمّا المعنى الذي يعنيه اسم هاجر في لغتها الأم فهو (المدينة)..

حتى اسم هذه الأَمة الأثيوبية السوداء هو رمز الحضارة، بل إن هجرة على طريقة هجرة هاجر هي هجرة باتجاه الحضارة..

يقع قبر هاجر وسط طواف الإنسان حول الكعبة..

وأنت أيها المهاجر، يا من حرّر نفسه من كل شيء واستجاب لدعوة الله، سوف تطوف بقبر هاجر وكعبة الله في الوقت ذاته.

❊ ❊ ❊

ما الذي قيل في الفقرات السابقة؟!

إنه صعب الإدراك..

خاصة على الذين يعتقدون أنهم يعيشون في الحرية ويدافعون عن الإنسانية..

إنَّ جلال هذه الوقائع يتجاوز مدى فهمهم..

❊ ❊ ❊

الطواف

كالنهر المنساب الذي يدور حول صخرة صلدة يبدو مشهد الكعبة وهو محاط بأمواج البشر المنفعلة نفوسهم. .

إنها كالشمس في المركز، والناس حولها كالأجرام التي تسبح حولها. .

مدار النظام الشمسي: الكعبة قائمة في المركز، والناس يتحركون حولها في شكل دائري. .

الكعبة ترمز لخلود الله ودوامه، بينما الحركة الدائرية تمثل النشاط الدائم والحركة المستمرة لخلائقه:

الدوام + الحركة + الانتظار = الطواف.

إنها رمزية رفيعة للنظام الكوني، للوجود القائم على قواعد التوحيد الذي سخره الله بكل ما فيه لـ : (الإنسان). .

إنَّ الله تعالى هو مركز الوجود سبحانه، وهو بؤرة هذا العالم

الزائل الذي نعرفه والعوالم الأخرى التي لا نعرفها . .

وعلى النقيض يكون الإنسان! فما أنت إلاَّ مجرد جسيم يتحرك متغيراً مما هو عليه إلى ما ينبغي أن يكون عليه . .

وأياً كان مكانك وموقعك في أي زمان، عليك أن تجعل بينك وبين الكعبة رباطاً مستمراً دائماً، هذا الرباط يقوى ويضعف حسب السبيل الذي تختاره . .

والكعبة ليست هي المحطة الأخيرة . .

إنَّ الجميع يحيطون بالكعبة كشخصية معنوية واحدة . .

كتلة متحركة واحدة . .

إنهم هوية واحدة، لا هوية منفردة لأحدهم . . رجلاً كان أو امرأة، أبيض أو أسود . .

إنه تحوّل الشخص الواحد إلى المجموع المنفرد من الناس . .

كل «أنا» تذوب لتصبح «نحن»، و «نحن» تؤلف «الأُمة» التي تسعى إلى القربى، إلى الله . . إن سبيل الله هو سبيل الناس، بمعنى أنه لكي تقترب من الله عليك أن تقترب أولاً من الناس . .

لكن كيف يكون ذلك؟ . .

إنك لكي تبلغ درجة الصلاح، يجب أن تهتم اهتماماً أصيلاً بمشاكل الناس لا كما يهتم الراهب المنعزل في صومعته، ولكن بالمشاركة الفعلية الحية في (الميدان) . .

وذلك يعني أن تكون: جواداً، كريماً، معطاءاً، متفانياً، ناكراً لذاتك. .

وهذا يعني أن تقاسي الأسر، والنفي، وتتحمل العذاب والألم، وأن تستعد لمواجهة أخطار جمة ومواقف رهيبة. .

هذا هو معنى أن تكون سالكاً لسبيل الناس الذي يقربك من الله تعالى. .

لهذا قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لكل دين رهبانية، ورهبانية الإسلام الجهاد».

* * *

أثناء طوافك لا ينبغي عليك أن تدخل الكعبة، ولا ينبغي عليك أن تتوقف في نقطة ما حولها. .

عليك أن تذوب في أمواج البشر، وأن تكون قطرة في خضم النهر البشري المنساب. هذا هو السبيل الذي من خلاله تؤدي الفريضة الخامسة. .

كل من أراد أن يأتي إلى هذا البيت عليه أن يذوب في مجموع المسلمين. .

* * *

ما الذي يراه الناظر؟. .

الكعبة قائمة هناك في المركز، والنهر الأبيض المنساب في ذهاب حولها وإياب، والكل يرتدي نفس الزي ونفس اللون. .

هنا لا تمايز.. لا طبقية.. لا تعالي..

هنا يتأكد معنى الجماعة الحق، وتتجلى صورة العالمية..

خارج الكعبة لكل وجهة هو موليها، ولكل واحد قسماً مختلفاً..

(الجماعية) خارج الكعبة لا تعدو أن تكون مفهوماً نظرياً، و(الإنسانية) ليست إلاَّ فكرة مجردة في الأذهان..

الناس خارج الكعبة يتمايزون بأسمائهم وألقابهم وأجناسهم وقومياتهم..

وداخل الكعبة تختفي كل هذه الخصائص، ويحل محلها مفهومِ الجماعية والعالمية، وبهما وحدهما يمكن أن تجد للناس تعريفاً..

هؤلاء الذين يطوفون حول الكعبة يمثلون (الإنسانية) فهم وفد الحجيج من (الناس).

إنَّ بقيت دائراً طوّافاً في فلك ذاتك فلست بحق جزءاً من دائرة الطواف حول الكعبة.. ستكون مجرد زائر غريب على شاطئ النهر الأبيض، لا قطرةً فيه..

إنَّ الذين انفصلوا عن ذواتهم هم الأحياء..

أما الذين حبسوا أنفسهم داخل ذواتهم فهم ركود وموتى..

إنهم كالأجسام الشاردة في النظام المداري للسماء..

إنَّ الكعبة تعلمك كيف تُثبّت ذاتك وتؤكدها بالطريقة الصحيحة، وتُعبّر عن وجودك، وتصبح من الخالدين عن طريق الانعتاق من قيود الذات الذاتيَّة.

ولا يتحقق هذا إلاَّ بالمران على السخاء والعطف على الآخرين، والتفاني في سبيل الأمة. باختصار أن توقَ شحَّ نفسك، وبهدا ستكشف غطاء ذاتك، وتبصر الواقع..

حينما تجعل من حياتك رسالة وتجاهد في سبيل الله، وتصل إلى أعلى ما يصل إليه المجاهد وهو بذل دمه في هذا السبيل، ومن ثم تُسمّى (شهيداً)..

و (الشهادة) هي أن تكون حاضراً وحياً بكل ما في الحياة من سمات..

فالشهيد موجود إلى ما لا نهاية، فهو مثال (الحياة الأبدية).

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[1].

إنَّ سبيل الله هو سبيل الناس[2]، كلاهما واحد، ليس هناك من سبيل من الفردية إلى الله.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.

(٢) كثيراً ما يحاول شريعتي الربط بين هذين السبيلين: سبيل الله وسبيل الناس. حيث يقول إنَّ الله سبحانه قد افتتح قرآنه باسم الله وختمه باسم الناس، وهنا يتضح مفهوم الخلافة - وراثة آدم عليه السلام عبر مرحلة في مدرسة شريعتي - راجع كتاب الشهادة، ط١ سنة ٢٠٠٢، دار الأمير - بيروت. «الناشر»

وقد تسأل: فلماذا إذاً العبادات الفردية؟

لتعد نفسك وتربيها، إنها شُرّعت لكي تدربك على التفاني. .

فهي تعبير عن البذل بكل صوره الراقية: الغاية في الكرم، ونكران الذات (الإيثار)، والتضحية في سبيل الآخرين. . وكل ذلك إلى النهاية حتى تصل إلى درجة الرجل الأمثل أو المرأة المثلى. .

فالإنسان ما هو إلاّ خليفة لله تعالى في الأرض، وحامل أمانته من لدن (آدم). .

وما دام هو على العهد، سيبقى إلى ما شاء الله أن يبقى. .

فالشخص الذي يحيا كإنسان، سيبقى خالداً حتى ولو مات. .

لأن الواحد المفرد فانٍ، في حين أنك كإنسان باقٍ. .

إنَّ قطرة الماء إذا لم تكن جزءاً من النهر أو لم تكن ذائبة في البحر، فإنها تصبح كقطرة الندى تبقى ما بقي الليل فقط، وتتلاشى مع أنفاس الصباح الأولى. .

أيها الإنسان! أدخل إلى النهر، وتدفق معه؛ حتى تلقى البحر وتصير خالداً. .

ويا قطرة الندى! لماذا تقفين على الشاطئ ولا تلجين النهر؟!. .

هذا النهر نموذج لتناسق الخلق وانسجامه. . تقدّم وانضم إلى الناس. . لكن قبل أن تفعل ذلك تأكد أنك تعي تماماً ما تفعله

ولماذا تفعله: يجب أن تقدم على ذلك في سبيل الله، لا في سبيل نفسك.. في سبيل الحق، لا من أجل الضرورة.

هنا كل فعل له مغزىً هام، وهذه الحركة الخالدة محكومة بضوابط دقيقة هي انعكاس لنظام الوجود كله.

* * *

البيعة والحجر الأسود

الطواف يبدأ وجوباً من الحجر الأسود . .

من هذا الموضع ستدخل إلى النظام الكوني . .

من هذا الموضع ستذوب في محيط الآخرين . .

هذا هو سبيلك إلى الخلود، بعثورك على الفَلَك الذي تدور فيه . .

إذا لم تذب في محيط الناس فلن تستطيع أن تسبح في فلكك الدوّار، ولا أن تقترب من الله سبحانه . .

عليك أن تستلم الحجر الأسود أو أن تشير إليه، ومن ثم تصير تلقائياً جزءاً من المحيط البشري . .

ما الذي يرمز إليه هذا الحجر؟ . .

إنه يرمز إلى (كف) . . كفٍ يُمنَى . .

كفٌ يمنى لمن؟

إنه يمين الله . .

«الحجر الأسود يمين الله في أرضه»[١] .

* * *

في الماضي كانت القبائل والأفراد تدخل في عقود مع قبائل أخرى، وكانت تلك العهود والمواثيق والعقود غالباً لحفظ سلامتهم وتأمين وجودهم والدفاع عنهم في تلك الصحراء، وكانت هذه العقود تسمى بالبيعة.

كيف كانت تتم هذه البيعة؟ . .

تتقدّم إلى رئيس القبيلة، إلى القائد، تبسط يدك اليمنى، فيمد يده اليمنى فيضعها فوق يدك اليمنى، وتكون بذلك قد أقررت له بالبيعة وتعاقدت معه. وكانت السنّة تقضي إذا بايعت أحداً فقد تخلّيت بذلك عن بيعاتك السابقة.

الآن . . . هنا . . عند الحجر الأسود . . تحين لحظة الاختيار الأكبر.

إنَّ يمين الله منبسطة إليك، واختيار هدفك وطريقك ومستقبلك قبل أن تنضم إلى الناس مرهون بمصافحة هذه اليمين . .

وهكذا تؤدي البيعة لكي تكون حليفاً لله . .

---

(١) حديث ضعيف.

أنت الآن متحرر من كل ولاءٍ سابق. . لم تعد حليفاً للسلطان، ولا للمنافقين، ولا لزعماء القبائل، ولا لأرستقراطيي قريش، ولا لأصحاب الأموال. .

﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[1].

فلتستلم يد الله الأعلى، ولتكن هذه اليد فوق كل الذين مددت إليهم يدك من قبل بالولاء والبيعة. .

الآن بعد أن تحررت من ولاءاتك السابقة، وجدّدت عهدك القديم مع الله لتكون خليفته في أرضه حاملاً للأمانة التي عرضها الله من قبل. .

عليك إذاً أن تنضمّ إلى الناس، وتؤدي واجبك. .

لا تقف. . بل واصل السير، لا فكاك لك من أن تختار، ولا بدَّ أن تُحدّد فلكك الذي تدور فيه. .

التحق بالنظام، وتحرك مع الآخرين. .

عندما تطوف حول الكعبة تشعر بحركتك هذه أنك جدول صغير يتدفق إلى نهر كبير! كأنك محمول بالأمواج، لا سائراً على قدميك! . .

لقد رُفِعْتَ عن الأرض، ووجدت نفسك فجأة طافياً في الخضم محمولاً بالطوفان. .

---

(١) سورة الفتح، الآية: ١٠.

عندما تقترب من الوسط فإن الجموع تشتدّ في الضغط عليك كأنما تنفخ فيك حياة جديدة. .

أنت الآن جزء من الإنسانية. . إنسان حي وخالد لا تتحرك (بذاتك) ولكن (بالآخرين). .

انضم إلى الجموع في حب بعيداً عن التصنّع والمظهرية. .

* * *

انظر إلى إله إبراهيم. . حينما جعلك من نسبه، جعلك في الحقيقة من نسب الناس، وبهذه الطريقة العميقة الرقيقة الجميلة نسبك إلى الناس بقوة الاعتصام بحبله عن طريق حبه الذي يملأ شغاف القلوب. .

ورغماً عن كونك هنا لتلقى الله، تجد نفسك في شغل بالناس. .

لقد دعاك الله وأنت في مكانك البعيد لزيارته، وعندما أتيت ملبياً، طلب منك أن تنضمّ إلى الناس.

إنك لن تدخل البيت لتحملق فيه، بل عليك أن تواصل طوافك ولتبقِ الكتف حذو الكتف مع الناس.

الكعبة لا تعدو أن تكون مركزاً للفلك الذي تدور فيه. .

لن تكون داخل الفلك إذا توقفت أو تركت موضعك أو تحركت عكس مداره. .

لا تقف ولا تذهب يميناً أو يساراً، القبلة أمامك فارم ببصرك

نحوها وواصل انطلاقك للأمام، أنت منجذب نحو شمس العالم الأرضي (الكعبة) ودائر في فلكها، وبهذا تصبح جزءاً من نظام الوجود على الأرض.

حركة الطواف هي حركة قرب من الله.. تدور وتدور حول الكعبة، ووسط هذا الكم الهائل من المنجذبين لا تلبث أن تنسى نفسك ولا ترى أحداً، بل تراه (هو).

أنت الآن ذائب في هذا النهر الأبيض المنساب، فأنت الآن: «لا شيء» يستشعر وجوده! وأنت الآن: «الموجود» الذي لا يستشعر شيئاً!!

في طوافك أنت كالجُسيم في حركته الدائرية التي تمثّل فلكاً ومداراً ومنسكاً من مناسك الحج. وكل المعاني ترمز إلى الله تعالى.

* * *

أنت الآن في مقام التسليم.

عندما تتجاوز ذاتك فإنك تتخذ شكلاً جديداً وتصبح ذلك الجُسيم الذي يذوب تدريجياً ويتلاشى.

الحب في ذروته هو انطلاق، وأنت الآن متفانٍ في الحب..

إنك تجسّد الحب في صورة حركة، وأمثل تعبير عن الحب في صورة حركة هو حركة الفَراش

إنه يعني أن تتلاشى، وأن تذيب نفسك في هذا المحيط من

الحب، ثم تخرج نظيفاً طاهراً بلا ذنوب، تخطو نحو مقام إبراهيم. .

اختصاراً: يمكن القول إنَّ الكعبة هي محور الحب، في حين أنك البوصلة التي تدور حول محورها. .

ما الذي أعرفه أنا؟. . هذا هو فهمي فقط، ولكنها ليست كل المعاني. .

* * *

هاجر هي مثال الإنسانية:

لقد أمرها الله (الرحمن الرحيم) أن تترك بيتها ومعها طفلها الرضيع، وجاءها الأمر بالذهاب إلى ذلك الوادي المخيف في مكة، حيث لا زرع ولا حتى نبات شوكي يمكن أن ينمو.

لكن حب الله تعالى يدفعها لأن تطيع أوامره. .

الأمر يبدو غريباً! امرأة ليس معها سوى طفل، تضرب في عمق هذا الوادي الموحش ووسط البراكين الخامدة، دون ماء وبلا مأوى وليس معها أحد!!

لكن لماذا كل ذلك؟!

إنَّ الله يريد منّا أن نُخلِصَ التوكّل عليه سبحانه. .

هذا المنطق ليس مفهوماً بمعايير حكمتنا. .

بل إنه يبدو غير منطقي!!. .

إن الماء ضروري للإنسان البالغ .

والطفل الرضيع يحتاج للبن الأم . .

والرجل يحتاج فوق ضرورياته لأصدقاء ومجتمع . .

والمرأة تحتاج لمن يحميها، والأم فوق كل ذلك تحتاج لمن يعينها . .

كل ذلك حق . .

لكن الحب عند هاجر يمكن أن يعدل ذلك كله . .

إنَّ المرء يستطيع أن يعيش بالحب إذا كانت روحه تدرك معناه . .

* * *

أنتِ أيتها الأَمةَ الوحيدة والأم المرضعة التي لا حيلة لها . .

أنت وطفلك توكلا على الله، واستشعرا الأمن في الحب . . توكلا عليه وحده سبحانه .

* * *

مقام إبراهيم

بنهاية الشوط السابع تنتهي مرحلة الطواف . .

لماذا سبعة أشواط؟! . .

نعم . . إن سبعة هنا لا تعني ذلك المعنى البسيط : الرقم الذي يساوي ستة مضافاً إليه واحد، ولكنه يذكرك بطبقات السماوات السبع . .

الطواف هو معراج، ولكنه معراج من أجل الناس، والحركة الأبدية في سبيل الخير العام . .

إنه حج وليس مجرد زيارة دينية . .

إنه تظاهرة أصيلة للوجود . .

إنه ترجمة لعقيدة التوحيد، وتفسير صادق لها . .

* * *

عند مقام إبراهيم مصلى . . عليك أن تصلي ركعتين . .

أين هذا المقام؟

إنه قطعة صخرية مطبوع عليها قدمي إبراهيم عليه السلام.

على هذه الصخرة وقف إبراهيم، ووضع حجر الزاوية (الحجر الأسود)..

وعلى هذه الصخرة وقف هنا ليضع قواعد بناء الكعبة؟..

إنَّ الوقوف بمقام إبراهيم يعني أن تقف حيثما كان يقف..

من؟! أنت؟!

ليس صعباً أن تدرك ماذا يمكن أن يفعل التوحيد بالإنسان..

في بعض الأحيان يتواضع بك حتى تكون لا شيء، وينكر حتى وجودك ويلصقك بالطين..

وأحياناً أخرى ينفخ فيك قدراً عظيماً من سمو الروح حتى يرفعك إلى القرب من الله تعالى، وقد عانيت منه ما عانيت، وبعد ذلك تأتي الحالة الثانية (السمو الروحي والقرب من الله) بسجودك له سبحانه عند مقام إبراهيم، عندئذ سينادي عليك: أنت أيها العبد المخلص الخليل، أيها العبد الصادق الأمين، يا من إذا أمرته أطاع، ويا من سخرت الوجود كله له، واصطفيته ليكون من عبادي المقربين..

* * *

مضت ـ بالتقريب ـ ساعة منذ وقفت على ضفة هذا النهر الأبيض تفكر في نفسك وتراقب الناس، ولا تريد أن تكون واحداً منهم..

أنت جُسيم عاطل لا فائدة منه!

والله يوبخك: لقد كنت (صلصال كالفخار) و (حمأ مسنون) و (تراب)..

لكنك الآن حيّ متحرك، تنتقل راجلاً وراكباً وطائراً..

لم تعد راكداً ولا متعفناً ولا كماً مهملاً.

إنك الآن تزمجر، وتزيل الصخور، وتحطم السدود، وتنسق طريقك عارجاً إلى بستان السماوات في وسط هذا الصحراء.

ها أنت الآن تتدفق مع النهر الأبيض، وتروي الأرض وتسقي المزارع من نباتات وورود، وفي الوقت نفسه تبذر في التربة آلاف البذور حيث ينبت منها آلاف البراعم التي لا تلبث أن تزهر وتمتد عبر التربة، وتشق الأرض صاعدة نحو السماء، سامقة باسقة بأوراقها وثمارها..

أما إذا لم تتحرك فستغدو كالتراث الموروث، وكالتميمة التي يتبرك بها، ثم تصير جافاً قاسياً، وقد يؤول الأمر إلى تشوّهك ثم مسخك، وفي الوقت ذاته ستتحطم كل هذه الإمكانات وتدفن..

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[1].

أثناء تدفق النهر فإنه يهب الحياة للطبيعة الميتة، كما كان

---

(١) سورة الشمس، الآيات: ٧ ـ ١٠.

عيسى عليه السلام يفعل، ولكنك إن أخلدت إلى الأرض وظللت كالحمأ المسنون منزوياً تستمتع أو تقاسي فسوف تتعفن لا محالة، وسينمو بداخلك عدد لا حصر له من الجراثيم، وسوف يتغير لونك وتصبح رائحتك نتنة لا تطاق..

تعال لتؤدي الحج!..

انضمّ إلى النهر الإنساني الأبيض لتطوف معه سابحاً!..

إنَّ سباحة ساعة واحدة في (نهر الحب) ستجعلك تقلع عن عبادة الذات..

إنَّ سباحة ساعة واحدة في (نهر الحب) ستخرجك من وجودك الميت لتستشرف حياة جديدة بين أناس ذوي وجود خالد في الفلك الدوار الحي..

* * *

الآن أنت كإبراهيم!

تبدأ المرحلة الثانية من النقطة التي بدأت منها الطواف..

عليك أن تخطو خارجاً من دائرته كالحياة بعد الموت؛ حيث يبعث الإنسان من ذات المكان الذي يوارى فيه...

روح الخير التي هي روح الله التي نفخها في هيكلك الطيني تتجلى الآن!..

من أين تتجلى؟..

تظهر في المكان ذاته الذي دخلت منه إلى دائرة الطواف..

تحت يمين الله، وبعد أن تتجاوز ذاتك بالخروج عن نوازعها وقضائك على الأثرة والأنانية والخصاصة في نفسك. . عندئذ تكتشف ذاتك الحقيقية وأنت ترتدي رداء الإحرام الأبيض الناصع في بيت الله، وتقف وأمامك مقام إبراهيم، وقد وضعت خطوك حيث كان إبراهيم يرفع القواعد.

وجهاً لوجه مع الله. . فابدأ صلاتك.

* * *

يحفظ تاريخ البشرية لإبراهيم عليه السلام أنه أعظم متمرّد وقف ضد الصنمية والوثنية، وأسس دعوة التوحيد في الأرض. .

ورغم بدنه الذي أنهكته المعاناة والبلاء فقد كان ذا ذهن حاد وقلب مليء بالحب، إلى جانب أنه كان يحمل فأساً في يده!!. . إنه بحق نبي المسؤولية والإمامة.

فيه قد أشرق الإيمان في معقل الكفر، وتفجر نبع التوحيد من بين أصنام مادية ومعنوية. .

إنَّ أول معركة لإبراهيم ضد الوثنية كانت في بيت (آزر) صانع الأصنام لقومه!

لم يقتصر إبراهيم على محاربة الأصنام والنمرود فقط، ولكنه كان يحارب معها الجهل والطغيان. .

كان متمرّداً على الرذائل. . رجل دعوة ورسالة وإيمان وعقيدة. .

لقد كان عليه السلام مصدراً للأماني والآمال . .

أُلقِي إبراهيم في نار الطغيان والجهل . .

لكن عناية الله تمنع الاحتراق بتلك النار . .

وإنَّ هذه النار هي النار ذاتها التي أوقدوها في مصير مستقبل كل من يسلك سبيل إبراهيم من الأفراد المسؤولين المدينين للنور والرشاد من رجال دعوة الإسلام . .

لكن الله عزَّ وجلَّ سيخلق وسط هذه النيران حديقة ورد! . .

لا . . لن تحترق . .

لا . . لن تتحول إلى رماد . .

إنَّ كانت أسوتك إبراهيم فقد تعرّض إبراهيم لأنواع كثيرة من النيران . .

وهي رمز لمدى قربك من النار أثناء سعيك في مجاهدات الجهاد . .

يا لها من تجربة مريرة قاسية أن تقذف بنفسك في النيران، ولكن مع ذلك :

فالشهادة أشدّ إيلاما .

يا إبراهيم ضحّي بابنك إسماعيل، وانحر عنقه بيديك، حتى تخنط أعناق الناس من النحر

لكن . . أي ناس؟!

إنهم أولئك المؤمنون الذين يُضحّى بهم على أعتاب قصور السلطان، أو بالقرب من خزائن أصحاب الأموال الحرام، أو داخل مؤسسات الطغاة الدينية المتّصفة بالخزي والنفاق. .

شجاعتك في أن تنزع السيف من أيدي القتلة، وتمسك به.

انحر عنق إسماعيل، والله (ربك) سيفتديه.

هل ستقتله حقاً؟! كلا لن تقتل ابنك ولن تفقده، ولكنك صرت أُمة. .

إنَّ هذه معارج الإيمان، وكان لا بدَّ أن تصل إلى مرتبة التضحية بأحب ما عندك وبيديك. . **فالتضحية أشدّ إيلاما من الاستشهاد.**

* * *

تذكر أنك انتهيت لتوّك من الطواف ـ طواف الحب ـ وتقف الآن في مقام إبراهيم. .

عندما وصل إبراهيم إلى هذا المقام كان قد قطع حياة مليئة بالجهاد والكفاح ضد النمرود والأصنام، وواجه الموت محترقاً في النار، وواجه كيد الشيطان، وضحّى بابنه الوحيد إسماعيل، ومن قبل ذلك ومعه: كانت الهجرة والتشرّد والوحدة. .

انظر إلى النقلة البعيدة: فبعد أن كان عاملاً في بيت آزر صانع الأصنام، أصبح عاملاً في بيت الله يبني الكعبة قلعة التوحيد!!

هنا ـ في هذا المقام ـ وقف إبراهيم مخلفاً وراءه سنوات

طويلة مليئة بالصعاب، وقد غزا المشيب شعر رأسه. .

إنه في ختام حياته القديمة ـ قِدَم التاريخ ـ يريد أن يشرع في بناء البيت ويرفع قواعده، ويضع الحجر الأسود، فبدأ في رفع القواعد، وإسماعيل بجانبه يساعده يحمل الأحجار.

لقد بنى البيت. . !

إنه لما يثير العجب حقاً أن يكون إبراهيم وإسماعيل هما بناة الكعبة! . .

ها هو إسماعيل الذي نجّاه الله من الذبح، وكذلك إبراهيم الخليل الذي نجّاه الله من النار، والآن هما هنا يضطلعان بمسؤوليتهما تجاه الناس!

إنَّ الله أمرهما أن يكونا المهندسين لأقدم معبد للتوحيد على الأرض، وأول بيت وضع للناس في التاريخ، والبيت الحرام للحرية، وكعبة الحب والعبادة.

إنَّ الحرم هو رمز (الطهارة والقداسة) الحقة و (التواضع).

* * *

أنت الآن في مقام إبراهيم.

إنها أرفع درجة ارتقى إليها سيدنا إبراهيم، وأقرب مرتبة إلى الله، أو قل هي درجة (القرب). .

إنَّ إبراهيم هو البنّاء الذي بنى الكعبة، وهو مهندس بيت الحرية، وهو عدو الأصنام ومحطمها، وهو الذي تعرّض للتعذيب على يد النمرود. .

إنَّ إبراهيم هو قائد جيش الجهاد ضد الجهل والكفر. .

إنه ضمير الحب والمسؤولية.

ومع ذلك، فقد هرب من إغواء الشيطان الذي يوسوس بأفكار الشرّ في صدور الناس:

﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾[1].

بعد كل تلك الابتلاءات، وكل المعاناة التي تنوء بحملها الجبال الرواسي، وبعد كل ما تعرّض له من تعذيب، وبعد كل ما قدّم من تضحيات كادت تودي بحياته عَلَيْهِ السَّلَامُ. . بنى البيت. .

لم يبنه لنفسه ولا لولده، ولكن: بيت للناس. . من أجل الناس. .

إنه مأوى لكل الذين لا مأوى لهم. .

إنه سقف وسماء لكل الذين أُخرجوا من ديارهم. .

إنه ملاذ للذين جرحوا في هذه الأرض، وملجأ للذين شُرّدوا وهُجّروا في سبيل دعوة إبراهيم، إنه مصباح يضيء في ظلام الطغيان الذي يعانيه من اتخذوا إبراهيم أسوة لهم، والذي عاناه إبراهيم قبلهم.

لقد امتلأت قلوب الناس ونفوسهم بالخجل والوجل

---

(١) سورة الناس، الآيتان: ٥ ـ ٦.

والخوف، وتحوّلت الأرض إلى بيت كبير للمهر، حيث لم يبق احترام لأحد، وإلى مسخ يسود في جنباتها الطغيان والتفرقة. .

وهنا. . في هذه الصحراء. . في هذه الظلمات يوجد بيت حرام طاهر. . آمن لكل الناس. عيال الله.

هذا البيت هو: الكعبة!

* * *

في مقام ستصافح «يد الله»[1].

دع ما فعله إبراهيم، وليكن نبراساً لك. .

ولتكن أنت في هذا العهد إبراهيم! لتكن أنت مهندس كعبة الإيمان، واشرع في البناء لإنقاذ قومك وعشيرتك. .

إعمل على إخراجهم من هذا المستنقع الآسن، واجعلهم يعيشون معك الحياة الحقيقية، بدلاً من حياتهم التي لا معنى لها والتي هي في حقيقتها أشبه بالموت. .

أيقظهم من نومهم الثقيل، وحرّرهم من أسر ظلمات الجهل وعذاب الطغيان. .

ساعدهم على الحركة، وخذ بأيديهم مرشداً وداعياً لهم للحج والطواف.

* * *

(١) لهذا الكلام معنى رمزي لا يخفى على متتبع.

بعد رجوعك من الطواف، وبعد أن نشرّبت نفسك معانيه وإلهاماته، وأنت قطرة ذائبة في نهر الناس، وبعد مقامك في إبراهيم، في مكان بنائه للبيت ليكون مثابة للناس وأمناً، وبعد عهدك مع الله تعالى أن تكون إبراهيم في مجتمعك.

بعد كل هذا وما سبقه عليك:

أولاً: أن تجعل أرضك آمنة كأنك في أرض الحرم.. إبدأ بنفسك وادعُ غيرك.

ثانياً: أن تجعل عهدك كعهد إبراهيم الخليل. وحالك كحال إبراهيم.. انتصاراً للإيمان والتوحيد..

ثالثاً: أن تجعل من كل أرض تكون فيها مسجداً حراماً؛ وذلك لأن الله جعل الأرض كلها مسجداً وطهوراً..

إنَّ الأرض كلها لله.. أليس كذلك؟!

* * *

بين الطواف والسعي

بعد أن تصلي ركعتي الطواف عند مقام إبراهيم، عليك أن تذهب إلى (المسعى)..

إنه المسافة بين جبلي الصفا والمروه (حوالى ربع ميل)..

اركض سبع مرات بين هذين الجبلين..

إبدأ من جبل الصفا، وفي الجزء من هذا الطريق الموازي للكعبة[١] عليك أن تسير مهرولاً، وفي بقية الطريق استأنف سيرك المعتاد حتى جبل المروه..

السعي هو البحث.. حركة قاصدة إلى هدف.. يأخذ صورة الجري والإسراع.

أثناء الطواف كنت تفعل مثل هاجر.

---

(١) بين الميلين الأخضرين وهما علامتان، وذلك في الثلاثة أشواط الأولى فقط.

وفي مقام إبراهيم كنت تقوم مقام إبراهيم وإسماعيل.

عندما تبدأ السعي فأنت تفعل كهاجر مرة أخرى..

هنا مظاهر صادقة للوحدانية:

الأشكال والأنماط والألوان والدرجات والشخوص والحدود والمميزات والمسافات قد حطمت، كل ما في المشهد الذي أمامك الآن رجل عارٍ وإنسانية مجرّدة.. لا شيء سوى الإيمان..

المعتقد والحركة في سمو وارتفاع.

هنا لا يرد ذكر أحد، وحتى إبراهيم وإسماعيل وهاجر هي أسماء وكلمات ورموز فقط..

كل الموجودات الآن في تحرّك منضبط..

أي أن الإنسانية والروحانية متجرّدتان، والمناخ الذي يحيط بهما ويملأ الأثير بينهما هو النظام..

هذا هو الحج: قرار بالحركة الأبدية في اتجاه محدد.

وهذا هو نفسه طريق حركة الكون المحسوبة بحساب دقيق..

* * *

هنا في السعي ستلعب دور هاجر.. امرأة!

امرأة مسكينة، وأَمَة اثيوبية مستضعفة، وخادمة لسارة..

هذه كل مؤهلاتها.. هذا في النظام الاجتماعي البشري (نظام الشرك)..

أما في نظام التوحيد.. مجتمع الإسلام.. هذه الخادمة هي التي تدعو الله تعالى، وهي أم الأنبياء العظماء.. أولي العزم من الرسل.

إنها عند الله تمثّل أجمل وأعزّ مخلوقاته سبحانه..

إنها في هذا العرض (مناسك الحج) هي الشخصية الرئيسية..

إنها في هذا البيت هي المرأة الوحيدة (الأم)..

* * *

لقد أمر الله تعالى هاجر بطاعته، ووعد بأن يكفيها هي وولدها:

«يا هاجر.. يا مثال التسليم والطاعة.. يا مثال البطولة العظيمة للإيمان والتوكل.. سوف تكونين في كنفي وتحت حمايتي».

أذعنت هاجر تماماً لإرادة الله، وتركت طفلها في الوادي..

هذا هو أمر الله ونداء الحب!!

هل معنى تسليم هاجر أن تقبع في سكون؟!

كلا.. نهضت هاجر من فورها ووحدها، وبدأت تجري من جبل جافٍ (الصفا) إلى جبل آخر جافٍ (المروة) بحثاً عن الماء!..

إنها الحركة الدؤوبة والبحث المستمر الدائم..

لقد عزمت على الاعتماد على نفسها، تجري بقدميها، وتستخدم إرادتها وعقلها اللذين وهبهما لها خالقها.

إنَّ هاجر لامرأة مسؤولة، وأم محبة، ووحيدة تجول وتلهث باحثة عن الماء.. محتملة الألم والفزع.. مجردة من أي دعم.. لا مأوى لها ولا بيت.. معزولة بلا مجتمع.. بلا طبقة.. بلا جنس.. بلا توقع!

لكنها رغم كل تلك العوامل التي تدفع لليأس وتحقق الإخفاق في المسعى، كانت هاجر مليئة بالأمل!

خادمة.. وحيدة.. ضحية.. غريبة.. منبوذة.. مرفوضة.. مكروهة من النظام الطبقي والأعراف والأسرة.

هذه الأَمَة السوداء وحدها وطفلها على يديها! بعيدة عن بلدها، وعن بلاد الجنس الممتاز.. تجول في الصحراء غريبة كالمسجونة في شعاب هذه الجبال.

كل هذا وهي وحدها! لا تعرف الراحة.. ولكنها ـ رغم كل هذا ـ مليئة بالأمل والعزم في بحثها عن الماء، تغدو وتروح من مكان لآخر..

كل ذلك وحدها!.. تجري على قدميها إلى قمم تلك الجبال تبحث عن الماء..

لم تكتف بالجلوس والنواح، مسلوبة الإرادة.

إبراهيم أسوتها.. وهذا إحياء لسُنّته..

إنها ليست إلهاً . . إنها عبد . . أحد عباده . .

لم تكن تنشد الرحمة في النار، بل كانت تبحث عن الماء!

الماء؟! نعم الماء . .

كلا إنها لا تبحث في الغيب، ولا ما وراء المادة، ولا في معاني الحب، ولا فلسفة الخضوع، ولا في الطاعة، ولا في الروحانيات، ولا المسائل الفلسفية ونظرياتها في الحياة . .

كلا إنها ليست في السماء، ولا في الدار الآخرة . .

كلا إنها هنا في هذا العالم . . إنها هنا تبحث عن مياه للشرب من منبع في الأرض . .

هي مادية بحتة إذاً! . .

إنها تبحث عن ذات السائل الذي يتدفق في الأرض، وتظمأ له الحياة . .

إنَّ البدن يحتاجه ليكون دماً في عروقه . .

إنه المكوّن للّبن الذي يملأ ثَدِي الأمهات ويروي ظمأ الأطفال . .

إنَّ البحث عن الماء رمز للبحث عن الحياة المادية الضرورية في هذه الأرض . .

إنَّ الحياة المادية على الأرض هي احتياج أصيل يبرز علاقة الإنسان بالطبيعة . .

* * *

السعي هو عمل مادي . .

السعي هو أن تستفرغ جهدك وتبذل طاقتك في سبيل الماء والخبز، حتى تشبع حاجتك وتطعم صغارك الجوعى، وهو الطريق نحو حياة أفضل .

إبنك ظمآن وينتظرك في هذه الصحراء الجافة، وواجبك أن تعثر على منبع تأتيه منه بالماء . السعي هو كفاح وبحث من أجل حاجتك من قلب هذه الطبيعة، ومحاولة لاستخراج الماء من الحجر . .

السعي حركة مادية وحاجة مادية وهدف مادي وفعل مادي!

الاقتصاد هو الطبيعة والعمل .

الحاجة هي الطبيعة والإنسان . .

* * *

يا للدهشة . .

بحساب المسافة فالأمر لا يعدو أن يكون خطوات أو لحيظات معدودة من الطواف إلى السعي، لكن البون[١] بينهما شاسع . .

الطواف : الحب المطلق . .

السعي : الحكمة المطلقة . .

---

(١) البون : المسافة بين شيئين .

الطواف: كلهم (هو)..

السعي: كلهم (أنت)..

الطواف: إرادة الله وحدها..

السعي: إرادتك وحدك..

الطواف: كفراشة تدور حول النور حتى تتوهج ثم تغدو رماداً تذريه الرياح حتى تتلاشى في الحب وتذوب في الضياء.

السعي: كالنسر الذي يحلق فوق هذه الجبال السوداء، تعينه أجنحته القوية بحثاً عن طعامه حتى يجده وسط الصخور.

إنه يهزم الأرض والفضاء، والرياح تضرب أجنحته الرقيقة وهو يطير حراً في الآفاق..

السماء تمثل طموحه، والأرض تتضاءل تحت جناحيه..

إنَّ الأرض لتغلب تحت نظرته الحادة اللامعة..

الطواف: هو الإنسان العاشق للحقيقة..

السعي: هو الإنسان باذلاً وسعه معتمداً على الحقائق..

الطواف: حب.. عبادة.. روح.. أخلاق.. جمال.. خير.. قداسة.. قيم.. حق.. إيمان.. تقوى.. معاناة.. تضحية.. تفانٍ.. عدل.. تواضع.. مشاعر.. عبودية.. رحمة.. ما وراء المادة.. غيب.. إيثار.. رجاء اليوم الآخر.. إخلاص لله..

وخلاصة كل ذلك: هو كل ما يجعل الروح الإسلامية تتحرك..

السعي: الحكمة.. المنطق.. الحاجة.. الحياة الدنيا.. الحقائق.. الأهداف.. المادة.. الامتيازات.. التفكير.. العلم.. الصناعة.. السياسة.. الفائدة.. اللذة.. الاقتصاد.. المدنية.. الجسد.. الحرية.. الإرادة.. السيادة (أي السعي من أجل الذات في الأرض)..

وخلاصة كل ذلك: هو كل ما يسعى في سبيله الماديون..

الطواف: الله وحده.

السعي: الإنسان وحده..

الطواف: الروح ولا شيء غير الروح..

السعي: الجسد فقط..

الطواف: معاناة الوجود، والإشفاق من الدار الآخرة..

السعي: لذة الحياة، والمعاناة في هذا العالم..

الطواف: السعي من أجل الظمأ..

السعي: البحث من أجل الرِيّ..

الطواف: الفَرَاش..

السعي: النسر..

❊ ❊ ❊

فريضة الحج هي التي تربط بين الطواف والسعي، وتحلّ التناقض الذي أشكل على الإنسان عبر تاريخه: المادية أم المثالية؟.. العقلانية أم الروحانية؟.. الدنيا أم الآخرة؟.. الشهوانية أم الرهبانية؟.. إرادة الإنسان أم إرادة الله؟.. التوكل على الله أم الاعتماد على النفس؟..

الله تعالى ـ رب إبراهيم ـ سوف يعلّمك الإجابة في كلمة واحدة: كلاهما!!

وهو درس لا يقدّمه لك في كلمات، ولا يعرضه أمامك لتراه من بعيد، ولا يدخلك معملاً لتجرّب وتخطىء، ولا يدلي الله لك بالأدلة والبراهين الفلسفية.. كلا.

إنك ستؤدي هذا الدور بنفسك، وهو دور سبقك إليه نموذج إنساني عظيم، علّم الفلاسفة والعلماء والمفكرين من الباحثين عن الإيمان والحقيقة، هذا النموذج الإنساني صاحب هذا الدرس الإلهي الجليل امرأة سوداء.. أَمَة إفريقية.. وأم.. (إنها هاجر) مرة أخرى!

استجابت لأمر الله، وأسلمت لإرادته المطلقة، تركت وطنها وجاءت ومعها طفلها بعيداً عنه. بعيداً في هذا الوادي المقفر الموحش.. مكة.

توكلت تماماً على الله.. على حبه، وبقوة الإيمان أنكرت كل منطق وكل معقول..

ذلك هو الطواف..

لكن على غير ما يفعله من يسمّون بالصالحين والعابدين!! لم تجلس ساكنة بالقرب من ولدها.. لم تنتظر حدوث معجزة.. لم تتوقع يداً خفية تجلب لها فاكهة من السماء، أو تشق لها نهراً يروي ظمأها.

كلا! لقد تركت وليدها في يد الحب.. يد الرحمة، وطفقت تجري في الحال..

لقد قررت أن تجري في الحال بين الجبال الصمّاء.. في جبال مكة توجد إمرأة.. وحدها.. عطشى.. مسؤولة.. غريبة، تتجول في بحث لا طائل وراءه عن الماء!..

يا الله!..

هل نحن نتحدث عن هاجر أم عن الإنسان؟!

لقد أجهدت نفسها دون جدوى، وعادت يائسة إلى ابنها..

يا للدهشة!!.. ما هذا؟!!

الطفل الذي تركته تحت مظلة الرحمة في حالة من العطش والإجهاد، تدفق الماء من بين الرمال تحت قدميه!

في اللحظة التي بلغت فيها منتهى اليأس، ومن مكان لم تكن تتوقعه.. فجأة دون مقدمات ظهر الماء هناك..

إنها المعجزة.. قوة الحاجة.

إنها رحمة الله. . خرير.

صوت الماء المنساب. .

إنها زم زم. . مياه عذبة تهب الحياة. . تتفجر عيوناً من الصخر!

هذا هو الدرس: لكي تحصل على الماء فبالحب لا بالجهد. . لكن بعد الجهد.

إنك لا تستطيع أن تتقرب منه بقوة جهدك، لكن عليك أن تستفرغ ما في وسعك. .

حاول سبع مرات ـ وهو ذات الرقم الذي بلغته أشواطك في الطواف ـ لكن في هذه المرة لم تتبع طريقاً دائرياً لا يقودك في النهاية إلاَّ إلى المكان الذي بدأت منه، من نقطة الصفر.

كلا لن تسافر في دائرة مفرغة لا توصلك إلى مكان ولا تكسبك شيء وتجعلك تتحرك بلا هدف. . إعمل لتملأ بطنك واملأ بطنك لكي تعمل! في النهاية استمر في العمل حتى تموت!!

الطواف: أن تحيا. . لا من أجل أن تحيا، ولكن من أجل الله. .

السعي: أن تبذل وسعك. . لا من أجل نفسك فقط، لكن من أجل الآخرين أيضاً، وهنا يصبح طريقك مستقيماً.

إنها هجرة. .

إبدأ من نقطة محددة حتى تبلغ نقطة الوصول. .

إنها المسار بين الصفا والمروة.

* * *

أثناء السعي أنت تكرر حركة المجيء والذهاب سبع مرات..

الرقم (٧) رقم مفرد وليس مزدوجاً، ولهذا فإنّ سعيك سينتهي عند المروة وليس في المكان الذي بدأت منه..

سبع مرات! سبعة.. رقم رمزي يمثل الدوام، فكل حياتك للمروة!

إبدأ بالصفا التي تعني الحب الخالص للناس، ونقطة وصولك ستكون المروة التي تعني مُثُل وقيم الإنسان، وسبب تكريمه وسخائه وعفوه عن الآخرين..

من هم الآخرون؟.

الآخرون هم الذين يحاولون معك..

* * *

أنت أيها الإنسان غريب.. مشرّد.. منفي عن الأرض.. إحساس بالمسؤولية يحثك أن تبحث عن الماء في السراب.. إمضِ إلى الصفا كما فعلت هاجر، وانظر إلى الطوفان الأبيض من الناس يحاول.. اهبط مسرعاً من الصفا بلا راحة وفي حالة من العطش.. إنهم يحاولون البحث عن الماء في هذه الصحراء الحارة المجدبة، ثم يواصلون السعي من قمة المروة ولا يجدون الماء.. لقد جفت الشفاه والأيدي خالية والنظرة حسيرة، يعودون مرة ثانية إلى الصفا ويبدأون البحث..

هذه الخطوات تتكرر سبع مرات، والماء لا يتمّ العثور عليه، ولا شيء يروي ظمأهم، لكنهم في عزيمة يصلون إلى المروة. .

وأنتِ أيتها القطرة انضمي من قمة الصفا، إلى هذا النهر وكافحي واعطشي، وادفعي بنفسك داخل هذا الطوفان البشري الأبيض. .

إبذل جهدك في السعي مع الآخرين. . في منتصف سعيك وأنت موازٍ للكعبة، أسرع إلى الأمام مع الآخرين في الهرولة. .

* * *

التقصير

في نقطة النهاية من سعيك عند المروة قصّ شعرك وقلم أظافرك واخلع ثياب الإحرام وارتد ثيابك المعتادة[1] . . استشعر الحرية، وبيدك الخالية وفي حالة من الظمأ اذهب لتلقى إسماعيلك.

إصغ جيداً! ألا تسمع خرير الماء من هنا؟ أنظر طيور عطشى تُحلّق فوق هذه الصخور المقفرة! زمزم قد روت ظمأ إسماعيل . .

قبيلة أجنبية من أرض نائية توطنت في هذا الوادي القفر . .

عطاشى الأرض من الناس تحلقوا حول زمزم . .

مدينة الحجر قامت في هذه الصحراء العطشى اليابسة . .

هنا تدفق وابل الوحي، وقام البيت العتيق، بيت الحرية والحب! . .

* * *

(١) راجع الفقرة الواردة آخر هذا الفصل بعنوان «ملحوظة».

عندما تركض في المسعى وأنت ظامئ ووحيد فستنتهي وحدتك. .

هنا زمزم تجري تحت قدمي إسماعيل، والناس من فجاج الأرض حولك. .

ثم ماذا ترى غير ذلك؟

إنَّ الله في جوارك وقد أصبحت في معيّته. .

* * *

أيها الإنسان المتعب من السعي استعن بالحب. .

أيها الإنسان المسؤول إفعل ما في وسعك إن كان إسماعيلك عطشاناً. .

أيها (العاشق) تمنّى!

وليكن رجاؤك الحب والأمل والمعجزات. .

وأنت أيها المعتمر القادم من السعي، ومن صحراء وجودك المجدبة وعمق الركود الذي لحق بطبيعتك. .

الينبوع يتفجر. .

إصغ جيداً إلى قلبك.

ستسمع الخرير!

* * *

من جبل المروة إذهب باتجاه بئر زمزم، وخذ جرعات منه

وتضلّع، واغسل وجهك، واحمل بعض الماء معك إلى ديارك عسى أن تهديها لقومك.

* * *

ملحوظة: كل ما ورد في الفصول السابقة متعلق بجزء من الحج أو العمرة (حج التمتع) وبالنسبة للعمرة يتاح للمسلم أن يقوم بها في أي وقت خلال العام ما عدا أيام الثامن والتاسع والعاشر من ذي الحجة لأنها أيام الحج الأكبر الذي سنبحثه في الفصول الآتية..

* * *

الحج الأكبر

في اليوم التاسع من ذي الحجة يبدأ الحج الأكبر . .

قبل هذا اليوم عليك أن ترتدي ثياب الإحرام وتغادر مكة . .

أين أنت في هذه اللحظة؟!

لا يهم في أي مكان تكون: في المسجد الحرام . . بالقرب من الكعبة . . في فندقك . . في الشارع لا بدَّ في كل الأحوال أن تغادر مكة . .

يا للعجب! . . أتترك الكعبة خلفك؟!

نعم . . إنها القبلة ، ولكن الحج الأكبر يستهلّ بمغادرة مكة؟

ألم تترك أسرتك وبيتك وغير ذلك حتى تأتي مكة وتستقبل القبلة؟!

نعم . . إن الأمر كذلك ، وهكذا كان الحال في العمرة .

إذن لماذا تغادر الكعبة؟!

لأنك ذاهب لتبدأ الحج الأكبر . .

* * *

إنَّ قرار الذهاب لمكة ليس هو غاية الحج النهائية، ولا حتى الوصول إلى الكعبة قبلة الناس كما يتبادر إلى الذهن عن خطأ وسوء فهم .

إمام التوحيد إبراهيم عليه السلام يعلّمك أن الحج لا ينتهي في الكعبة، ولكنه يبدأ في اللحظة التي تغادر فيها الكعبة .

هي ليست نقطة الوصول، ولكنها نقطة المغادرة . .

أنت ما زلت في الكعبة، ويجب أن تكون مستوعباً، ومتجاوزاً رغباتك الشخصية، وأن تهزم عبادة الذات، غادر حدودك، واكتشف نفسك . .

أنت أيها المهاجر إنك ذاهب لترى الله[١]، ومن الآن فصاعداً ستمضي في طريق مختلف وستدخل أرضاً جديدة . .

في الميقات والعمرة كان عليك أن تترك بيتك، ولكنك الآن ستترك بيت الله!!

* * *

عندما تشرف على التسليم الكامل، وفي ذروة تحرّرك من

---

(١) بالمعنى الوجداني للكلمة .

ذاتك، وحينما تكتشف سريرتك تصبح كفؤاً لطاعة أمر الله. .

(أترك الكعبة فأنت الآن أقرب إليَّ من الكعبة)

زر الكعبة في عمرتك (الحج الأصغر) فهي معينك على اكتشاف ذاتك. .

أنت الآن ذاهب لتقترب من الله، لا لتزور البيت.

أنت الآن ذاهب لترى المالك.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[1]

الكعبة هي الاتجاه فقط، وليست نقطة الوصول. . هي القبلة.

إنك تبدأ منطلقاً من الكعبة لكنك يجب ألاّ تبقى في الكعبة.

في أي مكان تتوقف فإنك تتعرّض للضياع والموت. .

أيها الحاج البادئ رحلته، وصاحب المحاولة الأبدية في القربى إلى الله. .

أيها الإنسان، يا روح الله. .

أيها المؤمنون العاملون الصادقون. .

لقد جئتم إلى مكة. .

لا تبقوا فيها. .

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١٨.

لا تتوقفوا عند المسجد الحرام ساكنين عنده. .

إنَّ الله قد ولَّى وجهك نحو القبلة حتى لا تضلّ بالقِبلات الأخرى.

الكعبة هي وجهتك وهدفك وقبلتك، لكن عليك وأنت في مكة أن تتجه إلى مكان آخر تذهب إليه هناك ثم تأتي إلى مكة[1].

هكذا تغادر مكة ـ دون أية تحفظات ـ مرتدياً ثياب الإحرام. . معطياً ظهرك للكعبة، متجهاً إلى مكان شديد القداسة. . تُرى أي مكان هو؟ واصل تحركك وسترى. .

* * *

(١) المقصود الخروج لمواقيت الإحرام للحج الأكبر بعد التقصير من إحرام العمرة وهو حج التمتع كما سبق بيانه.

عرفات

وأنت في لباس الإحرام تغادر مكة، وتبدأ رحلتك نحو الشرق (عرفة) حيث تبقى فوقه، وذلك في اليوم التاسع من ذي الحجة . .

في رحلة العودة عليك أن تقف وقفة قصيرة في (المشعر الحرام)[1] ثم في (منى) . . لماذا؟ . . سنعرف ذلك حالاً .

وعلى عكس ما سبق أن قلناه، ولا تمضي الهوينا في سيرك إلى عرفات، بل يجب عليك أن تحثّ الخطى أشعث أغبر دون التفات إلى شيء، كالعاشق الولهان لا يشغله عن معشوقه شيء، وذلك ابتداء من فجر يوم التاسع وحتى يوم الثاني عشر (أو الثالث عشر إن شئت) يجب أن تبقى بمنى .

ليست هناك معالم تميّز هذه المناطق الثلاث[2] عن بعضها،

(١) المزدلفة .

(٢) المقصود عرفات والمشعر الحرام ومنى .

فهي لا تعدو أن تكون طريقاً ضيقاً طويلاً يمضي خمسة عشر ميلاً ويتصل بوادي مكة . .

على طول هذا الطريق لا تجد أي أثر تاريخي أو طبيعي أو ديني، ولا حتى علامة تفصل بين هذه الأماكن . . فأنت الذي تحدّد الحدود بينها حسب مراحل حركتك المفروضة عليك والواجبات المنوط بك أداؤها . .

ففي (منى) عليك أن تبقى يومي الحادي عشر والثاني عشر، وهما اليومان اللذان يعقبان يوم الأضحية (اليوم العاشر) رغم أنك ـ على الأغلب ـ ستقدّم أضحيتك وترمي الشيطان قبيل ظهر اليوم العاشر، لكن مع ذلك عليك أن تبقى في منى . .

كما تعلم . . إنك لا تبقى لتقيم، ولكن لتقف وقفة قصيرة على طريقك . . تقف مع القافلة حيث تقف، وتسير معها حيث تسير . .

هناك معنى آخر يجعل (الوقوف) في هذه (الفصول) الثلاثة أكبر من مجرد البقاء نهار اليوم التاسع، أو جمع سبعين حصاة من المشعر الحرام.

صحيح أن في كل فصل هناك وقفة قصيرة، ثم تمضي إلى الفصل التالي، وصحيح أن (منى) هي المرحلة الثالثة وستبقى فيها ثلاثة أيام، ولكن عليك أن تتذكر أنها ليست نقطة الوصول . .

إذاً أين ستنتهي هذه الرحلة؟! . . أين خاتمة المطاف التي ستصل إليها هذه القافلة؟

عفواً! . . البعثة؟

حيث لا حيث . .

إذاً . . إلى أين أنت ذاهب؟

الإجابة أنك ذاهب إلى الخلود . . تلقاء الله . .

إنَّ الله هو الكمال المطلق . . وهو الخالق .

إذاً . . رحلتك حركة متوجهة إلى (الجمال) المطلق، و (المعرفة) المطلقة، و (القوة) المطلقة . . إلى الخلود والكمال . . والحركة إليهما حركة خالدة .

في هذه الرحلة ليس هناك نقطة نهاية . . نقطة وصول، ولكنها رحلة إلى الله . . جهة الله تعالى . . تلقاء الله .

على مستوى الحياة الدنيا، وبالنظر إلى الإنسان نجد أن كل شيء له أجل محدّد ونهاية يصل إليها هي الفناء والموت، لكن الحركة تلقاء الله هي حركة أبدية تبقى مستمرة؛ لأن الوجهة هناك ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[١] .

لقد بدأت من مكة وجئت إلى عرفة، والآن تنتقل من طور إلى طور، راجعاً إلى مكة ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[٢] .

كل الذي بحثناه آنفاً هو (حركة) . . حركة متقدمة (ذاهبة)

---

(١) سورة القصص، الآية: ٨٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٥٦.

وحركة قادمة (راجعة). .

هناك دائماً حركة باتجاه شيء (إليه)، وليس (فيه)، وهذا هو الذي يجعل الحج حركة مطلقة.

إنَّ الحج ليس pélérinage[١]؛ لأن كل pélérin[٢] له نقطة وصول، والحج ليس مجرد رحلة؛ إنّ كل رحلة لها نقطة وصول. . الحج هو غاية مطلقة وحركة خارجية تلقاء هذه الغاية. وهذه الغاية ليست نقطة يمكن أن ينتهي إليها الإنسان، ولكن يحاول التقرّب إليها. .

ولهذا فعند قدومك من عرفة تبقى في (منى) خلف جدار البيت وليس داخل البيت، وهذا هو معنى التقرب إلى الغاية، وليس الوصول إليها. .

في طريق الرجوع إلى الله هناك ثلاث مراسي: عرفة، المشعر، منى. لا بدَّ أن ترسو عند كل منها. .

إنها ليست مجرد ثلاثة أماكن تقوم بزيارتها. .

عليك أن تعي تماماً ما المقصود بكل وقفة من هذه الوقفات الثلاث. .

---

(١) تعني في اللغات اللاتينية زيارة الأماكن المقدسة أو زيارة دينية، وتستعمل في معظم الأحيان مقابلاً لكملة حج في الإسلام، ولكنها لا تعبّر عن المعنى كما يوضح المؤلف في ما يأتي.

(٢) تترجم بمعنى حاج أو زائر للأماكن المقدسة، ولا تعبّر أيضاً عن معنى الحاج لدى المسلمين.

وعليك أن تدرك دلالات قرارك بالوقوف ومتابعة الرحلة (النية).

فما الذي تعنيه هذه المراحل الثلاث؟

من الأسماء العلوية التي سمّاها الله تعالى لها ندرك هذه المعاني:

عرفة: تعني العلم والمعرفة..

المشعر: يعني الوعي والشعور..

منى: تعني الحب والإيمان..

إذهب من مكة إلى عرفات: «إنا لله».

ثم ارجع من عرفات إلى مكة: «وإنا إليه راجعون».

عرفة تمثل بدء حياة الإنسان على الأرض؛ فقد جاء في قصة آدم عليه السلام:

بعد أن هبط آدم إلى الأرض لقي حواء في عرفات، وهناك تعرّفا على بعضهما، وكان الهبوط بعد أن أُمِرَ آدم بترك الجنة «بعد أن عصى».

إنَّ تلك الجنة لم تكن هي الجنة الموعودة في الدار الآخرة، بل هي جنة على الأرض، كما كان مسقط رأس آدم وميلاده على الأرض، وكانت الأرض آنذاك تغطيها الشجيرات والبرك، وكان آدم يعيش دون تبعات ولا أعباء، يأكل ويشرب ويتمتع دون قيود، حتى جاءه إبليس الذي عصى أمر الله رافضاً السجود لآدم، وبدأ

يوسوس له؛ فكما أن الله يلهم الصالحين والفاجرين بين الناس بالخير، فإن إبليس يوسوس لهم حتى يتعدّوا حدود الله فيعصونه ويأكلون من (الفاكهة المحرمة). .

وهكذا وسوس إبليس لآدم بأنه لو فعل ذلك، وأكل من الشجرة، فإنه سيحيا حياة أطول وأكثر إشراقاً.

رفض آدم في أول الأمر أن يأكل من الفاكهة المحرمة، لكن الشيطان استطاع أن يغوي حواء، عندها غوى آدم بعد أن وافقها وأكلا من الشجرة. .

إنَّ آدم يمثّل الحكمة، وحواء تمثّل الحب، والحكمة والحب هما مكوّنات الإنسان من بني آدم. .

آدم هو المخلوق الوحيد الذي يستطيع أن يقترف المعاصي ويتوب عنها. .

إنها الحرية والاختيار بين الطاعة والمعصية. .

إنها المقدرة على اتخاذ القرارات. .

إنَّ هذا الأمر يتوافق مع مفهوم «المسؤولية» و «الوعي».

ونتيجة للمعصية فقد استبدلت حالة الرضا والمتعة والراحة بأرض «الحاجة والطمع والألم. .» أو بالتعبير القرآني: «الهبوط».

فكانت بداية حياة جديدة للفرد ذو الوعي والمسؤولية صاحب المعصية: آدم. .

كان آدم ضحية الألم والحاجة والطمع، كان يعيش منفياً

وحيداً في سجن هذه الدنيا. . لقد قاسى آدم من هواجس الانفصال، وعبّر عن شكواه بلغة الإيمان والمعرفة والقلب والأدب والحياة، وتقبّل عبء المعصية أو «الخوف الفطري من الذنوب» و «الرغبة الفطرية في التوبة». .

* * *

كيف يتعلق الحج بذلك؟!

إنَّ الحج يمثل خلق الإنسان وتوبته. .

الحج هو إطاحة بالذات الواعية التي تعيش إحساس بالغربة والنفي والتي تنتج قرار (العودة). .

إنَّ تحول آدم من الجنة إلى الأرض يمثّل شخصية وسلوك الإنسان اليوم.

إنه تصوير للعصيان والعدوان الذي يقع بين الرجل الواقع تحت تأثير الشيطان، وحواء، والمطرود من السماء والمنفي في الأرض والخاضع لكل ضغوطها. .

رُبَّ ضارة نافعة! فمع أن آدم أكل من الفاكهة المحرمة إلاّ أنه. . نتيجة لذلك، تعرّف على الحكمة والوعي والبعد الحقيقي للعصيان. ثم فتح عينيه فإذا هو عارٍ. . لقد دخل إلى مرحلة التعرّف على الذات.

وسيراً على الطريق نفسه: فالهبوط من الكعبة إلى عرفة يمثّل بدء خلق الإنسان؛ فزمان خلق الإنسان هو نفسه زمان خلق المعرفة. .

ثم كان أول شعاع للحب عندما التقى آدم بحواء، وهما يرتقيان في الفهم المتبادل كل منهما للآخر. .

كانت تلك علاقة تعارف جنس على جنس آخر من نفس الفصيلة! من نفس الأصل هكذا ـ من وجهة نظر فلسفية ـ نعلم أن وجود الإنسان معاصر لوجود المعرفة. .

ومن وجهة نظر علمية فإن تاريخ الإنسان يبدأ بالمعرفة. .

يا للغرابة!. .

في الحج تبدأ الخطوة الأولى من عرفات (الوقوف بعرفة). . زمنه نهاراً. ويبدأ مع ظهر اليوم التاسع. . وقت الزوال حيث الشمس أسطع ما تكون.

والملاحظ اختيار هذه الفترة بالذات حتى تكتسب الوعي والبصيرة والحرية والمعرفة والرحمة في ضوء الشمس!.

عند مغرب الشمس ينتهي الوقوف بعرفة. . عندها تبدأ العتمة حيث لا يُرى شيء فيها، فتزول سطوة المعرفة والموجودات. .

مع نزول الشمس في سهل عرفات ينزح الناس نحو المغرب مع حركة الشمس. .

إنهم يواصلون المسير حتى المشعر الحرام، إنها أرض (الشعور) حيث يكون لهم وقفة أيضاً. .

إنَّ المرحلة التي تلي المعرفة هي الشعور. .

يا للغرابة!. .

المعرفة أولاً ثم الشعور؟!..

الناس يأخذون الأمر كمُسلّمة في أن الشعور يسبق المعرفة، لكن الخبير العليم ـ خالق هاتين الحالتين الذهنيتين ـ يشير إلى عكس هذا الترتيب!.. آدم التقى بحواء (الجنس الآخر) وتشاركا في الرؤى والأفكار، ومن ثمّ فهم كل منهما للآخر. انتهت حياتهما الفردية بتأسيس الأسرة التي تُولّد الحياة الاجتماعية، وخلق الحب الواعي فوق ذلك.. ومعنى ذلك أن اتحاد اثنان من البشر قد بدأ بالمعرفة، وتطوّر المعرفة هو الذي أضاف الشعور إلى الإنسان الذي أعطى ميلاد العلوم التي أضافت مزيداً من الفهم، وبالمقابل فقد رفع ذلك من شعور الإنسان..

إلى أين ينتهي ذلك؟..

إنه ينتهي إلى مزيد من التقدم العلمي.

فعندما تكون الموضوعية، والعلاقات بين الأفكار والعالم الخارجي تقومان على أرض الواقع، فإن الحكمة ستنمو، والادراك سيتحسن، والقوة الروحية للإنسان ستزدهر.

لو أن المشعر الحرام (الشعور) سبق عرفات (المعرفة) لكان الأمر مجرّد تنظير ومثالية ميتافيزيقية.

ولو كانت البداية من منى (الحب) لكان الأمر مجرّد دين مفتقد البصيرة لا معرفة له ولا شعور..

ولو كانت عرفات (المعرفة) وحدها هي كل المراحل، لكان

الأمر مجرد مادية غليظة وحياة علمية جافة ذات حضارة بلا روح، وتقدم بلا هدف.

ولو كان المشعر الحرام (الشعور) ومنى (الحب) وحدهما دون وجود عرفة (المعرفة) لكان الأمر كحال المسلمين الراهن من الفهم لإيمانهم القاصر على المشعر (الشعور) ومنى (الحب) دون وجود لعرفة (المعرفة)..

لكن في دين الإسلام حيث الإنسان المخلوق من حمإ مسنون ونفخة روحية ربانية، وقد امتلك السلطان عندما أصبح محل أمانة الله، واستهلّ عمله بالمعرفة، وأدرك حقائق هذا العالم بطرق علمية موضوعية، وأعقب ذلك اكتسابه للشعور، ثم تمكن أخيراً من خلق (الحب).

هذه المراحل الثلاث من عرفات إلى المشعر، ثم إلى حيث يرتقي إلى ذروة الكمال الإنساني في العروج إلى الله عند سدرة المنتهى (منى).

الواقعية؟!

نعم. كأساس لا كهدف..

هي الأساس الذي تبدأ منه كفاحك في سبيل المثال والغيب..

فالواقعية ضرورية كأساس ما دام الإنسان ـ وفقاً لعقيدة الإسلام ـ بعضه من طين الأرض وبعضه من روح الله العلوية..

وبالإرادة والقرار (النية) يتزوّد الإنسان أثناء تساميه من الطين إلى روح الله . .

هذا التسامي وهذا الارتفاع هو ما تمارسه عندما تعبر المراحل الثلاث: عرفة، والمشعر، ومنى.

في ضوء المفاهيم التي طرحت يمكن أن نعبّر عن المعاني الآتية ونبرز ما فيها من جمال:

الإيمان: طريق . .

المعرفة: إدراك . .

الرسالة: مرشد ودليل . .

الأمة: جماعة قاصدة . .

الإمامة: القيادة والتوجيه . .

الشهيد والشاهد: معالم للحركة . .

العبادة: التفاني وتعبيد الطريق . .

التقوى: تقويم للنفس وتدريب لها على أن تكون عاصياً مسؤولاً، فتتجنب الأشياء التي تجذبك للحمإ المسنون وتقعد بك عن السير . .

سبيل الله: سبيل بذل النفس والمال في سبيل الإصلاح للناس . .

الصلاة والدعاء: حضور أمام الله ونداء له وسؤاله والتضرّع

إليه بحاجاتك وأمانيك وحبك وبغضك وما تقترحه لنفسك وما ترجوه للآخرين . .

الذكر: أن تبقيه في ذهنك وأن تتفكر . .

الحج: الإرادة والقرار .

❊ ❊ ❊

الآن وصلت إلى (عرفة) وهي المسافة الأبعد من مكة حيث يمتدّ سهل جاف تغطيه الرمال الناعمة . . في الوسط يمكنك رؤية جبل الرحمة وهي ربوة صخرية صغيرة حيث وقف النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وخاطب الأمة بوصيته الأخيرة (خطبة الوداع) .

إنَّ عرفات لمدينة عجيبة حقاً! تزورها لمدة يوم واحد، ثم تذهب المدينة مع الريح بعد الغروب .

هنا تزول الفواصل والحدود لتتّحد الأمة التي لا تقوم على التعصب لجنس ولا لعرق، إنما على الإنسانية العالمية؛ حيث ينخفض التمايز إلى الحد الأدنى وسط مجموعات تمثّل العالم كله في هذا السهل تحت الخيام البيضاء الممتدة من الأفق إلى الأفق، وحيث الأرستقراطية هي منتهى الضعة، والجمال المصطنع قبح .

❊ ❊ ❊

إنك قد تسأل نفسك: ما الذي يفترض أن أراه هنا؟! ما الذي ينبغي أن أنجزه؟!

والإجابة: لا شيء.. إنك حر تفعل ما تشاء! بإمكانك أن تقضي اليوم سابحاً في المحيط البشري، أو تقضيه نائماً.. فقط تذكر أنك في عرفات.

يقول (أندريه جيد)[١]: ينبغي أن تكون العظمة في نظرتك لا فيما تراه.

دع فطرتك وطبيعتك تشرق تحت الشمس الساطعة في عرفات.

وأخيراً (وعلى عكس عادة الإنسان عبر التاريخ): لا تفرّ بعيداً عن أشعة الشمس والضوء والحرية والزحام.. دائماً إظهر مع الناس.

ففي الماضي كنت تعيش تحت نير القهر جاهلاً، كالطحلب في المياه الراكدة!

أما الآن عليك أيها الإنسان أن تخرج من خيمتك دافعاً نفسك إلى عمق المحيط البشري، تاركاً (الأنا) تحترق تحت شمس عرفات المتوهجة. ليوم واحد فقط!

كن كالشمعة التي تحترق لتضيء أفئدة الناس، لا كالشمعة التي تذوب في أيدي الطغاة..

---

(١) أديب فرنسي (١٨٦٩ ـ ١٩٥١) متمرد على الأعراف والقيود المتوارثة من أنصار التحرر الفكري والأخلاقي. «المصحح»..

لا تكن دمية..

إنَّ جوهر المطلوب منك ليس هو بروزك للشمس ـ فلك أن تقضي هذا اليوم كما تحب ـ إنما المطلوب فقط هو الوقوف، ثم أترك سهل عرفات بعد غروب شمسه.

❊ ❊ ❊

المشعر[1]

ها هي الشمس قد غابت عن عرفات، وآن لك أن تذهب. .

لقد فقدت عرفات وكانت نهايتها مع ظلمة، فلا مبرر لبقائك هنا بعد أن قرر الجميع وعزموا على التحرك.

حينما يبدأ الليل في التوغل لن تجد أحداً من المسلمين هناك. .

إنها مدينة الشمس المشرقة! فالشمس تذهب فجأة مسرعة لتتجاوز السهل، وتختفي في الغرب. .

لكن إلى أين أنت ذاهب؟ إلى المشعر؟!

ليس بإمكانك الراحة. . مجرد وقفة قصيرة وذهاب سريع. .

(١) جاء في لسان العرب: المشعر (المَعْلَم)، والمشاعر: (المعالم) التي ندب الله إليها وأمر بالقيام عليها، ومنه سمي المشعر الحرام لأنه معلم للعبادة وموضع للوقوف عنده.

وقفة؟.. لا سكن؟.. لا استقرار؟

نعم.. لا مكان!.. وقفة لنصف يوم، هذا كل ما هنالك.. الخيام التي نصبتها البارحة يجب أن تطوى كلها اليوم..

لقد وصلت إليك الرسالة:

أيها الإنسان إنك ستعيش على هذه الأرض فترة قصيرة..

أيها الإنسان إنك مجرد لحظة في عمر الحركة الأبدية.. إنك فانٍ.

أيها الموجة[(١)] إن وجودك يتوقف على حركتك، وأنت ميت إذا كنت سلبياً.

في الفناء ستكون كاملاً إذا كان قرارك مطلقاً..

أيها القطرة تدحرج إلى النهر البشري الفياض وتدفق..

﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾[(٢)].

* * *

عليك أن تكون عند المشعر مع حلول الظلام.

الناس يتزاحمون مجتمعين وهم يفيضون من عرفات تجاه الوادي في طريقهم إلى منى ثم إلى مكة..

---

(١) يقصد أن مجموع البشر موجات بحر متلاحقة.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٨.

وها هي عرفات ـ تلك المدينة التي توقفت فيها ليوم واحد ـ ذهبت مع هبوب رياح الغروب ومع فيضان النهر البشري منها.

في لون واحد ووجهة واحدة انساب الناس حول حجارة جبل الرحمة كأنهم يفرون من الظلمة مسرعين على منحدر الوادي..

الآن خيّم الليل على سهل عرفات..

أنت الآن نقطة على خط الرجاء، وقطرات الإيمان المتدفقة الفياضة مع النهر.. جاهد مع هؤلاء الذين داهمهم الليل فجأة بالرجاء والإيمان..

يا للحيرة!

إنَّ الأمر يبدو كأن مدينة الشمس المشرقة قد أذابتها حرارة عرفات الشديدة، والآن مدينة الليل قد غطت هذه الأرض كالبركان الخامد..

ما من شخص هناك إلاً وذاب وسط الزحام، والظلام زحف إلى كل مكان.

لكن ما هذا الذي يخشاه الإنسان هنا؟!.. فالطريق ثابت وآمن!..

تنشأ المفارقة والمأساوية من تزامن اكتشاف نفسك مع ضلالك للطريق..

التضحية بالنفس على الطريق القويم هي الخلاص، والتضحية بالنفس في سبيل الله هي التبتل الصادق والعبادة الخالصة.

أيها الإنسان! إنَّ الله ينتظرك في نهاية الطريق، تذكّر أنك في المشعر الحرام (أرض الانتباه والشعور)..

***

يا لها من دقة!..

عرفات أو رمز المعرفة استعملت بصيغة الجمع (عرفات من عَرَفَ) لكن المشعر وردت بصيغة المفرد.. إنه يريد أن يقول إن الوقائع يمكن صياغتها ووصفها بطرق متنوعة، لكن الحق متفرّد يتمثل في طريق واحد ووحيد هو طريق الناس وفي سبيل الله..

هذا ما يتجلّى في مجلسه ﷺ مع أصحابه على الأرض، يصوّر ذلك لهم برسم خط واحد مستقيم، وبجواره خطوط متعرجة متعددة على الأرض بعصاه.. يظهر بذلك طرقاً عديدة للكشف عن وجود العلاقات بين الظواهر (أو طرق المعرفة والتعليم)(١).

إنَّ العلوم والمعارف هي كشف لظواهر موجودة فعلاً، وعرفات أشبه بمرآة تعكس كل الألوان والملامح والأشكال والهياكل بدون أي تغيير، ولكن بحجم مضاعف لتبدو الصورة أكثر وضوحاً..

---

(١) نص الحديث: عن عبد الله بن مسعود قال: خط رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم قال: «هذا سبيل الله مستقيماً» وخط عن يمينه وعن شماله ثم قال: «هذه السبل ليس منها واحد إلاّ عليه شيطان يدعو إليه» ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ سورة الأنعام، الآية: ١٥٣. رواه جماعة، منهم: أحمد والنسائي والحاكم.

الكون الذي نعيش فيه كالمرآة: عندما يواجه الجمادات عندئذ يعكس قوانين الطبيعة (الفيزياء) وعندما يواجه الدين فإنه يعكس أحكام الفقه. . هذا كل ما هنالك!

ليس هناك معرفة خيرة ومعرفة سيئة؛ فالمعرفة يمكن أن تؤدي الدور ونقيضه، دون أن يعني الأمر بالنسبة لها شيء في كلتا الحالتين؛ فهي نافعة إذا أريد منها النفع، وهي غادرة إذا أريد منها الغدر.

المعرفة هي المعرفة في كل مكان وزمان، وهي تتساوى عند المسلم وغير المسلم، وهي تتساوى عند المعسكرات المتحاربة كما تتساوى عند الخدم والسادة، فلا تجامل فريق على حساب فريق ولا تختلف عند جهة عنها عند الجهة الأخرى! . .

إنَّ الحدود توجد عندما يوجد الشعور فقط، والقوى التي توظف المعرفة هي التي تعطيها وجهتها وتنتهي بها إلى أن تكون أخلاقية أو لا أخلاقية. . في سبيل الحرب أو في سبيل السلام. . في سبيل العدل أو في سبيل الظلم!!.

في النظام الرأسمالي العلم له المدلول نفسه كما في النظام الشيوعي[١].

الفيزيائيون الفاشيست يعرفون عن الطبيعة كما يعرف ضحاياهم. .

---

(١) قبل أن ينهار.

والفقهاء الموقرون لدى السلاطين لهم من المعرفة بالدين مثل ما للعلماء الذين يضعهم الحكام في السجون . .

إذاً . . ما الذي يجعل واحداً من الناس (جلاداً) ويجعل من الآخر (شهيداً)؟ .

وما الذي يجعل من أحدهم (طاغية) ويجعل من الآخر (عادلاً رحيماً)؟

وما الذي يجعل من أحدهم (فاسداً) ويجعل من الآخر (صالحاً)؟! .

ليست المعرفة هي التي تفعل ذلك، ولكنه الشعور . . نعم الشعور .

* * *

إنَّ التساؤل عن أنواع المعارف والعلوم لا يتصل بموضوعنا، أما الشيء المهم لدينا هنا فهو (الشعور) . .

إنَّ الحج يفصّل ذلك في منتهى الدقة حينما يحدّده بـ «الشعور الحرام» . . أي الذي تحميه القداسة أو الطهارة أو العفة أو التقوى . .

الطور الأول: «عرفات» كلمة واحدة بلا إضافة، لكن الطور الثاني ليس هو المشعر فقط، ولكن: «المشعر الحرام» .

ومما يثير الدهشة أن الوقوف بالمشعر الحرام يكون ليلاً، بينما وقفة عرفة تتمّ أثناء ساعات النهار . . لماذا؟!

ذلك لأنّ عرفة تمثّل رحلة المعرفة والعلم التي هي في ذاتها علاقة موضوعية بين التفكير والحقائق الموجودة في العالم، ولهذا فهي في حاجة إلى ضوء النهار.

أما المشعر الحرام فهو يمثل مرحلة «الشعور» وهو بالتالي علاقة ذاتية بين الأفكار، لهذا فهو قوة تُكتَسب بمزيد من تركيز الفهم في الظلام والهدوء الذي توفره ساعات الليل.

عرفات هي مرحلة التجربة والموضوعية، والمشعر هو مرحلة البصيرة الذاتية. .

عرفات هي رحلة ذهنية لا علاقة مباشرة بينها وبين علاج الفساد والأمراض، والمشعر هو مرحلة الشعور المضطلع بالمسؤولية والطهارة والتقوى في الأرض الآمنة المقدسة، أرض «المشعر الحرام» كأنك في «المسجد الحرام» وفي «الشهر الحرام» حيث يمنع الرفث والفسوق والفساد والعصيان والحرب والعدوان. . حيث لا يسمح لأحد بأن يؤذي حيواناً ولا حتى أن يقتلع نباتاً!. . هنا الأرض والسماء يسودهما الأمن والسلام في مناخ من الحرية والتواضع، ونفوس متشرّبة بالتقوى التي تجعل من السلام نتيجة حتمية.

الأرض والسماء هنا ظاهرتان شفافتان كالنور، عظيمتا القدر جليلتا الهيبة كالطبيعة. .

يا للدهشة!. .

«الشعور» يولد من «المعرفة» وهو بدوره يلد «الحب».

فـ «الشعور» هو منزلة بين «العلم» و «الإيمان». . بين «عرفات» و «منى».

إنَّ البصيرة لا تحتاج إلى ضوء النهار، بل تزداد وضوحاً بالفكر في هدوء الليل حيث تحلّ كل ما يلتبس عليك من أمر «الحب».

❊ ❊ ❊

الحكمة هي نمط المعرفة أو النظر الذكي، وهو يأتي للإنسان عن طريق الرسل لا عن طريق العلماء والفلاسفة، وهي المعرفة والوعي الذاتي الناطق باسم الإسلام، وليس ما تجده لدى دارس مدرب، ولكنه وعي المفكر المسؤول.

إنها ليست العلاقة الباطنية بين الظواهر والقوانين (النواميس) بل هي نور مبين. .

إنها ذلك النوع من المعرفة الذي أشار إليه النبي ﷺ: «العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء».

إنها المعرفة التي يهبها المرشد الحقيقي من لدنه. .

إنَّ أي شخص يمكنه أن يكتسب معرفة «عرفات» لكن الإدراك والوعي الذي يمنحه «المشعر» هو النور الذي يقذفه الله في قلب من يشاء! . .

من هم أولئك؟!

إنهم ليسوا الذين يعملون بدافع الأنانية، لكنهم الذين

يكافحون في سبيل الأخرين:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾(١).

إنها معرفة: «الرشد» و «الإدراك» و «الطاعة» و«الإخلاص». .

وفي ضوء هذه المعرفة أصبح البدوي الأمي قائداً للقبيلة وحادياً لها في طريقها. .

هذه المعرفة هي نوع من «الحكمة» لا تكتسب ولا تتعلم في المدارس والجامعات، بل يتشرّبها القلب في ميدان الكفاح وعلى طريق الجهاد، وطلابها ينالونها بالقتال في سبيل الله. . سبيل حرية الإنسان، إنهم «المجاهدون». .

إنك لكي تحصل في المشعر على هذه المعرفة فأنت لا تحتاج لضوء النهار، فهي معرفة تضيء بذاتها، فطبيعتها نورانية، وبها تستطيع أن تبصر في الظلام. . أي ظلام!!.

تخاف من ظلام المشعر الحرام. . لماذا؟ أليس معك الناس؟ ألست مع القافلة؟ ألست قطرة ذائبة في النهر البشري الأبيض الفياض؟ محلّكم على الصراط المستقيم؟

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾(٢).

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٩.

كم هو محرك للعواطف أن تبحث عن «السلاح»[(١)] في أرض الظلمة.. أرض الإحساس والشعور..

لماذا لا ننتظر حتى الصباح؟ ومن أجل من يكون الجهاد؟..

إنَّ الوقفة في المشعر الحرام من أجل أن تفكر وتخطط وتُقوي عزيمتك.. من أجل أن تجمع أسلحتك وتهيّىء نفسك لميدان القتال..

في ليلة الجهاد يجب أن تقوم بكل ذلك تحت جنح الظلام، ومن كمين خفي تنطلق إلى منى ففيها (دولة الطغيان)..

عليك أن تجمع أسلحتك في ظلمة الليل مستعيناً بنور الإحساس والشعور.. الإحساس المقدس الطاهر.. المشعر الحرام، وبالمعرفة التي اكتسبتها في نور عرفات..

عليك أن تنتظر الليل كله.. حتى تشرق الشمس، وترى نور الفجر والنصر والحب في منى.

ها هو الجيش العرمرم المزمجر الذي لا يعرف الراحة قد جمع الجمرات من أرض المشعر الصخرية، وها هو قد وقف على حدود منى والصمت مطبق على المكان، والكل متطلع إلى صحراء الحشر.. هذا الجمع الكبير.. كل القوافل والقبائل اجتمعت هنا.. إنه كيوم الحشر ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾[(٢)].

---

(١) يشير المؤلف إلى جمع حصى الجمرات من أرض المشعر الحرام.

(٢) سورة عبس، الآيات: ٣٤ ـ ٣٦.

لقد تركت نفسك وسوف تجدها هنا مرة ثانية؛ فحينما كنت في الميقات وأنت تحرم ذبت في محيط الناس.. في الطواف كنت محمولاً بهم.. بعد السعي وجدت نفسك في عرفات حيث غرقت في المحيط.. والآن قد وجدت نفسك للمرة الثانية في المشعر..

كل إنسان هنا وحده في هذا الجمع..

هنا تكتشف ذاتك بدون أصباغ ولا أقنعة ولا أستار.. عارٍ كما خُلقت أول مرة.. الليلة ستدخل في حديث ومناجاة مع الله تعالى.

أسفر عن نفسك.. اعترف بذنوبك.. لا تزيّف عاطفتك، وأفصح بوضوح عما تريد، فقد حانت اللحظة التي تطلق فيها ما احتبسته في جوفك كل هذه السنين، وتكسر كل الحواجز، وتتجاهل كل الحدود!..

إنك هنا وحدك وقد انضممت إلى المجموع، ومع المجموع انتهى بك الأمر أن تكون فرداً مرة ثانية.. الفردية التي ولّدتها من الغوص في المحيط البشري حتى تعثر على جوهرة نفسك، هي فردية رائعة، إنك مع الناس تتزاحمون، وفي الوقت ذاته أنت وحدك!

يا للروعة!

كن مع الناس ولا تكن معهم..

يا الله إني قصدت أرض المشعر الحرام! لا أجد خياماً ولا بيوتاً ولا أبواباً ولا شوارع ولا أبراجاً ولا مِعلماً.. إنها ليست مدينة!..

لا تضيع وقتك في البحث عن الأصدقاء أو عن القافلة. . فهنا كل منكم وحده. . هنا يبقى اثنان منكم معاً: أنت والليل!

إنك تشعر بالوحدة ضمن هذه الفردية المطلقة للبشر المسؤولين، ولا أحد يعرف الآخر، لكن لا تخف فالليل يغطيك مظهره. .

لا أحد ينظر إليك، ولا أحد يناديك بما تعودت أن تنادى به من قبل، حرّر نفسك وأتركها بين أيادي الليل: ماذا تراني أقول؟! . .

لقد غطى ليل المشعر الحرام الآفاق، وبدا كأنه شاشة من السماء. .

في هذا السكون غابة من النخيل يغمرها ضوء القمر. .

دع عينيك تبحثان، وقلبك الذي لا يعرف الراحة تحت وابل بحثهما يخفق ويرفرف كالفراش الولهان، ثم استشعر من عمق قلبك معنى أن تكون وحيداً في عمق هذه الصحراء الموحشة التي حكم عليك بالعيش فيها.

في عمق هذا الصمت الجليل يمكن أن تصغي إلى الله وتستمع إلى صوت أعظم مسجوني الأرض، وإمام الإنسانية الذي كان ينحني برأسه إلى بئر يبكي ويجأر بألم وحرقة في قلب هذه الصحاري(١).

في هذا الليل الغامض المهيب الأخّاذ كل شيء يبدو هادئاً في

---

(١) يشير إلى الإمام علي عليه السلام الذي كان يذهب إلى مقابر البقيع وينحني على بئر ويبكي.

أرض المشعر. . وفجأة يبدأ الطوفان الغازي المتدفق ـ من جند الإسلام ـ على الوادي فترتوي أرض المشعر والجبال المجاورة، ثم يعود السكون مرة أخرى تحت سقفه السماوي. .

* * *

جاء الليل إلى المشعر ولا أثر لضوء بعد. . هناك ضوء القمر، والنجوم المشعة ترسل أشعتها كأنها الرذاذ: تبرق وتضيء بخفوت في الصحراء.

إنَّ ليل المشعر بسمائه العلوية لهو شيء مجهول للذين عاشوا حياة المدينة وأفسدوا حياتهم بالبحث عن أعراض الدنيا وأطماعها. .

إنَّ لياليهم لجدّ مختلفة!

ليل المشعر الحرام هو ظلال الهجرة والجنة: نور القمر بارد وواضح مع ابتسامة حانية. . الله.

﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾[1].

إنه ليس كليالي المدن المليئة بالزحام والفسق. . حيث يستنشق الناس هواءاً ملوثاً نتناً، وحيث النجوم تبدو شاحبة مريضة.

إنها ليلة العاشر من ذي الحجة..

ها هو جيش التوحيد العرمرم وقد ضرب رجاله المجاهدون

---

(١) سورة الشمس، الآيات: ١ ـ ٦.

خيامهم فوق هذا الجبل. . هؤلاء الجنود المقاتلون في سبيل الحرية قد خرجوا تماماً عن هذا العالم الأرضي، وتولهت خواطرهم بالحب ناظرين إلى سماء المشعر. .

المحيط الأزرق متقلب مليء بالبللورات السماوية (النجوم) التي تظهر تباعاً في ذلك السقف القاتم وتفتح باباً إلى عالم آخر، كأنها ابتسامة الطبيعة اليتيمة تلاطف أهل هذا العالم الأرضي التعس.

القمر يتهادى مشرقاً من قمة الجبل ويضيء وادي المشعر. .

في الركن الآخر من السماء النجوم منهمكة في التعلق ببريق الثريا على أرض المشعر حتى تضيء الطريق الغامض الذي يتوجه نحو الأبدية. . هذا الطريق هو الذي يسمّى الطريق الأبيض أو «الطريق إلى مكة» أو «طريق علي»[(١)].

❊ ❊ ❊

كل هذه المعاني الجليلة الهامة اختفت من أفهام الأميين الذين يضحك عليهم «علماء الدين» الذين ما زالوا في مرحلة «المعرفة».

إنَّ حقائق هذه المناسك لهي أعظم وأعمق من التاريخ، إلاّ أن هذه الحقائق يتمّ تجاهلها لأنها غير ملموسة!

هؤلاء المؤرخون الذين يستوعبون ويسجلون الأحداث «الملموسة» لا يعلمون أنهم غضّوا الطرف عن هذه الحقائق، كما

---

(١) هذه الأسماء هي أسماء مستعارة في اللغة الفارسية، وسمي طريق علي لأنه يقال إن الأمام علي عليه السلام سلكه إلى مكة (عن الترجمة الإنجليزية).

لا يعلمون أنهم أضاعوا حياتهم وهم يسجلون حكايات فارغة وسمجة ومزيفة بصورة بغيضة، لا لشيء إلاً لأنها قد وقعت وهذا هو الهدف. .

انظر إلى سماء المشعر! ! . . انظر إلى إشعاع النجوم وهي تخترق قلب الليل. . إنها ملائكة الأمن في السماء. . كلما حاول الشياطين والمفسدون أن يسترقوا السمع ويتجسسوا في الخفاء من زاوية في الظلام سيصعقون بشهاب رصداً. . لماذا؟! حتى لا يتسنّى لشرير أو غريب أن يتجرّأ على انتهاك خصوصيتها المقدسة الجليلة. . لماذا؟! حتى لا يتسنّى لشرير أو غريب أن يعرف سرّ تآلفها. .

أنت أيها المنهمك في الزحام، المتفرّد في خصوصيتك مع الله! . . أيها الجندي المحب العابد في ليل المشعر. . الأسد في ميدان منى. . المقاتل في جيش الجهاد. . انتظر في مرحلة الشعور لتقاتل الشيطان في اليوم التالي.

ماذا أعددت؟ ارتدي كفنك، واحمل حجارتك (أسلحتك) بكلتا يديك. . لا شيء غير ذلك! ضع يديك تحت رأسك واقض ليلتك في نجوى مع الله. . وحدكما. . معك سلاحك وإيمانك. . دع هذا العالم السفلي، وتجاهل هذه الحدود. . حلقّ فوق هذه السماوات العليا، واعبر خلال أبواب النجوم، ولتعرج حيث عرج النبي محمدﷺ إذا كنت من الذين يتبعونه بإحسان(١) وليشتغل

(١) يقصد الإسراء والمعراج، وهنا المعراج.

قلبك بالعشق. . اقتل كل ضعف وخوف وعقد ورغبات كانت لك في حياتك، ولتتهيأ ليوم غدٍ بالاستعداد الليلة. .

أيها المخلوق الحر والجندي المحب، الأشرار ينتظرون في منى. . وطّن نفسك هذه الليلة على يوم قتال ضارٍ غداً. . في أرض الوعي والشعور، إملأ يديك بالسلاح واملأ قلبك بالعشق.

* * *

قد تسأل نفسك: ما الذي يفترض بي أن أراه أو أفعله هنا؟

الإجابة: لا شيء! إنك حرٌ في أن تغطس في المحيط البشري. . بإمكانك أن تقضي الليل كما تشاء. . حتى لو نمت فهذا لك! لكن فلتنصرف وأنت في قرارة نفسك تعلم أنك في أرض المشعر الحرام حيث لا شيء تراه؛ فكما اتفقنا من قبل: (ينبغي أن تكون العظمة في نظرتك لا فيما تراه). . لا جبر هنا.

إنَّ الذي يفترض أن تفعله يسمو على أن يكون واجباً بسيطاً إنه: التأمل. .

* * *

يا للروعة!!

مئات الآلاف من الأشخاص بلا أسماء ولا هوية شخصية، يجلسون على الأرض، يتأملون سماء المشعر المرصّع بالنجوم. .

هنا ستروي ظمأك بأمطار الإلهام الخفي الذي يتساقط من السماء. .

في عمق هذا الزحام تصغي إلى الصمت!

في عمق هذا المناخ المقدس لا شيء يشغل عقلك ابتداءاً. . كلا ولا حتى ذكر الله!! لأن الله يتجلى في كل ما حولك، يمكنك أن تستنشق عبيره كما تستنشق عبير الزهرة، وتستشعر حضوره بكل حواسك: في عينيك وفي أذنيك وفي قلبك وفي نخاع عظامك. .

ما الذي قيل؟!

إنك لتستشعره في جلدك فهو الشغل الشاغل والحب الأبدي.

* * *

إقضِ الليل في المشعر تتأمل. .! عساك تبلغ اكتشاف نفسك.

في ظلمة الليل حاول أن تعثر على أسلحتك استعداداً ليوم غد. .

يا له من منظر بديع! وصل الجيش لتوه من عرفات، ثم انطلق مسرعاً يصعد الجبال ليجمع أسلحته. . إنه جيش التوحيد. .

لم تبق إلاّ مرتبة واحدة هي الصلة المباشرة بالله وليس بأحد غيره. .

إنَّ الألقاب والرتب تمنح هنا على أساس ذاتي: الذات اليوم، والذات أمس، والذات في أي وقت. . وليس على أساس أسماء الأعلام أو أساس اختياري شخصي. .

أخيراً: إن إبراهيم هو قائد هذا الجيش التوحيدي.

* * *

على سفوح الجبال وفي ظلمة الليل إجمعوا أسلحتكم مجتمعين، على أن يحمل كل منكم في قلبه أنه مسؤول عن نفسه.

المرحلة المقبلة هي منى «ميدان المعركة» التي ستقع غداً.. إنه يوم الفداء في زمن الجهاد.

أسلحتك يجب أن تُعدّها وتستجمعها في ظلمة الليل، إلاَّ أن القتال يدور في رابعة النهار.

إنَّ هذا المحيط البشري يبدو هائجاً لا يعرف طعم الراحة.. إنهم يتفكرون ويهيئون أنفسهم للجهاد.

آلاف الأشباح الغامضة: كلهم إخوانك وأخواتك جنود هذا المحيط البشري، كل منكم يعرف أخاه حق المعرفة، إلاَّ أنه لا يستطيع أن يميّز أخاه أو أخته. كلهم ذات الشيء.

في ظلمة المشعر الحرام كل واحد يعمل في جد واجتهاد منحنياً على الأرض الصخرية يبحث عن «الجمرات» التي ترمى في ميدان المعركة بمنى.

الجمرة: هي حصاة من نوع خاص. لهذا لا بدَّ أن تكون حذراً! الظلام يحيط بك ويصعب الحصول على الحصى.

في كل واحدة حاول الحصول على الحجم السليم.

يجب عليك اتباع المواصفات وأنت تختار. المسألة مضبوطة، اتحد مع الناس واجلس قربهم، واستشعر مسؤوليتك كاملة.. إن الأمر جدّي.

الجمرات سوف تستخدم كأسلحة في قتل عدوك.

اختر منها ما تجده أملساً ولامعاً ومستديراً وما يكون أصغر من حبة البندق وأكبر من حبة الحمّص،.

إلى ماذا ترمز هذه الجمرة؟

إنها تمثل الرصاصة.

* * *

كل شيء يعمل ويقوّم بحذر..

كل جندي في جيش إبراهيم عليه أن يطلق سبعين رصاصة على العدو في منى..

ينبغي أن ترمي في رأس العدو وجسده وقلبه..

إذا لم تكن خبيراً فاختر لك رصاصاً أكثر لتعوّض ضعف مهارتك..

مهما يكن الأمر يجب أن تكون عدتك كاملة لخط المواجهة.

إذا أطلقت عدداً أقل من الرصاص ولو بواحدة انتقصت جنديتك، وانتقص حجك.

* * *

في هذا الجيش تعوّد على احترام الأوامر، وتذكر أنك يجب أن تبقى في منى ثلاثة أيام: العاشر والحادي عشر والثاني عشر.

تأكد أنك لم تفقد طلقاتك؛ لأنها وسيلتك الوحيدة التي تعتمد عليها في محاربة العدو.

كلها تصرّفات عسكرية . .

الوقائع والأفعال في أهمية النتائج التي تهدف إليها: إن المنظر هو ميدان قتال وليس دير عبادة! . . الأوامر بسيطة ودقيقة ومضبوطة وقاطعة ولا يمكن تجنبها ولا تحتاج إلى تفسير نظري وفلسفي.

هذه أفعال لا صلة لها بدعاء ولا بشفاعة ولا بتبتّل ولا بابتهال . .

إنها تصرفات ظاهرة المغزى والنتائج.

* * *

الطاعة المطلقة التي لا يشوبها أي التباس تميّز هذا الفصل.

لا شيء، ولا أحد يمكن أن يحلّ محل الآخر في هذه اللحظات.

لن تقبل أعذار من أحد . .

تذكر أن هذه الجبال لا سلطان لأحد عليها . . حتى إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام إذا رميا طلقات أقل من العدد المطلوب فإن حجهما سيظل ناقصاً!

ما الذي يشير إليه ذلك؟

إذا اقترفت خطأ ستعاقب . . هنا لا مكان للتفاهم أو الرشوة.

* * *

في اليوم الأول ستهاجم مرة واحدة، وسترمي سبع رصاصات . .

سيكون مجموع ما ترميه تسعاً وأربعين أثناء هذه الأيام الثلاثة.

في اليوم الرابع لك الخيار في أن تبقى في منى أو مغادرتها..

إذا بقيت عليك أن تواصل الهجوم وتتصرف بالأسلوب نفسه في اليوم الثاني والثالث؛ وفي هذه الحالة ستحتاج ـ على الأقل ـ إلى سبعين رصاصة..

(منى) هي جبهة القتال، فلا راحة لأحد فيها.. إذا بقيت فلا بدَّ أن تقاتل.

بمجرد أن يستجمع كل جندي أسلحته يتبدّل المناخ العسكري فجأة، ويعبق الجو مناخ روحي.

لا مزيد للحديث عن السلاح والقتال والانضباط والطاعة والانقياد.. بدلاً من ذلك فإن كل حديث يدور سيكون عن السلام والحب والتسامي بالروح إلى السماء.

إنَّ زئير الأسود المنتفضة قد استحال أنيناً مكتوماً مبعثه الشوق وانكسار المعصية (كما كان يعقوب عليه السلام جزعاً حتى الموت لفراق يوسف) أصوات الرصاص المتراشق حل محله سكون تسمع معه همس الناس ومعراجهم نحو السماء ومناجاتهم مع الله، وها قد انتصف الليل.

* * *

يا له من منظر رائع!

لقد شهد ليل المشعر في بدايته صيحات جيش مهيب جبار ينسج خيوط خطة هجوم كاسحة سيفجرها في الغد!.. ثم ماذا؟!

إنَّ البحر الصافي الخالي من الأمواج.. المنبسط تحت نور القمر وضوء النجوم التي ترسل عليها وابل من سكب شعاعها فينعكس كل ذلك سماء تتبدى في هذه الأرض.. إنها أرض ملائكة الرحمة والجمال.

كل شخص يستشعر دهشة في أعماقه وهو صامت.. يبدون كأن على رؤوسهم الطير.

إنَّ الإنسان ليسمع صوت الدمع وهو يتقطر على الأرض من أعين هؤلاء الباكين الأطهار..

لا صوت يجرؤ على كسر الصمت في ليل المشعر إلاَّ صوت خفقان القلوب النابضة بالحب..

* * *

المشعر الحرام هو معسكر لجيش عالمي.. وكل جندي فيه هو قائد أيضاً.

إنهم لا يشربون[١].. إنما يتمتعون ويتسلّون فقط بالاستعداد للقتال في اليوم التالي، بل ويحتفلون بانتصارهم مسبقاً في ليلة

(١) في معظم الجيوش وفي الأعياد يشرب الجنود والناس الخمر بأنواعها وهو يشير إلى ذلك.

العيد! وكلهم مستغرق في الحب والتواضع والصمت.

إنهم يواجهون المستقبل وقد حفّ بهم الرجاء والطمع والتطلع إلى جبهة الخلود، ليرووا ظمأهم بوابل الإلهام، ولتصفو روحهم بالعبادة، ولتثبت نفوسهم بالدعاء.

لماذا كل هذا؟!

لأنّ يومِ غد سيكون يوم قتال ضارٍ، لعلهم ينالون شرف الشهادة (وسام الشهادة) من يد القائد الأعلى.. الله سبحانه.

* * *

يا للغرابة!!

جنود المشعر الحرام ينتظرون يوم القتال الذي يزحف مقترباً منهم رويداً رويداً، وقد ملأوا أيديهم بالسلاح.. وشفاههم بالدعاء.

لقد تنفست نسائم الفجر، وبدت في حركة غامضة داخل المعسكر متزامنة مع صوت الأذان المتناغم الذي غطى كل ناحية.. الصدى يبث الأذان في كل مكان.. كأنما يصل إلى الأفق البعيد.

مئات الآلاف من الكائنات تنحني وتسجد في غلس الفجر، وعبير الأذان ينساب في هدوء عبر أرض التوحيد، حيث لا شيء يعكر صفو الوحدانية الجليلة..

لقد جاء أوان صلاة الصبح التي تؤديها أول كل يوم، لكن هذه المرة هناك فرق..

إنه المناخ الذي تؤديها فيه.

الصمت يطبق على المشعر كأنما الجميع نيام.

لقد مرَّ الليل عبر الجبال وتسرب عبر هؤلاء الذين ناموا في ليل المشعر الحرام، ثم اختفوا فهم في طريقهم إلى منى..

والآن أشرقت الشمس.

* * *

منى

عند منى تقف «الوقفة» الأخيرة الطويلة . .

منى هي رمز الأمل والمثال . . والحب .

الحب هو الفصل الخاتم الذي يجيء عقب المعرفة والوعي .

لم يستطع (دانتي)(١) في استلهامه للغنوصية الشرقية(٢) في كتابه «الكوميديا الإلهية» أن يتعرّف إلاً على مرحلتين :

* الحكمة (فيرجيليوس) .

* والحب (بياتريس) .

---

(١) دانتي : (١٢٦٥ ـ ١٣٢١) أعظم شعراء إيطاليا، ومن رجالات الأدب العالمي . خلّد اسمه بملحمته الشعرية «الكوميديا الإلهيّة» وصف فيها طبقات الجحيم والمطهر والفردوس في سفرة وهمية قام بها بقيادة فرجيليوس وحبيبته بياتريس .

(٢) الغنوصية هي منهاج المسيحيين الأوائل الذين اتخذوا طريق القلب والعبادة في معراجهم إلى الله بدلاً من طريق العقل الذي كان منهج الفلاسفة . «المصحح» .

لكن أثناء الدراما الإلهية للحج تتواجد ثلاثة فصول هي :

* المعرفة .

* الوعي .

* الحب .

لقد حانت ساعة الجمع العظمى في اليوم العاشر، حيث يقع عليه الغداء .

ضوء شمس الصباح المنبعثة للشروق يوقظ الناس من سباتهم. وها هم يتجمعون فوجاً إثر فوج، رويداً رويداً من كل اتجاه، مكونين هذا النهر البشري العظيم .

لقد انتظم الآن الجيش القوي، وتهيأ لمغادرة المشعر الحرام إلى الوقوف التالي بمنى .

لقد استنفذ جيش التوحيد وقتاً طويلاً في جمع أسلحته، ويناجي الله وينتظر شروق الشمس[١] بفارغ الصبر :

﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[٢] .

الجيش يتجه الآن ناحية الغرب حيث «منى» أرض «الله» وموقع «الشيطان» ولم تدع ابتسامة شمس العيد لأحد من راحة . .

---

(١) لا يستطيع أحد مغادرة المشعر الحرام قبل مشرق الشمس، حيث يبدأ الهجوم عند حدود منى .

(٢) سورة الفتح، الآية : ٢٩.

الجنود يمرّون الآن عبر الشريط الضيق الذي يحمل اسم وادي «محسر». .

شريط ضيق يجعل الصف أكثر تماسكاً، والشمس تقوم بدور القائد الأعلى وتأمر الجند:

مكانك سر. . هجوم. . خطوة معتادة. . خطوة سريعة!

أولئك الذين كانوا في حالة تأمل وسكون بالمشعر يتحولون ـ فجأة ـ إلى حالة من الحركة والقلق وهم يندفعون نحو «منى».

ثم ـ فجأة وبلا مقدمات ـ يتوقف الجيش كله كأنما انتصب أمامه سد منيع يستعصى اختراقه. . لقد تراجع الجيش وكأنه لا يستطيع أن يخطو خطوة للأمام.

هناك فقط على مشارف النهاية في الزحام قليل من الحركة. . ماذا حدث؟! من ذا الذي يستطيع أن يصدر هذا الأمر بالتوقف؟!

إنه مشرق الشمس!!. . الشمس هي القائد.

* * *

الآن يقف الجيش على جبهة «منى». .

الملايين من جنود الحرية الذين يرفضون الخضوع لأية قوة سوى الله، يتزاحمون في هذه الصفوف الطويلة. .

هنا يوجد الخط المفترض الذي لا يجرؤ أحد على تجاوزه خطوة واحدة. . إنه الحاجز الخفي الذي يفصل المشعر عن منى.

لا أحد ولا قوة تستطيع أن تخرق جدار الأمن ولو كان إبراهيم عليه السلام أو محمد ﷺ .

هذا الضابط ليس فريضة ولا واجب، ولكنه «سُنّة» وهو الدرجة ذاتها التي وضع الله تعالى مرتبتها لحكم نظام الكون كله :

﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[١] .

* * *

كما تسري القوة الطبيعية لقانون الجاذبية، وكما ترى الموت والحياة حقيقة واقعة . . كذلك فإن الشمس هنا هي «القائد» . .

دعها تشرق فأشعتها سوف تخرق الجدار وتفتح الطريق للجيش حتى يعبر ببساطة مثلما يأتي الضوء على الظل فيمحوه! . .

الجدار المنيع الذي أوقف الجيش سيتحطم بعد قليل حينما تشرق ابتسامة النهار . .

خلف الحاجز الخفي ينتظر الجيش وهو يتململ بعدّته وذخيرته . . ينتظر الليل كله حتى تشرق الشمس مصدرة الأمر بالعبور .

* * *

انسلخ الليل وانتشرت أشعة الضوء غامرة المكان، لكن ما تزال هناك بضع لحظات حتى تظهر الشمس جلية في الشرق .

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٤٣.

لا يوجد في أي مكان على وجه الأرض، وفي أي وقت من الأوقات، وعبر أي مجتمع من المجتمعات ما لمشرق الشمس مثل ما لديها هنا من سلطان!.

في حالة من الصمت الرهيب المهيب المثير ملايين الأفئدة والعيون والأبدان تشرئب بأعناقها منتظرة صدور الأمر (لترى مشرق الشمس).. إن البعض من شدّة قلقه واندفاعه ليسمع الأمر قبل صدوره!.. لماذا؟!

إنه أمر يصدر للجيش الذي يرمز إلى سلطان التوحيد في الأرض.

هنا تجد الجيش الوحيد عبر التاريخ الذي يأتمر بأمر الشمس، والأمة الوحيدة التي رضيت بأن تحكم بتوقيت الشمس والفجر.

هناك بعرفات أشرقت الشمس وصعدت أعلى الجبال وأطلت من خلفها.. سبق للفجر أن حطم بناء شيطان الظلام الهش:

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾[1].

وتدافعت أمام فجر العيد دماء كل الذين استشهدوا بأيدي الطغاة.. في هذا المكان المشمس تأمر جيش التوحيد بالثأر والهجوم على جذور الطغيان الثلاثة[2] الضاربة في عمق التاريخ.

❊ ❊ ❊

---

(١) سورة الفلق، الآية: ٣.

(٢) في الفصل الآتي يرد شرح وافٍ لمعنى رموز الطغيان الثلاثة، وكذا فصل: «الأصنام الثلاثة رموز التثليث».

يا لها من لحظة رائعة!

الشمس ترسل ضياءها، والشفق يعبر بأشعته النافذة، والصبح تنفست نسائمه . . كل ذلك يجعل كل إنسان يهتزّ بلا راحة.

إنها «آيات الله المقدسة» التي تجسد السعادة والأمل والإيمان . . تتجلى وتعطي أمرها بالقتال والاستمساك بقوة النصر . . إنها تأمرك بتحطيم الأصنام.

اليوم لن تبقى لأكبر قواعد الشيطان في الأرض بقية . .

واليوم سيقتل الشرك، وسيعلو التوحيد ويحلّق ناشراً لواءه المضيء، معلناً عن جوهره الحق.

❊ ❊ ❊

فجأة أسفر ضوء الشمس عن الصراط المستقيم، وأصدر الأمر للجنود بالعبور . .

ها هي صيحات البهجة تتعالى، وأشعة الشمس وأطياف الجند تتحد وتتدفق عبر مضيق منى . .

لم يعد الجمع المتزاحم يتألف من «حمامات السلام البيضاء» ولكن تبدل ليكون «صقور الحرية المسلمين» ولهذا فلا بدَّ للأوامر أن تطاع ولا بدَّ للنظام أن يسري:

إقض الليل بالمشعر الحرام

أدخل في اليوم العاشر إلى منى

❊ ❊ ❊

في الفجر يجب أن تكون على مشارف منى لتعبر تلك الحدود وتنضم للجمع وتشاهد شمس اليوم العاشر.

منى تقع باتجاه الغرب، بينما عرفات يقوم إلى الشرق، والجيش يقف قبالة منى، والشمس تشرق من خلف الجند وتعبر جبال عرفات وتدخل إلى مضيق منى؛ لهذا فالشمس أيضاً تؤدي مناسك الحج: تشرق في عرفات.. تعبر المشعر الحرام.. ثم تدخل منى!!

جيش الحب مستعد للجهاد، ومقاتلو الحرية الذين جاءوا من عرفات وأمضوا الليل في المشعر الحرام يجمعون أسلحتهم، ويزدادون إيماناً ويلتزمون بالواجب منتظرين على أبواب منى.. أين؟! على حدود المدينة.. إنها مركز الاستشهاد. وفي الوقت ذاته ميدان المعركة.

انتظر الشمس.. وأطعها!.. كيف؟!

أعد نفسك..

* اجمع أسلحتك في الليل

* لا تدخل منى قبل مشرق الشمس. إذ إن الليل هو الوقت الذي جُعل للوقوف عند المشعر الحرام.

* لا تبقى في المشعر الحرام بعد مشرق الشمس، لأنّ النهار هو وقت العمل الموقوت في منى.

* إبدأ هجومك مع مشرق الشمس.

مشرق أي شمس؟. . شمس اليوم العاشر من ذي الحجة. . شمس العيد.

يا الله!!. . إنها المسافة بين حدود منى حتى قاعدة الشيطان. . ميدان المعركة عند مدخل منى. .

مهما يكن من أمرٍ فإنّ الاحتفال بالعيد يأتي - بالطبع - بعد أن تهزم الأشرار وترمي عليهم الجمرات وتنال النصر.

لكن. . انظر إلى أمة التوحيد وتقاليدها: إنها تحتفل بالعيد قبل أن تبدأ المعركة، هذا يعني أنك منتصر بمجرد أن تتخذ قرارك[١]. .

هذا يعني أنك كسبت المعركة منذ أن دخلت حدود منى. .

[ماذا؟. . ما الذي يقال؟. . يا إلهي! ما أصعب أن تفهم هذه الأمة البسيطة. . ما أعقد هؤلاء البشر الذين لا يأبهون بشيء ويمضون في سهولة ويسر!]

هذا يعني أنك منتصر إن كان هذا هو الوقت!. . أي وقت؟!

إذا كنت قادماً من عرفات. .

---

(١) الغريب أن الدكتور هشام شرابي وهو مفكر وضعي يقول: (إن التحرير عملية تبدأ في اللحظة التي يبدأ فيها الصراع وليس مجرد هدف نصل إليه عندما ينتهي، فالانتصار هو الانتصار الذي يتحقق قبل أن يصل الصراع إلى منتهاه وتتحقق أهدافه، وكل حركة تحرير تفشل حتى لو انتصرت إن لم تحقق الانتصار السابق الذي يكون هو شرط انتصارها الأخير. هذا هو معنى التحرير الحقيقي والثورة الحقيقية).
راجع البنية البطريركية - دار الطليعة - ص ١٠، ١١ الطبعة الأولى.

إذا كنت موجوداً بالمشعر الحرام متفكراً. . تجمع أسلحتك لفجر العيد.

* * *

كلا! كلا!. .

إنَّ أهم الشروط لم يفصح عنها بعد. .

هذا الحج كالطبيعة، إنه الإسلام، لكنه يبيّن ليس بالكلمة، بل بالحركة إنها ظاهرة متشابهة.

كلما غصت فيه، فلن تصل النهاية، إنه لا نهاية له، إن معناه بمقدار ما تدرك. وكل شخص يدّعي أنه استوعب الإسلام كله لم يفهم منه شيء. إن الشروط الأهم لم ترد بعد. . إذا جئت إلى الميقات، وارتديت ثياب الإحرام. .

ما الذي قيل؟. . من أنت؟. . من أنا؟

إن الفرد وحده لا يستطيع أن يقوم بشيء. .

القرآن الكريم يتحدث عن «الناس» لا عن الفرد.

الناس!. . يا لها من كلمة جميلة تلك التي جاءت في القرآن. . إنها دائماً بصيغة الجمع؛ إذ لا مفرد لها. .

«يد الله مع الجماعة»

إنَّ كل ما يصوّره الله سبحانه وتعالى في هذا العالم من حركة وكمال وخلافة الله في الطبيعة ونصر. . كلها مكتوبة ومرتبطة بأقدار الناس.

إنَّ سُنّة الله التي لن تجد لها تبديلاً هي قوانين تحكم حركة الجماعات والمجتمعات عموماً، وأقدار التاريخ تسير باتجاه تحقيق سنن الله هذه، والذي نستطيع أن نفعله «أنا» و «أنت» هو أن نكتشف هذه السنن، ثم نسير وفقاً لها لتحقيق أقدار الله في التاريخ . . .

وإرادة الله تعالى في الزمن المحدد لها هي محصلة حياة الإنسان ونهاية الثورة الدائمة من أجل سلام الكون.

ألم يقل الله ـ رب إبراهيم وخالق الإنسان ـ في القرآن الكريم:

﴿. . أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾[1].

وهو الذي وعد بقوله:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[2].

إنَّ «الاستضعاف» يشمل كل ما من شأنه أن يضعف أو يعادي الإنسانية، وهو الذي يحطم طاقات الإنسان المادية والمعنوية، وهذه الكلمة هي الكلمة الجامعة لكل وسيلة يسخّرها أعداء الإنسانية: استعمار. استبداد. استعباد. استحمار. .

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥.

(٢) سورة القصص، الآية: ٥.

استغلال. . أو أي مصطلح يمكن أن يطرأ في المستقبل! . .

دعهم يقولون ما يحلو لهم، فقد سبق وعد الله أنه سبحانه سينجي ضحايا القهر ويحرّرهم، بل إنه سبحانه أعطاهم امتياز قيادة المجتمع البشري في المستقبل. . نعم! هذه الطبقة من البشر ـ المحرومة من حقوقها دائماً ـ سوف ترث قصور الحكام وثروات الأموال وكنوز العلم!

يا ترى ما العلاقة بين كلمة «المستضعفين» ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وبين كلمة «معذبو الأرض» التي اختارها «فرانز فانون»[١] عنواناً لكتابه المشهور؟

يقول في الكتاب: (في يوم العدل سيقوم عمّال الله بالتفريق بين نوعين من الناس:

* الذين استُغِلُّوا، وهؤلاء سيدخلون الجنة.

* والذين استَغَلُّوا. . وهؤلاء سيدخلون جهنم)[٢].

وحتى في الدنيا يتفق المؤمنون وأتباع المذاهب الشيطانية على تقسيم الناس قسمين:

* الذين سيدخلون الجنة.

---

(١) فرانز فانون: طبيب أمراض عقلية من جزر المارتنيك، عمل مديراً لمستشفى «بليدة» بالجزائر من قبل الإدارة الاستعمارية الفرنسية، ثم استقال من عمله وانضم لصفوف الثورة الجزائرية مقاتلاً ومنظراً للثورة في إفريقيا عامة وفي الجزائر خاصة، حتى قضى نحبه. . راجع كتاب «فرانز فانون ودوره في الثورة الجزائرية» للأستاذ محمد الميلي.

(٢) Les Damnés de la terrc. Par Frantz Fanon

* والذين سيعذبون.

وكذلك قال «جان بول سارتر»[١] في إحدى افتتاحيات كتبه: (من مجموع سكان الكرة الأرضية البالغ بليونين، يؤمن الاستعماريون أن خمسمئة مليون فقط يمثلون الإنسانية، بينما يعتبرون البليون والنصف الباقي مجرد رعايا أو مجموعة لا امتيازات لها تشكل ما يسمى بـ : العالم الثالث).

إذا كان مصير التاريخ وقدر الله قد قرر أن النصر سوف يكون حليف «المستضعفين» أولئك الذين «لا حول لهم ولا قوة» من سلالة هابيل..

وإذا كانت سنن الله لن تتبدل، وهي التي تحكم مصير التاريخ ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[٢].

ماذا يفترض أن تكون عليه أنت؟.

إنَّ شأنك شأن كل مظاهر خلق الله.. عليك أن تكتشف هذه السنن وتختار قدرك!، فكما أن للطبيعة التي حولك مآل ومصير، وللتاريخ مآل ومصير، فإن لك أنت أيضاً مآل ومصير.

أنت نزيل في أربعة سجون تحتويك: سجن الطبيعة

---

(١) جان بول سارتر (١٩٠٥ ـ ١٩٨٠): فيلسوف وكاتب فرنسي من روّاد الوجودية المتشائمة، قال إن الوجود متقدم على الذات أو الماهية، وإن الإنسان مطلق الحرية في الاختيار. رفض جائزة نوبل ١٩٦٤. (المصحح).

(٢) وردت في أكثر من سورة: الأحزاب: ٦٢، فاطر: ٤٣، الفتح: ٢٣.

(الدنيا)[١] . . وسجن التاريخ . . وسجن المجتمع . . وسجن ذاتك .

بالعلم تستطيع أن تعرف مصير الطبيعة (الدنيا) إذا تعلمت علومها، وبالرضا والقناعة تحرّر نفسك من سجنها .

وبالعلم يمكن أن تكتشف التاريخ (بدراسة فلسفة التاريخ ووقائعه) وبالرضا والقناعة تغيّر تاريخك .

وبالعلم عليك أن تكتشف مجتمعك (بدراسة علم الاجتماع) وتتعرف على قوانينه، وأعرافه، وعاداته، وبذلك يتمّ لك تحرير نفسك .

لتتجاوز هذه السجون الثلاثة، فأنت تحتاج «للمعرفة» . .

لكن ماذا عن السجن الرابع؟ سجن الغرائز البشرية؟!

إنه السجن الوحيد الذي تحمله داخلك .

إنَّ العلوم لتعجز عن تحريرك من هذا السجن؛ إذ إنه قابع داخلك رابض في ثنايا جسدك، كامن في نفسك «العارفة» . .

إنه يتطلب «معرفة» خاصة حتى تقوم بتقديم نفسك إلى ذاتك! وحتى تساعد «نفسك» على اكتشاف «ذاتك» .

إنك بحاجة إلى قوة تعينك على الانتصار على ضعفك . . أن تتمرد ضد ذاتك، إنك تحتاج إلى يد قوية تساعدك وتغيرك .

---

(١) يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» .

المعرفة هنا ـ في هذا السجن الرابع ـ لا تصلح علاجاً، لأنها هي نفسها سجينة داخل «العارف»!

هناك أنماط أخرى من المعرفة حمل مشاعلها الأنبياء هي: الحكمة، والوعي، والإيمان.

إنها أنماط المعرفة التي تضيء لك الطريق وتيسّر لك السبيل لاكتشاف نفسك، وتُعَرف السجين الذي يقوم في داخلك..

القوة التي ستحررك من داخلك ـ من عبادة الذات ـ ليست هي العلوم المسخرة، وإنما هي فن الحب والتراحم..

إنَّ الحب والتراحم هو الذي يمكّنك من تقديم حياتك شهيداً إذا كنت تشعر أنها سجنك، بل وتضحّي بإسماعيل بيديك ـ وهو فعل يتجاوز ويفوق الشهادة ـ إذا كنت تشعر أنه يقف في طريقك.

إذاً يمكننا أن نستخلص: أنك تستطيع أن تحرر نفسك من السجون الأربعة بـ «الحب والتراحم» فهي تلك المعرفة التي تزوّدك بدرجة من الوعي والابداع، تجعلك تبني نفسك لتبلغ بها أمر الله؛ وحتى لا تكون مجرد عبد للدنيا.

الإنسان هو ذلك المخلوق الذي هبط إلى الأرض وحيداً..

أنت إذاً ظاهرة حية، وعليك أن تبني طبيعتك الخاصة بك.

إنك «الصفر» أو «اللاشيء» الذي يستطيع أن يصبح «كل شيء»..

إنك «شك» أو «ممكن» يلبس شكل إنسان!..

إذا اخترت أن تكون إنساناً فعليك أن تكتشف فطرتك «الإيمان» وبه تستطيع أن تحرّر نفسك، وأن تجد أقدار الله في التاريخ، وأن تدرك أن التاريخ هو قدر الإنسان عبر الدهور، كما تدرك أنه ـ وبذات الدرجة ـ رحلتك من الصفر إلى الله تعالى، ومن «الواحد» لـ : «اللاشيء» تبدأ معرفتك بالإنسان وقيمه، وبذلك تعتنق الإنسانية ذلك النهر اللانهائي ذو التيار الخالد.

إنَّ سيادة الليل في «المشعر الحرام»، وطغيان الأصنام الثلاثة في «منى» لن يستطيعا أن يغيّرا أو أن ينحرفا بالمسار المتقدم لهذا القدر. . إنه قدر الله.

تفاصيل قدرك سيكتبها الآخرون إذا كنت «لا تعرف» وتكتبها أنت إذا كنت «تعرف». . وأنت أيها «الصفر» الذي صرت «واعياً» و «حرّاً» إذا جئت إلى الميقات في الزمن المحدد، وأدركت طريقك الطبيعي واتبعته ـ قدر آدم عليه السلام ـ فسوف تكون عندئذ على الطريق القويم وعلى الصراط المستقيم.

أنت تذهب من بيتك إلى الكعبة. .

أو من الطين إلى الله. . الكون خاضع لسلطان الله ومشيئته، ومحكوم بقدره وعلمه، وأنت واقف على شاطئ هذا «النهر» لك الخيار أن تقرر البقاء على الضفة لتموت، أو أن تدخل إلى نهر الناس لتتحرك.

ألا يمكن أن تدرك ما عناه الإمام جعفر الصادق عليه السلام حين قال: «إنها ليست تخييراً مطلقاً، كما أنها ليست جبراً مطلقاً،

ولكنها منزلة بين المنزلتين أو أنها جمع بينهما» . .

إنها حرية أن تختار قدرك : التسليم + الطاعة = الإسلام .

* * *

هذا الطوفان البشري يتدفق عبر حدود منى ، ويهزم إبليس في أرضه . . في اللحظة ذاتها التي ينهزم فيها الشيطان ؛ ترفع شمس اليوم العاشر رايات النصر . .

مع ابتسامة الشمس الأولى تصدر إشارة العبور وأوامر بدء الهجوم لتبدأ المعركة ، وفي اللحظة ذاتها تعلن الشمسُ النصرَ وإنجازَ المهمة .

هذا هو قدر التاريخ ومشيئة الله للناس .

كل ذلك في يديك وخاضع لإرادتك . .

ولكن ما هو الشرط الأهم الذي يجعلك منتصراً ـ إذا انضممت إلى هذا الطوفان البشري ـ مع هؤلاء الناس الذين عزموا على القربى إلى الله «الأمة» . . «المجتمع المتحرك اللانهائي» «بذلك النهر المتدفق الفياض كالإعصار الذي يخترق أية صخرة أو سدٍّ ماضياً حتى يلقى البحر ، ولا رادَّ لمسيرته؟ !» .

إنَّ الشرط هو ألاّ تتوقف على الطريق من المشعر الحرام إلى منى ، ولا تخطىء الطريق سالكاً طريقاً آخر غير طريق الناس . .

عليك إذاً أن تبقى مع الناس ، فإذا فعلت ، فستصل إلى منى وستهزم الشيطان ، وستضحّي بإسماعيلك . .

هذا هو أمر الله المبين لكل هؤلاء الذين جاءوا إلى الحج:

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾[١].

ها هو جيش التوحيد يدخل وادي منى.. ميدان القتال، مزوداً بسلاحه الكامل وعزيمته الكاملة.

* * *

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٩.

جبهة القتال ـ رمي الجمرات

تنتصب القواعد الثلاثة على طول شارع الملك. . تفصل بينها عدة مئات من الأمتار. . يمثل كل منها: أثراً أو تمثالاً أو صنماً. . كل عام تُطلى وجوههم باللون الأبيض.

«الله أكبر» يا لها من عبارة فياضة بالمعاني. .

لقد وصل الجيش. . الكل مزوّد بالسلاح «الجمرات» ومستعد لإطلاق النار.

عندما تصل إلى الجمرة الأولى لا ترمي، ولكن أعبر!. .

وعندما تصل إلى الجمرة الوسطى لا ترمي، ولكن أعبر أيضاً!!. .

وعندما تصل إلى الصنم الثالث حيث «جمرة العقبة» لا تعبر، ولكن ارم!. .

لماذا؟!

إنَّ القادة المخضرمين من ذوي الحنكة والتجربة عادة يوجهونها نحو السير بالتدريج وبطريقة تصاعدية وبكل هدوء على طرق متوالية . .

لكن القائد هنا هو إبراهيم عليه السلام وأوامره هي :

ـ «اضرب الأخير في هجومك الأول»!

ـ «هل رميت؟»

ـ «نعم» .

ـ «كم رميت؟» . .

ـ «سبع مرات» .

ـ «هل أنت واثق أنها أصابت الهدف؟» .

ـ «نعم واثق» .

ـ «هل ضربته في البطن أم على الأقدام؟» .

ـ «كلا . . لا هذا ولا ذاك» .

ـ «هل ضربته من الخلف؟» .

ـ «كلا» .

ـ «هل رميته في الرأس والوجه؟» .

ـ «نعم فعلت» .

ـ «نِعْمَ ما فعلت» .

لقد انتهت المعركة . .

عندما يسقط الأخير، فلا سبيل لأن يقاوم الأول والثاني . .

إنَّ الصنم الأخير هو الذي يدعم الصنمين الأول والثاني . .

* * *

بعد أن تغادر جبهة القتال فلن تفعل شيئاً آخر غير تقديم الفداء، وعندئذ فقط لك أن تحتفل بانتصارك وتعلن عنه: إحلق شعر رأسك، واخلع إن شئت لباس الإحرام، والبس ما شئت من الثياب . .

أنت حر الآن . . أنت إنسان! ؛ لقد هزمت (منى) وانتصرت على الشيطان.

ما الذي أقوله؟.

إنك إبراهيم الآن . .

إنك في مقام التضحية بإسماعيلك في سبيله تعالى.

* * *

القربان

بعد أن ترمي الصنم الأخير تقدّم مباشرة بالأضحية.

إنَّ هذه الأصنام الثلاثة تجسيد للثالوث ورمز للمراحل الشيطانية الثلاث..

دائماً كن يقظاً وأنت تراقب نيتك منتبهاً لمقاصدها..

يجب أن تعرف ما الذي تفعله؟ ولماذا تفعله؟!

❊ ❊ ❊

هذه الشعائر يجب ألاّ تشغلك عن استشراف هدفك من ورائها؛ إنما هي «إشارات» و «رموز» ولذا ينبغي أن تكون فطناً لما ينبغي أن تراه..

هذه الاجراءات والفنون والأشكال لا تدعها تلتبس عليك وتربكك ويشكل عليك أمرها.. المعاني هي التي ينبغي استشعارها لا الأشكال.

❊ ❊ ❊

«**إن الحج شعائر وليس مناسك**».

أثناء الحج كل فعل لا يُبدأ إلاَّ ويُسبق بالنية؛ فكل فعل بلا نية باطل ولا يقبل . .

النية أيضاً تسبق فريضة الصيام، وإذا نسيت أن تنطق بها فأنت تستيقنها على نحو ما، هذا أيضاً ينطبق على الجهاد، وإذا لم تكن لك نية فأنت لم تصبح بعد جندياً مقاتلاً . .

في الحج أعمالك لا طائل من ورائها بلا نية؛ إذ إن هذه المراسم «إشارات» و «رموز» و «علامات» . .

فالذي يضع جبهته على الأرض دون أن يعي معنى السجود، فهو لا يعدو أن يكون ماساً للتراب بجسده، والذي لا يدري جوهر الحج يعود من «مكة» بحقيبة ملأى بالهدايا وعقل فارغ[١].

❊ ❊ ❊

أثناء الحج ستقوم بالآتي:

❊ ستعلن التوحيد بالطواف . .

❊ ستخوض نضال هاجر في السعي . .

❊ ستعرض هبوط آدم عندما تنتقل من الكعبة إلى عرفة . .

---

(١) في مكة اليوم العديد من المخازن التي تبيع مختلف الهدايا كالمعدات الكهربائية وأواني البيت والمجوهرات وغيرها، وكثير من الناس يتعاملون مع الحج كفرصة سانحة جذابة للسياحة الشرائية حيث يصرفون وقتاً طويلاً ومالاً كثيراً في حشو حقائبهم. إن مكة اليوم سوق حر جيد للتجارة الخارجية.

* ستعرض فلسفة خلق الإنسان، وتطور فكره من العلوم البحتة إلى الحب المحض، وسموّ الروح من الطين إلى الله عندما تذهب من عرفة إلى منى.

* * *

إنَّ المرحلة الأخيرة في التطور نحو المثال هي: مطلق الحرية في مطلق التسليم.. أو هي: مرحلة إبراهيم.. وهي تلك التي تقع في (منى).

أنت الآن مقدم على أن تفعل مثلما فعل إبراهيم حينما جاء بابنه إسماعيل ليذبحه..

فمن هو إسماعيلك؟ أو ما هو؟!...

موقعك؟.. لقبك؟.. مهنتك؟.. مالك؟.. بيتك؟.. مزرعتك؟.. سيارتك؟.. حبك؟.. أسرتك؟.. المعرفة؟.. الطبقة الاجتماعية؟.

الفن؟.. الأزياء؟.. الاسم؟.. حياتك؟.. شبابك؟.. جمالك؟..

كيف يمكنني أن أعرف؟!.. أنت وحدك الذي تعرف ما في نفسك!.

مهما يكن إسماعيلك أو كيفما كان، يجب عليك أن تأتي به معك إلى هنا لتضحّي به.. إني لا أستطيع أن أحدده لك. ولكن بإمكاني أن أعطيك بعض مفاتيح معرفته التي تعينك، فمثلاً: كل

الذي يضعف إيمانك . . كل الذي يصدّك عن السبيل . . كل الذي ينأى بك عن تحمل المسؤولية . . كل الذي يجعلك غارقاً في ذاتك . . كل الذي يصم أذنيك عن سماع دعوة الإسلام والاستجابة لها . . كل الذي يجبرك على الفرار . . كل الذي يجعلك تستجيب لداعي القعود والوخم والسكون . كل الذي يجعلك أعمى وأصم . .

أنت الآن في مقام إبراهيم الذي كان ضعفه يكمن في حبه لإسماعيل : «ابنه» . .

لقد حاول الشيطان أن يغويه . . .

تخيّل نفسك في ذروة المراحل . . ممتلئاً بالفخر والزهو ، وهناك شيء واحد فقط يمكن أن تترك في سبيله كل شيء ، وتضحي من أجله بكل حب سواه ليبقى لك حبه . . هذا هو إسماعيلك! إسماعيلك هذا قد يكون «شخص» أو «مرتبة» أو «موقع» أو «موضوع» أو حتى «ضعف» . . .

لكن الأمر بالنسبة لإبراهيم هو ابنه . .

كانت حياة إبراهيم تمضي إلى خواتيمها بعد أن امتد به العمر لمائة عام، شهد خلالها من الكفاح والحركة والتشرّد والقتال في جهاده المقدس ما شهد، وبعد أن واجه جهل قبيلته ، وواجه قهر النمرود، وواجه تعصب عبدة الأصنام . .

لقد كان في شبابه ذكياً متمرّداً ، إلاّ أنه قضى تلك الفترة من العمر في بيت «آزر» أحد المتعصبين لعبادة الأصنام، بل كان هو نفسه صانعاً لها! . .

وكان قدر إبراهيم في الزوجة «سارة» العقيم التي يتمثل فيها تعصب الأرستقراطية. لقد عهد الله لإبراهيم بالعمل الصعب. أي أن يكون نبياً للتوحيد في نظام قائم على القهر وفي عصور الظلام..

ومع كل ذلك تسامح إبراهيم مع مائة عام من القهر والتعذيب وهو يبث الدعوة والوعي والحب والحرية بين أناس أشربوا الاستعباد...

وقد مضى بإبراهيم العمر وهو ما يزال وحيداً.. وقد ظل إبراهيم ـ حتى وهو في ذروة مقام النبوة ـ إنساناً يتمنّى أن يكون له ابن[١].

بلغت زوجته سن اليأس، وتجاوز هو المائة عام ومع ذلك ظل قلبه مليئاً «بالأمنية» وليس «بالأمل»...

وقد جاء الأوان الذي أنعم فيه الله سبحانه بالجزاء على الشيخ المسنّ وعلى عمره فيما أبلاه وهو يعاني في إبلاغ رسالته...

فقد بارك الله أيامه الأخيرة بابنه إسماعيل من خادمته

(١) على النقيض من فلسفات وثقافات الهند والصين والإغريق وحيث يتحول الأبطال والنبلاء والملوك من مقامهم إلى مقام (الألوهية)! فإن إبراهيم عليه السلام ظل دائماً إنساناً رغم أنه مرسخ دعائم عقيدة التوحيد وأبو الأنبياء العظام «موسى وعيسى ومحمد»، لم يكن إبراهيم عليه السلام في يوم من الأيام في أذهان الفلاسفة والشعراء مثالاً، ولا إلهاً فلسفياً، ولكن ظل دائماً إنساناً حقيقياً بكل حاجاته وغرائزه وعواطفه، إنه إنسان ممن يصطفيهم الله.

«هاجر»، تلك المرأة السوداء التي لم تكن ترقى مكانتها حتى تثير الغيرة في قلب «سارة» زوجة إبراهيم الأولى.

لم يكن إسماعيل إبناً فحسب، ولكنه كان ثمرة لكل آمال العمر، والجزاء الذي أعطي لحياة حافلة بالجهاد، وهو أيضاً الابن الوحيد لوالد مسنٌ، هو عنده أعزّ ما وجد في كل تلك الأعوام العامرة بالبلاء..

لقد كان الأمر بالنسبة لإبراهيم هو ابنه، ولكن قد يكون إسماعيلك هو: أنت.. أو أسرتك.. أو وظيفتك.. أو ثروتك.. أو شهرتك.. لا أدري! لكن كان لإبراهيم «ابنه».. مثل ذلك «الابن» لذلك «الأب».

أمام عينيه ـ تلك العينان التي دبّ المشيب إلى حاجبيهما، لكنهما اليوم تشعّان بالسعادة ـ كان إسماعيل يكبر وينمو ويترعرع متلقياً كل الرعاية والحب والحنان من أبيه الذي كرّس روحه بثبات ورسوخ من أجل حياة ابنه..

إنه ينظر إليه على أنه نبتة في أرض مقفرة لمزارع مسكين: (كل لحظة من أيامي الأخيرة يجب أن أتمتع بها)[1]...

لقد كانت متعته في وجود ابنه إسماعيل..

إنَّ إسماعيل يختلف عن أي طفل آخر عادي:

---

(١) العبارة لأندريه جيد. راجع هامش ص١٤٦ «المصحح»..

أولاً: لأن أباه ظل يتمنّاه لمائة عام.

ثانياً: لأنه ولد على غير توقع وفي دهشة عظيمة من أبيه.

ها هو إسماعيل يشبّ قوياً كما تشبّ الشجرة...

لقد أعاد الشباب، وأشاع السعادة في حياة أبيه...

أصبح إسماعيل لأبيه الأمل والحب والأهل..

لقد بُلِّغت الرسالة: (يا إبراهيم ضع السكين على عنق ابنك وضحِّ به بذات يديك)!.

كيف يمكن للمرء أن يصف فزع إبراهيم ساعة تلقيه الرسالة القاصمة؟!..

حتى لو كنّا شهوداً ساعة ألقيت الرسالة لن نستطيع أن نتصور حقيقة شعوره..

لا ريب أن مقدار ألمه قد فاق حدّ الاحتمال والتخيّل.. إبراهيم ذلك العبد شديد الخضوع لله (أواهٌ منيب).. إبراهيم ذلك المتمرّد الشهير في تاريخ البشرية.. إبراهيم ذلك المؤمن الذي لم يهزم عبر كل تاريخ الإنسانية، يتزلزل الآن وكأنه يتناثر أجزاءً!

لقد صدمته الرسالة بعنف..

ولكن الرسالة هي أمر الله..

إنَّ أعظم الجهاد ذلك الذي تجاهد فيه نفسك (الجهاد الأكبر)..

وها هو البطل المنتصر في أعظم معارك التاريخ ينكسر الآن

ويضعف ويخاف ويحتار ويقنط!..

إبراهيم يخوض الآن صراعاً داخلياً في أن يختار بين إسماعيل والله.. يا له من قرار صعب لا بدَّ أن يتخذ!..

أيهما ستختار؟! الله أم نفسك؟! المنفعة أم القيم؟! الاستعباد أم الحرية؟! الدبلوماسية أم الحقيقة؟! الركود أم الحركة؟! السعادة أم الكمال؟! المتعة أم المعاناة في سبيل المسؤولية؟! الحياة من أجل الحياة، أم الحياة من أجل هدف؟! الحب والسلام أم العقيدة والجهاد؟! هل تتبع طبيعتك أم إرادتك الواعية؟! هل تخضع لمشاعرك أم تخضع لإيمانك؟! أن تكون أباً أم تكون نبياً؟! ترعى أقاربك أم تحمل الرسالة؟!.. وأخيراً: الله أم إسماعيل؟!

يا إبراهيم اختر!..

بعد مئة سنة من النبوة بين الناس..

وبعد حياة حافلة بالكفاح ضد عبدة الأصنام، أولئك الجهلة الطغاة..

وبعد أن ظللت منتصراً في كل الجبهات..

وبعد أن وفقت في حمل المسؤولية بكل تبعاتها، دون أن يتطرّق إلى قلبك ذرة من الشك في الطريق الذي اخترته، ودون أن تقيم أي وزن للرغبات الشخصية..

وبعد أن وصلت بالقرب من الله درجة هي أقصى ما يستطيع إنسان أن يبلغه بجهده..

وبعد أن رسّخت أمة التوحيد، واجتزت كل المحن والابتلاءات. . لا تظن بعد كل هذا، أنك لن تتردد. . .

لا تخلد إلى الراحة. . .

لا تعتبر نفسك بطلاً لا يُقهر، وأنك بلا جوانب ضعف. . يجب ألاّ تضللك وتخدعك الانتصارات التي تتالت عليك عبر مئة سنة. . .

هل تعتقد أنك وصلت لدرجة العصمة؟!. .

كلا لا تستشعر الأمن. .

إنك لست في أمان ووقاية من إغواء الشيطان، ولست في أمان من تلك القوى الخفية التي تحيط بالإنسان.

دائماً هناك الكثير من أضواء المجد الزائفة التي تبهر الأبصار. . .

والله تعالى يعلم عنك أكثر مما تعلم عن نفسك. . .

يعلم أنك لا تزال مهيض الجناح!. .

ويعلم أنه لا يزال عندك ثغرة تنظر منها إلى الدنيا وأعراض الدنيا!. .

إنه يريد أن يقطعك عن كل صلة مهما دقت مع هذه الدنيا. . .

يا إبراهيم. . .

أيها البطل المنتصر في معركة التاريخ الكبرى. . .

بروحك السامقة، وصمودك الذي لا يتزعزع (يا ذا العزم من الرسل)... لا تظن أن أمر الله معك قد انتهى..

إنَّ الله ليس ببعيد عن الإنسان!

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[1] لكن المسافة بعيدة بعدها عن الأبدية..

لا تحسبنّ الأمر سهلاً!..

في مقام «النبوة» قد بلغت ذروة الكمال، ولكن في «الطاعة» لم تبلغ بعد الكمال..

آه يا خليل الله ومرسّخ عقيدة التوحيد ومعبّد طريق موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام!...

أيها الأسوة لمجد الإنسان وكرامته وكماله.. أنت «إبراهيم» ولكن أن تكون «المطيع» فذلك أمر عسير!

يجب أن تكون خالصاً لله تعالى متحرّراً من كل ما دونه..

تواضع واترك الزهو بنفسك والأمن من السقوط من قمتك!

إنَّ سقوط الذين بلغوا القمة الأسمى لخطب جلل ومأساة عظيمة.

* * *

(١) سورة ق، الآية: ١٦.

التضحية بإسماعيل

إبنك العزيز . .

ثمرة حياتك . .

متعتك وسبب بقائك . .

معنى وجودك . .

كلا! بل اسماعيلك . .

إطرحه أرضاً كما يُطرح الكبش، وقدِّمه قرباناً! . . .

أمسك بأطرافه تحت قدميك حتى لا يهرب! . .

أمسك برأسه جاذباً شعره بيديك، وجزّ عنقه، ثم ابق عليه تحت قدميك حتى تطمئن تماماً أنه بلا حراك. ثم . . إنهض ودعه لحاله! . .

آه أيها «المطيع» «العبد» لله هذا ما يريده الله منك . . هذا «نداء إيمانك» و «روح رسالتك» . . هذه هي مسؤوليتك . . . أيها الإنسان المسؤول، يا ولد إسماعيل!

❊ ❊ ❊

أمام إبراهيم خياران: أن يستجيب للوعة قلبه و«ينقذ» إسماعيل...

أو يستجيب لأمر الله و«يضحّي» به...

لا بدَّ من اختيار أحدهما: «الحب» أو «الحق»...

إنهما يتصارعان بداخله: «الحب الذي هو حياته، والحق الذي هو إيمانه»..

لو أن الله تعالى طلب منه حياته نفسها لكان الأمر هيناً، فقد جعل إبراهيم حياته في سبيل الله، ولهذا! فهو يشعر أنه «مطيع» لله...

إنَّ شعوره هذا «أنانية» و«ضعف»...

ذلك أن الطيب الجميل عند أناس، يعدّ منكراً وقبيحاً لرجل في مثل مقام إبراهيم، ذلك لأنّ حسنات الأبرار سيئات المقربين...

إنه الأقرب إلى الله...

(لاحظ نسبية الأخلاق في مدرسة إبراهيم، ويا له من فهم جدّ مختلف)[1].

---

(١) يشير المؤلف إلى المقارنة مع نسبية الأخلاق في الفلسفة الغربية المعاصرة والتي تجعل الخيانة في بعض الأحيان فضيلة. الخ فهي نسبية انحطاط، عكس نسبية الأخلاق عند متصوفي الإسلام.

يا إبراهيم. . تخلَّ عن إسماعيلك!

شك!. .

كم ذلك خطير وقاتل!. .

النتيجة المتوقعة هي اللجوء للتفسير والتأويل، ينشد عندهما مخرجاً. .

وهذا يحدث حينما يكون القلب كارهاً بينما الإيمان عاشقاً!. .

وعندما تطلب من «حامل المسؤولية» التخلي عن ابنه فإنه يفعل، ولكنه أمر ـ في ذاته ـ بالغ العسر. . إنه يبحث عن وسيلة للفرار. .

إنَّ الأسوأ من «التأويل الخاطئ» هو «التوضيح السليم» الذي يتعمّد ذكر حقيقة وإخفاء أخرى!. .

والمصيبة الكبرى عندما يلبس الباطل ثوب الحكمة، ويرفعها سيفاً مسلطاً بيد، ويمسك «الدنيا» كترس يحتمي به باليد الأخرى!. .

ضحِّ بإسماعيلك. . .

كيف أفهم هذا الأمر؟. .

كيف أتيقّن أن المقصود بكلمة «ضحِّ» ليس المعنى المجازي؟! (كأن يكون معنى «ضحِّ بروحك» بمعنى أن لا تكون عبداً لغرائزك واجتنب إغواءها!). . .

كيف أعرف أن الضمير في إسماعيلك لا يعود تقديره إليَّ أنا؟! ومن ثم أكون «أنا» محل استقبال الرسالة!..

لماذا لا يكون هذا الأمر خطاب عام جاء في صيغة خطاب خاص؟!

كيف أعرف أن إسماعيل هنا يعود إلى إسماعيل وليس ـ كما أسلفت ـ مجرد معنى مجازي؟..

كيف أعرف ـ استناداً إلى رأي بلاغي[1] ـ أن كلمة إسماعيل في جملة «ضحِّ بإسماعيلك» ليست اسماً جاء في موقع المفعول به، ولكن ذكر المحل ويراد به الحال كما هو شائع في العربية ووارد في القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ﴾[2] والمقصود اسأل أهل القرية، فيكون معنى «ضحِّ بإسماعيل» أي ضحِّ من أجل حبِّ إسماعيل..

دعنا نفترض أن كل هذه التأويلات غير واردة، وإن الأمر المقصود هنا هو المعنى البسيط المباشر الذي يتبادر إلى أي ذهن..

ضحِّ بإسماعيلك..

كيف أعرف أن هذا الأمر يجب أن يُنفَّذ حالاً؟!..

ألا يوجد نطاق زمني محدّد شأن كل قانون مكتوب؟..

---

(١) هذه تفسيرات تعود لبعض طرق علم البلاغة التي تُشْكِل أحياناً المعنى أكثر مما توضحه.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٨٢.

إنَّ ذلك هو دور الحكمة في اختيار الوقت المناسب، مع الأخذ بالاعتبار التقديرات والظروف والسياسة والامكانات والاحتمالات . . .

القرآن الكريم يأمرنا بالجهاد في سبيل الله، ولكن وقت الجهاد وشكله يعتمدان على التقديرات والظروف التي تأخذ بها الحكمة . .

مثال آخر من السُنّة المطهرة عندما تأمر بطلب العلم وتقول: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة».

إنها لا تفرض على أحد أداء هذا الواجب في وقت محدد حتى ولو قام بأداء هذا الواجب في الساعات الأخيرة من حياته، وهو على فراش الموت! . .

الحج ـ أيضاً ـ يمكن أخذه كمثال للواجب على التراخي، وهناك الكثيرون الذين يؤجلونه سنة بعد سنة، وبعد أن يعيشوا حياتهم الطليقة، وعندما تقترب أيامهم من النهاية قد يقررون أداء هذا الواجب! . . فهذا واجب يمكن أن يؤدى في أي وقت.

هؤلاء المؤمنون يظنون أن هذه المسؤوليات تؤدّى من أجل الحياة الآخرة وليس من أجل هذه الحياة الدنيا . . .

إنهم يحسبون أن شرائع الدين إنما جاءت من أجل اليوم الآخر وليس السبيل التي تنتفع بها هذه الحياة الدنيا ويتزكى بها

الإنسان ويرتقي بها نحو مدارج الكمال[١].

وكيف أعرف استناداً إلى طرائق النظر ـ أن هذه الجملة: «ضحِّ بإسماعيلك» المقصود بها أمر واجب وليس مندوب؟..

أغلب الظن أن المقصود هو الأخير!.. ألا يشبه هذا الأمر الأمر الآخر الذي يقول ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ حيث إن الجميع يجب أن يدفعوا للفقراء ما يستطيعون. أو الأمر كما في الآية: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٢].

فذلك فعل بغيض عند الله.. وهو أمر إرشادي جاء بالإيحاء ليذكرنا بما تهدينا إليه حكمتنا.

وإلى جانب كل هذه التفسيرات الحكيمة والمشروعة والاستشهاد بالآيات والقصص، والاستناد إلى معايير البحث العلمي ومقاييس العقل، ومن أجل كل الغايات الخيرة.. فإن قتل النفس هو ذنب ولا ريب، ولا يجوز للمرء أن ينسب مثل هذا المنكر إلى الله تعالى وهو أرحم الراحمين...

* * *

وإذا صرفنا النظر عن كل ما سبق من تفسيرات وتأويلات، يبقى مع ذلك واضحاً من هذا الأمر أن الله الرحمن الرحيم يريد أن

---

(١) ينتقد المؤلف في الفقرات السابقة واللاحقة مفاهيم وسلوكيات شائعة بين المسلمين ليست من الإسلام.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٨.

يذكرك أن حبك لإسماعيلك لا يعني شيئاً، وأنّ التسليم للحق يوجب عليك التخلي عن كل رغباتك التي كانت تحتوي تفكيرك وتحجبك عن الصلة بالله. .

ومنذ أن أصبح حب إسماعيل شاغلاً لإبراهيم عن تحمل المسؤولية ـ ولو قليلاً ـ أمره الله أن يضحّي بإسماعيل حتى يخلص تماماً لله[1].

وكما أسلفنا فإن «ضحِّ بإسماعيلك» تعني: (لا تعطي كل هذا الحجم وهذه المشاعر لحب إسماعيل) وهو المعنى الجوهري ذاته الذي نجده في الآية الكريمة:

﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌۚ﴾[2].

نعم. . إنه اللجوء للتفسير، للبحث عن مهرب يستعمل عندما يكون قبول الحقيقة صعباً وعسيراً وعندما يكون تحمّل المسؤولية أمر يناقض أحلام المرء وأمانيه. . .

أمّا عندما تكون الحقيقة والعدل مجرد مشاهد على مسرح الحياة فإن الكثيرين سيتحدثون عن العدل وعن حقوق الإنسان، ولعلهم ـ في نصرتهم للحق والعدل الذي لا يمسّهم ـ يعزّون أنفسهم بأنهم يقومون ببعض أعمال طيبة أثناء المسار الروتيني

---

(١) يقول تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ﴾ سورة البقرة، الآية: ١٦٥ .

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٨.

لحياتهم السعيدة وهم يديرون أعمالهم دون تعكير أو اضطراب! . .

إنَّ الحقيقة والعدل عندما يتوافقان مع الحياة ويتّسقان مع خطها المعتاد فإنهما يستعملان كرأسمال وأداة ووسيلة للشهرة، وكسبيل إلى منصب ومرتبة ورخصة للحياة! . .

في هذه الحالة لا يكتفي الناس بالحديث عن العدل، بل يعتقدون إلى جانب ذلك أنهم صالحون باستعدادهم لبذل خدماتهم للآخرين! ! . .

أمّا عندما تصطدم الحقيقة والعدل بمسار حياتنا اليومية، ويصبح أنصار الحقيقة والعدل في مأزق وخطر، وأنه على «الصالحين» تحمّل أعباء ثقيلة من المسؤولية . . عندما يظلم الطريق ويأتي الليل بعواصفه المحمّلة بالمخاطر والمهاوي . . حينئذ تفقد الحقيقة والعدل أنصارهما، فيعزّ الرفيق إلاّ من فئة قليلة، وقد يسير الإنسان ـ في بعض الأحيان ـ وحده وليس معه أحد.

وعلى الأنصار أن يتركوا وراءهم كل عائق ويتجاوزوا كل العقبات مهما عظمت، خاصة أولئك الذين يعيشون في ظلمات القهر حتى كادت فطرتهم أن تنطمس . . .

* * *

إنَّ الله الرحمن الرحيم يأمرك بالتضحية بحياتك وبحبك كي تمضي على سبيله، ولكنّ إغراءات الشيطان تشدّك إلى الركون إليها واتباع سبلها . . كيف؟! . . . بالتبريرات! تلك التبريرات التي تحور إيمانك حتى يتوافق مع مطالب الدنيا . . وعندها لن يصمك أحد

بالكفر أو بالعصيان أو مخالفة الناس!!..

هنا التبريرات تكون حقاً أريد به باطل!..

إنك تخلع عليها ما تشاء من الأسماء: المجتمع.. الأخلاق.. العلمية.. النفسية.. الجدلية.. التفسير العقلاني..

ليس ثمة فرق بين كل ذلك!..

لكن في الحج وفي سيرة حياة إبراهيم ـ ذلك العظيم الذي انتصر في كل المحاكمات، والأمين الذي أخلص وجاهد وناصر الحق والعدل على إطلاقهما ـ فقد سمى الله تعالى التبريرات فيها: إغواء الشيطان..

لقد أضعفت التساؤولات حكمة إبراهيم الواضحة القوية:

كيف أستطيع أن أعرف؟.. كيف يكون ذلك؟ .. لقد وصلتني الرسالة عن طريق الرؤية فقط!..

هكذا كان يقول...

وكان الشيطان يضرب على أوتار حب إبراهيم الشديد لابنه، ويدخل إليه من موطن الضعف هذا، جاعلاً إياه وسيلة معقولة للهروب!..

كانت هذه هي المرة الأولى: **الجمرة الأولى**.. وقد رفض إبراهيم أن يضحّي بابنه. «يا إبراهيم يجب عليك أن تضحي بابنك».

الرسالة هنا أوضح وأجلى...

الصراع يحتدم في صدر بطل التاريخ بسبب إغواء إبليس، وإذا بإبراهيم يشعر بالضعف والشك والخوف والهزيمة في الصراع بين الله والشيطان.

* * *

في عمق الجبلة البشرية يوجد تضادّ بين الحب والحكمة.. بين الحياة والإيمان.. بين أن تكون في سبيل ذاتك وأن تكون في سبيل الله..

هذه هي طبيعة الإنسان...

ظاهرة تقع بين الروحانية والحيوانية.. بين الدنيا والآخرة... بين الغريزة والحكمة.. بين السماء والأرض.. بين حب النفس وحب الله.. بين الواقع الجاهلي والحق.. بين الكفاية والكمال.. بين الاستعباد والتحرر.. بين التسيب والمسؤولية.. بين الكفر والإيمان.. بين في سبيل الأنا وفي سبيل نحن.. وأخيراً: بين من أنا وما يجب أن أكون.

* * *

اليوم الثاني وإبراهيم يرجح في ميزانه حب ابنه على مسؤوليته أمام الله.

«حياة إسماعيل في خطر»

هكذا يوسوس الشيطان لإغواء إبراهيم، وكما أضل آدم ودفعه ليأكل من الشجرة المحرمة في الجنة، وكما هو شأن الإنسان - أي إنسان ـ فيه جدلية المكونات: الطين والروح..

إبراهيم كذلك في شك: أيختار ابنه أم الرسالة.

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[1].

* يا نبي الله إن الرسالة هي مسؤوليتك..

* يا نبي الله هل تريد أن تكون أباً لابنك؟

* هل يجب عليَّ أن أضحي بإسماعيل بيدي هاتين؟

* نعم!

* نعم! يجب أن أضحي بابني في سبيل الله..

إنَّ قهر العاطفة لا يرقى لعظمة عقيدتي..

هل يجب أن أبقى أباً لإسماعيل، أم أمضي في طريقي حاملاً الرسالة؟ (الشيطان يحاول مرة ثانية).

* لقد بلغتني هذه الرسالة في الرؤيا، فكيف تكون حقيقة؟!.

هذه هي المرة الثانية التي يرفض فيها إبراهيم التضحية بابنه هذه هي **الجمرة الوسطى**.

«يا إبراهيم ضحِّ بابنك إسماعيل»

لقد جاءت الرسالة هذه المرة واضحة جلية تستعصي على كل طرائق التبرير العقلي... إنه بلا خيار، فالنداء بيّن كما الأبيض والأسود...

(١) سورة الشمس، الآية: ٨.

والشيطان بكل مهارته وذكائه لن يستطيع أن يفعل أي شيء للتشويش عليه.

وإنكار الرسالة يعني طاعة الشيطان.

* * *

إبراهيم الآن على حافة وادٍ سحيق..

هل أزفت ساعة سقوطه؟!..

هل يجوز ذلك على إبراهيم الذي كسّر الأصنام؟!..

ذلك الرسول من أولي العزم.. قائد الأمة ومُرسِّخ الإسلام يسقط من بهاء ذروة التوحيد إلى هاوية الشرك السحيق.. ليس كفراً ولكن إيماناً بآلهة عديدة تعبد مع الله!!!...

القرآن الكريم يصف إبراهيم واقفاً في (منى) بين أمر الله تعالى ووسوسة الشيطان...

إنّه لا يستطيع أن يستجيب لكليهما، ولا يستطيع أن يتجاهلهما..

يا لها من قصة مروّعة!!.

رجل هو خليفة الله... تخَلَّق بأخلاق السماء.. يستطيع أن يفعل ما يشاء. يستطيع أن يحكم كل العالم.. هنا ما أضعفه! وما أعجزه!

فيه روح الله، لكن مع ذلك يحمل ضعفه بين جنبيه:

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[1].

في هذه الدنيا لا أحد بمأمن من السقوط مثل الطفل الذي أقدم لتوه على تعلم المشي! يجب أن يكون يقظاً حتى لا يسقط . .

لقد كاد أن يسقط، وإذا سقط فلم يعد بريئاً من الشرك:

﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[2].

على مشارف النهاية في حياته يعيش إبراهيم ذلك الأب . . نبي (الإسلام العظيم)، ذلك المتحلّي بروح الإنسان وحب الله . . سيق إلى حافة الهاوية بسبب حبه لابنه إسماعيل . . بعد أن ظل نصيراً للحق، مؤمناً، صادقاً لمئة سنة خلت، يكاد يسقط في شرك الشيطان.

«يا إبراهيم ليس لك خيار، أمر الله عن يمينك ووساوس الشيطان على يسارك، أيهما ستختار؟! . . .).

الآن ليس هناك ارتياب في الرسالة . .

❊ ❊ ❊

إنَّ الباحث عن الحقيقة لا يكاد يخطئ السبيل كالنحلة التي تجد طريقها إلى بيتها في الدجى الدامس وسط العواصف الهوج في عمق الصحراء أو في شعاب جبل ناءٍ بعيد.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢٨.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٥.

كلا يا إبراهيم إن الذي عاش حياته الطويلة كلها أهل للثقة، ينبغي ألاّ يكون ضحية لأحابيل الشيطان.

إنَّ قبول الرسالة مثل القفز فوق النار، والشيطان هو العدو الذي يتظاهر بمحاولة إطفائها، ولكنك ـ بنظرك المحجوب برغبات نفسك ـ لا تستطيع أن تحدّد من هو العدو ومن هو الصديق استناداً لتظاهره هذا؛ إذ إن هذا الحكم ينبغي أن لا يُبنى على رغبات النفس.

كان جلياً لإبراهيم ما الذي يجب عليه أن يفعله، ولكن ريبه وشكوكه السالفة كانت وليدة حبه الشديد لإسماعيل..

والد مسكين... طاعن في السن.. ظل ينتظر ابناً على يأس ولسنوات، ولكن جاءه أمر أليم، ممض في الألم..

آه.. يا لها من مأساة مروّعة!..

كانت مسؤولية إبراهيم فوق احتمال الشيخ الكبير والأب الوحيد الذي يتعيّن عليه أن يضحّي بابنه.. وقد يكون هذا الأمر مريحاً ويسيراً.

ولكن لا.. إسماعيل الصغير هو الذي يموت، ويبقى الأب المسنّ وحيداً.. حزيناً.. بيديه الباليتين وقد ضرّجتهما الدماء.

عندما يفكر إبراهيم في الرسالة، فهو على تسليم مطلق بها..

ولكن حينما يفكر في التضحية بوحيده إسماعيل، يغمره

الألم الهائل الذي يفوق الاحتمال.. الألم الذي يفتّ في عضده راسماً في وجهه ملامح الأسى العميق..

إنَّ الشيطان حين ينظر إلى إبراهيم وهو في هذه الحالة من الشقاء يعمل على خداعه مرة أخرى..

إنَّ الشيطان هو العدو المبين للإنسان؛ فمهما تكن الحالة وعلى أي نحو تكون فإن الشيطان يشرع في مزاولة مهمته القذرة.

إنَّه يلهيك حتى يبقيك بعيداً عن أداء واجبك، ومن ثم تبقى حقيقة الرسالة بمنأى عن الإدراك.

* * *

﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ..﴾[١].

لقد كان حبّ إسماعيل بمثابة امتحان لإبراهيم؛ إذ هو ضعفه الوحيد عندما يواجهه إبليس..

لقد عرف إبراهيم أن الرسالة الموحاة واضحة، وأنه لا بدَّ أن يضحي بابنه، وغدا حزيناً مكسور القلب..

ومن هنا تسنّت الفرصة للشيطان في التسلل إليه لخداعه بعد أن أحسّ بتلك الحال؛ فظهر أمام إبراهيم هامساً بذات الوسواس[٢]:

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٨.

(٢) الشيطان ليس له منطق مختلف، لكن يردد نفس الأشياء بصور متعددة ووسائل متغيرة. (المؤلف).

لـقـد سـمـعـت هـذا الأمـر فـي الـحـلـم

كلا إن ذلك كافياً . . إن ذلك كافياً (هكذا يحدّث إبراهيم نفسه)

لقد اتخذ قراره، وأضحى اختياره قاطعاً: محض الحرية في طاعة الله.

(محض الحرية في التضحية بإسماعيلك)

لقد انزاحت العقبة الأخيرة التي كانت تحجب طريق إبراهيم عن حريته . . .

لقد قرر إبراهيم أن يشرك ابنه في تلقّي الرسالة، ومن ثم دعاه . . جاء إسماعيل . . فنظر إليه أباه من رأسه إلى أخمص قدميه:

إنـه الـضـحـيـة والـفـداء الـعـظـيـم

❊ ❊ ❊

الحوار بين الأب والابن

في ركن قصي بمنى وقف إبراهيم يتحدث إلى ولده . .

الأب وقد اشتعل رأسه ولحيته شيباً بعد حياة امتدت لمئة سنة . .

بينما إسماعيل فتى يافعاً في بواكير الشباب . . .

إنَّ سماء الجزيرة العربية ـ بل سماء الدنيا بأسرها ـ لتنوء بحمل رهبة هذا المشهد .

إنَّ التاريخ لم يسجّل أبداً ـ من قبل ـ مثل هذا الحوار بين أب وولده . .

بل إنه لم يخطر على قلب بشر قط مثل هذا الحوار ، بالغ المودة ، وهو مع ذلك بالغ الهول .

* * *

في البداية استعصى على إبراهيم فتح فمه لسرد القصة على ولده :

(إنني هنا لأضحّي بك بيدي هاتين)

وأخيراً استعاد إبراهيم الثقة بالله وقال:

﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾[١].

كانت كلماته سريعة خافتة فما استطاع هو نفسه أن يسمعها.. ثم غلب عليه الصمت وقد شحب لونه من الفزع صارفاً بصره غير قادر على النظر في عيون إسماعيل.

كان إسماعيل يدرك مقدار ما يقاسيه أبوه؛ فجاءت كلماته تعبر عن المؤاساة:

(يا أبتاه كن مطيعاً لله، ولا تتردد في التنفيذ، وستجدني إن شاء الله كذلك مطيعاً، وبعونه تعالى سأحتمل ذلك):

﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٢].

لقد وضع إبراهيم ثقته كلها في الله وهو يزداد خوفاً..

اتخذ قراره ونهض ممسكاً بسكينه يحاول شحذها على قطعة حجر..

هل يستطيع أن يفعل ذلك بابنه الذي أحبه كل هذا الحب؟!

إسماعيل ذلك الفتى الشجاع الذي تقبّل أمر الله يبدو هادئاً مطمئناً، وكأنه ليس مقدماً على أمر جلل.

وإبراهيم ذلك المحب الصادق لله حطم مشاعر «الأنا» جاعلاً توكله أولاً على الله وحده.. ها هو يأخذ الضحية الصغيرة إلى

---

(١) سورة الصافات، الآية: ١٠٢.

(٢) المصدر السابق نفسه.

محل الفداء، ويطلب منه أن يضطجع على الأرض.. ثم يمسك برجليه ويجذب إليه شعره دافعاً رأسه إلى الخلف حتى يتمكن من رؤية أوداجه..

(باسم الله).. وضع إبراهيم السكين على عنق إسماعيل، ومضى ليقطع بأقصى ما يمكن من سرعة..

لقد حاول الشيخ المسن أن ينهي الأمر في لحظات.. لكن: ما لهذه السكينة لا تقطع؟!.. إنها تؤذي ابني!! آه.. يا له من عذاب!.

إبراهيم يزأر كالأسد الجريح، وقد اشتد به الفرق: أو لست أباً!.. وسريعاً يلتقط السكين ليحاول مرة أخرى..

بقي إسماعيل ـ كل هذه الأثناء ـ هادئاً في طمأنينة لا يتحرك البتة..

قبل أن يعاود إبراهيم الكرّة، ظهر فجأة الكبش حاملاً الرسالة:

إنَّ الله لا يطلب منك التضحية بإسماعيل..

إنَّ هذا الكبش مرسل إليك فدية له..

لقد أطعت الأمر يا إبراهيم..

الله أكبر ولله الحمد...

إنَّه درس علمه الله الرحمن..

منذ الآن ولاحقاً لن يضحّى بإنسان كقربان لله..

تلك كانت منسكاً لعبادة الله...

في دين إبراهيم يقدم الكبش فداءً وليس الإنسان..

هناك درس آخر عظيم: ذلك أن إله إبراهيم مناقض لبقية الآلهة الأخرى من دونه التي تتلمظ جوعاً لأكل لحوم البشر.. إنه ليس متعطشاً للدماء شأن الآلهة الأخرى..

ما أجمله من درس!، وما أعظمه من معنى!!..

إنَّ الله لا يريد لإسماعيل أن يذبح، ولكن يريد من إبراهيم أن يذبح إسماعيل، وقد فعل وأطاع أمر الله في شجاعة كاملة!..

كذلك كان إسماعيل جديراً أن يختار للفداء، وقد استحق النجاة بعد أن استسلم في حلم وصبر جميل، ومن ثم فلا حاجة لأن يقتل..

إنَّ الله الرحمٰن الرحيم ليس محتاجاً سبحانه، بل نحن البشر الذين في حالة الحاجة الدائمة إليه في كل شيء.

* * *

تلك كانت مشيئة الله العلي الكبير، وهو أرحم الراحمين..

لقد رفع الله إبراهيم وكرّمه إلى مرتبة الاستعداد للتضحية بإسماعيل دون أن يقتله حقيقة.. وكذلك رفع إسماعيل وكرّمه ليكون ضحيته وقرباناً له دون أن يلحقه أذى.

هذا هو دين إبراهيم: **الإسلام**.

إنَّه ليس تلك القصة التي تحكى عن الإله المتعطش للدماء[١].. الإله المازوشست الذي يعشق تعذيب الإنسان.

---

(١) يشير إلى قصة الأب الروحي (God Father) عن الترجمة الإنجليزية.

إنها قصة كمال الإنسان وتحرّره من الأنانية والغرائز الحيوانية، وسموّه إلى آفاق النفوس الشريفة والحب والرحمة.. إلى تلك الإرادة القوية التي تحرّره من كل شيء قد يعيق مسؤوليته كإنسان ذي وعي..

تلك الإرادة التي تدفع صاحبها أن يضحّي بنفسه (كإسماعيل) ويصبح من ثم شهيداً..

وأخيراً ليكون مثل «إبراهيم» ذلك الشيء الذي لا نجد له تعبيراً في القاموس!..

* * *

هذه القصة تنتهي بالتضحية بكبش!...

هذا هو ما يطلبه الرحمن في خاتمة هذه المأساة الإنسانية العظيمة..

التضحية بكبش حتى تطعم به عدداً من الناس الجوعى.

مثل إبراهيم.. يجب عليك أن تختار إسماعيلك وتأتي به إلى (منى).

من هو إسماعيلك..؟

لا بدَّ لك من معرفة ذلك، وليس ثمة حاجة للآخرين أن يعرفوا...

قد يكون: زوجتك.. وظيفتك.. موهبتك.. الجنس.. السلطة.. المال.. الخ.

أنا لا أدري أيّهم.. لكنه ذلك الشيء الذي يقع منك في

موقع عزيز عزّة موقع إسماعيل لدى إبراهيم!.

إنَّ بعض سمات إسماعيلك وعلاماته تجدها في كل ما يأخذك بعيداً عن حريتك، وفي كل ما يتوقف بك عن أداء واجبك، وفي كل متعة تعطيك السلوى، وفي كل ما يصمّ أذنيك ويمنعك عن معرفة الحقيقة، وفي كل ما يقنعك بالتعقل من قبول المسؤولية، وفي كل الذين يبذلون لك العون لأنهم يتوقعون منك العون في المستقبل....

يجب أن تبحث حتى تجده في حياتك وتحدده...

إذا كنت تريد القربى إلى الله، لا بدَّ لك من ذبح إسماعيلك عند (منى).

لا تختار الكبش (فدية) بنفسك، ولكن دع الله تعالى هو الذي يعينك ويمدّك به هبة وجزاءً، لأنّ هذه هي الطريقة التي يتقبل الله بها الكبش أضحية..

فالفداء هو أن يقدم لك الكبش بديلاً عن إسماعيلك..

أمّا أن تضحي بالكبش وأنت لا تنشد من وراء ذلك إلاّ الأضحية فهذه مجرد ذبيحة[1].

* * *

(١) وكأن شريعتي يقول سائلاً: هل هذا الكبش الذي نذبحه هو الذي اختاره الله لك بديلاً عن إسماعيلك، الذي يجب أن يكون بدوره أعز ما تملك في دنياك، لأن إسماعيل عليه السلام كان ابن إبراهيم وأهله. فهل هذا الكبش الذي تضحي به أتى استبدالاً من الله سبحانه لإسماعيلك الذي كنت على أتم الاستعداد للتضحية به قربة لله وحده؟..

رموز التثليث
الأصنام الثلاثة

تذكّر أنّ الأصنام الثلاثة في (منى) تمثّل الشيطان الذي حاول أن يغوي إبراهيم.

هل بالضرورة على كل إنسان أن يخوض غمار تجارب ثلاث حتى يحرر نفسه من كل أنماط الاستعباد؟!

إنَّ الواجب يدعوه إلى نكران الذات حتى يهزم الحالة الحيوانية التي تجسدها عبادة الذات، ويرتفع إلى مقام إبراهيم جاعلاً كل عمله خالصاً لله.

ألاّ ترى أن هذه الأصنام الثلاثة تقف على النقيض من فصول الحج الأكبر الثلاثة؟

الجمرة الأولى: عدو عرفات

الجمرة الثانية: عدو المشعر

الجمرة الثالثة: عدو منى

أليست هذه الأصنام الثلاثة هي تمثيل لقوى الشيطان المتسلط والذي يرقد في مكمن ويتربص بالإنسان الدوائر ليقطع الطريق إلى ملة إبراهيم؟!

ولكن ما الذي تفعله هذه الشياطين الثلاثة على وجه التحديد؟

إنها تبدّل الرسالة وتمسخها..

في صعود الإنسان نحو الوفاء بمسؤوليته تقوم قوى الشر ـ لتعوّقه ـ بمهاجمته عبر ثغرة ضعفه..

هناك دلالة أخرى تجعل معرفتنا بهذه الأصنام الثلاثة أفضل وهي:

الحقيقة التي يمثلها وجودها مستقلة عن بعضها، وكل منها له هوية خاصة به.. هوية متميزة، ولكنها رغم ذلك مشدودة إلى بعضها بأواصر «الصداقة» والعمل المشترك ضد الإنسان..

وبعبارة أخرى: فإن الأصنام الثلاثة المفردة تمثّل شيطاناً واحداً.

الموجود أمامنا جوهر واحد بثلاثة أوجه، أو ثلاثة أوجه من أصل واحد..

وهذا بالضبط هو معنى التثليث!..

توضح الأمثلة الآتية هذا المفهوم:

في اليهودية: تجد الأقانيم الثلاثة كما وصفها فيلون[١].

في المسيحية: تجد الأب والابن والروح القدس!

في اليونانية: تجد الوجوه الثلاثة في رأس واحد!

في الهندية: تجد الويشنو أيضاً بوجوه ثلاثة في رأس واحد!

في الهندوسية[٢]: تجد المينو ذو الأجزاء الثلاثة الرأس والجزع واليد.

في إيران القديمة: تجد أهورا، مزدا، والنيران الثلاثة التي تسمى غاشنسب، . واستخر، وبرز ين مهر. .

وفي مكان آخر: المخلص، وظل الله، وعلامة الله.

* * *

ما هو الشرك؟

إنَّه الإيمان المؤسس على شؤون الدنيا. وفقاً للفلسفة المادية

---

(١) فيلون: (نحو ١٣ ق.م ـ ٥٤) فيلسوف يوناني يهوديّ الأصل. ولد في الاسكندرية. حاول أن يشرح الدين بتعابير الفلسفة اليونانية الأفلاطونية. عمل على تطبيق الطريقة الرمزية على نصوص التوراة. له تأثير كبير على آباء الكنيسة الشرقية والفلاسفة العرب كأفلاطون مثلاً. «المصحح».

(٢) الهندوسية: ديانة معددة وموحدة، فهي تجعل لكل ظاهرة طبيعية إلهاً، جمعت كل الآلهة في إله واحد أعطته ثلاثة أسماء. براهمان أي الواحد، وڤشنو أي الحافظ، وشيفا أي المهلك. وهي فلسفة حياة أكثر منها عقيدة، وهي ديانة للغالبية من الهنود. «المصحح».

الاشتراكية العلمية[١] . .

إنَّ الشرك هو ذلك النظام القائم على مادية ذات بناء فوقي متوافق مع بناء تحتي هدفه إفساد الإنسان ووعيه الذاتي.

وهذه النظرية إن كانت صالحة للتطبيق على الشرك فلا يمكن تطبيقها على التوحيد؛ فمفهوم التوحيد يتناقض جذرياً مع مفهوم الشرك، ومن ثم فإنهما لا يمكن أن يقودا إلى أصل واحد أو أن يؤديا نفس الوظيفة. وعبر التاريخ ظل الصراع قائماً بين العقيدتين:

التوحيد ضد الشرك. . إلاَّ أنه وعبر تمثلهما الاجتماعي اختلط المفهومان ـ لسوء الحظ ـ وتسنى للشرك أن يلبس قناعاً للتوحيد، ولأمد بعيد. . .

* * *

في الأصل كان ثالوث المسيحية توحيداً[٢].

وبالمثل كانت الديانات الهندوسية والمزدكية. . . كلها ترجع إلى إله واحد.

ومن الجائز أن نجد حجة إذا قلنا أن التوحيد هو أصل كل العقائد، ولكن التاريخ وتأثيرات النظم الاجتماعية قد أحدثت

---

(١) أي الفلسفة الماركسية الفاشلة، وللمؤلف عدة أبحاث خصصها لنقد الفكر الماركسي. وهو هنا لا يخص الماركسية وحدها بالشرك ولكن كل مذهب يحارب الله أو يشرك معه آلهة أخرى كما سيأتي.

(٢) وذلك كما علم السيد المسيح تلاميذه (المؤلف).

التحول الفذ الجماعي بالمجتمع الأول، حتى صار أجناساً مختلفة وطبقات مختلفة وأمماً مختلفة، ونتج عن ذلك تبدل التوحيد إلى الشرك.

لقد خلف آدم عليه السلام ابنان هما: قابيل وهابيل...

هابيل هو ذلك المزارع المسكين الذي قتله أخوه الثري صاحب الأراضي، ومنذئذ لم يسمع أحد بموت قابيل!

هذا يعني أن خليفة آدم كان قابيل ذلك الكافر المغتصب البخيل القاتل.. ذلك الابن الذي لا يستحق مثل هذا الأب.

وعبر التاريخ كان أبناء قابيل هم حكام البشرية، حتى بعد أن تغيرت المجتمعات واتسعت وأصبح النظام أكثر تعقيداً، وبعد أن نشأت التقسيمات والتصنيفات والتخصصات قام قابيل الحاكم أيضاً بتبديل وجهه:

في مجتمعاتنا المعاصرة يختفي وجه قابيل خلف السياسة والاقتصاد والدين.. فهو يحتفظ بقوته النافذة المتميزة في هذه القواعد الثلاث.

لقد أسس قابيل قوى التسلط الثلاث الكبرى وهي:

الطغيان. الثروة. النفاق

والتي تولّد عنها:

القهر.. والاستغلال.. وفنون غسل الدماغ.

هذه القوى الثلاث وصفت أحسن وصف في دين التوحيد:

فرعون[١] : رمز الطغيان

قارون[٢] : رمز المال

بلعم[٣] : رمز النفاق . . .

أمّا الشرك فهو يعبر عن المقامات الثلاثة في نظامه ذي الأبعاد الثلاثة «التثليث» بالأب والابن والروح القدس .

إنهم يدعونك لتعبدهم من دون الله . .

لا تنس أنك في مقام إبراهيم!

هم يريدونك أن تظل على حب إسماعيلك حتى يجدوا ثغرة ينفذون منها ليخدعوك أو يربكوك أو يغتصبوك أو يبدلوا قيمك ورؤاك ، ومن ثم يقودونك إلى الضلالة .

❊ ❊ ❊

أيها الحاج . . أنت الآن بمنى . . إرم! لقد جئت بإسماعيلك إلى محل الفداء . .

كما رمى إبراهيم الأصنام الثلاثة وأسقطها أرضاً . . أنت يا

---

(١) فرعون : إسم أطلق على حكام مصر الأقدمين . نسبة إلى «رع» إله الشمس كبير الآلهة عند المصريين . وقد ذكر فرعون في القرآن الكريم .

(٢) قارون : من أثرياء العبرانيين في أيام موسى . اضطهد موسى فذهب الله بثروته . ذكر في القرآن . هو قورح في التوراة .

(٣) بلعام : عرّاف أرسله ملك مؤاب (ابن لوط) ليلعن إسرائيل ، فبارك ولم يلعن . «المصحح» .

من اتّبعت إبراهيم وصرت جندياً في جيش التوحيد، حطم هذه الأصنام الثلاثة. .

عندما تشرق شمس اليوم العاشر من ذي الحجة إنطلق مع بقية الجيش وعليك ملابس الإحرام. . إستيقظ في المشعر الحرام واعبر حدود منى، وفي أثناء الهجوم الأول إرم الصنم الأخير. . إنه الأخير الذي ينبغي أن يرجم في البداية. . .

فرعون. .

قارون. .

بلعم. .

إنها الأشكال الثلاثة المكونة لقوة قابيل. . إنها وجوه الشيطان الثلاثة ورمز التثليث. .

إضرب فرعون: ذلك معناه ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[1].

إضرب قارون: ذلك معناه (**المال مال الله**).

إضرب بلعم: ذلك معناه (**إن الدين كله لله**).

إعلم أن الناس إنما هم خلفاء الله في الأرض، وأنهم «عيال الله» وأن ميراث هذا العالم سيؤول للمتقين وحدهم:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[2].

---

(١) وردت في أكثر من سورة: الأنعام: ٥٧، يوسف: ٤٠، ٦٧.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

وإنَّ مسؤولية الفرد ليست قاصرة على ما يفعله فحسب، وإنما أيضاً على ما يفعله الآخرون:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾[1].

* * *

إنك قد تسأل: أيّ هذه الأصنام الثلاثة يمثل (فرعون) رمز الطغيان؟..

وأيها يمثل (قارون) رأس المال ورمز الرأسمالية؟..

وأيها يمثل (بلعم) رمز النفاق؟..

إنَّ كل من يحمل في صدره الوعي الإبراهيمي سيصدر عن تصوره الخاص في تحديد ذلك، وعن مناهجه التي يطرحها للتغيير الاجتماعي، وعن مسؤوليته القائمة على الظرف السياسي الاجتماعي الذي يعيش فيه مجتمعه..

قد يعتبر الصنم الأخير هو:

فرعون.. لأولئك الذين يهتمون بالسياسة، ويعيشون تحت وطأة القهر والحكم العسكري والفاشية.

قارون.. لأولئك الذين يهتمون بالاقتصاد، وينظرون إليه باعتباره البناء الذي أسس عليه المجتمع.

بلعم.. لأولئك المثقفين الذين يعتقدون أن التغيير

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.

الاجتماعي لا يمكن أن يقع إلاّ إذا قام كفاح أصيل ضد الجهل، وضد بؤس العقل، وضد كل ما يجعل الناس يتعلقون بأنماط الشرك التي تتخفى تحت غطاء التوحيد.

في رحلتي الأولى والثانية إلى الحج كنت أعتبر أن الصنم الأخير هو (بلعم)، وكانت رصاصتي تنطلق بهذه النية، وخاصة عندما وجدت أن ذلك يتفق مع ما جاء في الآية الكريمة:

﴿اتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾[1].

إنَّ الله تعالى يدين الطغيان والجهل والنفاق، ويكشف أولئك الذين يدعون «قادة روحيين» بينما هم ـ بوعي منهم أو دون وعي ـ يضلّون الناس بدلاً من هدايتهم..

إنَّ الله غاضب عليهم؛ إذ يقول عنهم:

﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾[2]

ويقول عنهم أيضاً:

﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾[2]

هناك دليل آخر على نيتي، وهو تلك الكلمات القوية التي خاطبنا بها الله سبحانه في سورة الناس آخر سور القرآن الكريم..

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣١.

(٢) سورة الجمعة، الآية: ٥.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.

في هذه الآيات يخاطب الله تعالى رسوله ﷺ وهو الذي أنيطت به مسؤولية القيادة العظمى لمسيرة الإنسانية الحرة. . ومع ذلك يحذّره الله تعالى من ثلاثة مخاطر ليس هو بمأمن منها، ومن ثم فلا بدَّ له أن ينشد «الملاذ» عند الله. . . .

في تلك السورة اختص الله تعالى ذاته بأسماء ثلاثة؟

الرب.. الملك.. الإله

وهي نفس الخصائص الثلاث التي يجهد الشيطان دائماً في خلعها عليه، ولكن في هذه الآيات نجدها من صفات الله تعالى وحده. . .

وها هو إنسان مثل النبي محمد ﷺ يُرْشَد إلى نشدان الملاذ عند: الرب الملك الإله. ما الذي ينبغي أن يحتمي منه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم؟ . . .

إنه خطر الخناس: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾[1].

في منى ـ حيث حاول الشيطان إغواء إبراهيم ـ فإن الصنم يمثل «الخناس» الذي يقوم مقام القيادة الروحية، ويبيع إيمانه مقابل الثروة والمال، وهو كذلك الذي يبيع معرفته أو ذكاءه العلمي!

---

(١) سورة الناس، الآيتان: ٤ ـ ٥.

القرآن الكريم يشير بوضوح إلى أن ما فعلته هذه الفئة من الناس، هو أشد ما عرفه التاريخ البشري من تدمير وتفتيت لعرى الوحدة الإنسانية، وتضليل الآدميين وإذكاء لأوار الفتنة العنصرية، حيث كان الناس ـ من قبل ـ أمة واحدة تعيش في كنف السلام والتكافل . .

وهي نفس الفئة التي تزعم أنها المسؤولة عن الحكمة والقيادة الروحية للناس، وبينما هم يدركون تماماً ما تحمله نفوسهم من حسد للآخرين وحقد وقسوة عليهم وخيانة لهم: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[١].

* * *

لكن . . .

الحج له دلالات أكبر بكثير مما يمكن أن يستوعبه عقلي ويتفهمه.

كل مرة أذهب فيها إلى الحج أشعر أن معرفتي قد ازدادت وأن رحلتي التالية ستكون تكراراً لما عرفت . .

لكن . . لدهشتي فإنّ توقعي لا يصدق . .

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.

وأنت أيها القارئ العزيز لا تحسبن أن ما قلته لك هو كل ما ستتعلمه من تجربتك مع الحج أو أثناء أداء المناسك . .

كلا ، كلا ، كلا ! !

إنَّ هذا ليس كتاباً يصف لك شعائر الحج . . بل هو مجرد مثيرات لتجعلك تفكر .

هذا الكتاب هو نتاج قدرتي المحدودة على التحليل والتلخيص لعرض رمزي معجز ، حيث أن المهيمن على خشبة العرض هو المهيمن على الكون الكبير .

بوضوح : لقد حاولت أن أصبّ البحر في إناء ! ! !

في كل مرة أذهب فيها إلى الحج أحاول أن أُقَيّم بعض ما استنبطه من مرّتي السابقة ، وذلك حتى أستكمل تفسيراتي ، ولكني أكتشف مع ذلك فصولاً جديدة وعِبَراً جديدة . .

في المرة الأخيرة التي ذهبت فيها إلى الحج كنت أسائل نفسي : لماذا أحاول أن أحدد ما لم يحدده مدبر العرض؟ !

هل من الضرورة أن أعرف كل صنم؟

لقد فعل ذلك مدبر العرض ؛ إن غياب التعريف هو في حد ذاته تعريف .

أليس صحيحاً أن الأصنام الثلاثة تمثل واحداً بينما كل منها على حدة يمثل ثلاثة؟

إنَّ تمييز الأصنام الثلاثة يحدد القوى الثلاث المرتبطة

ببعضها، وإن غياب الهوية يدل على أن أي واحد منها يختفى في داخله الأثنان الآخران، ومن ثم حين ترمي أحدها اجعل نيتك رميها جميعاً. . .

لكن بعد كل ذلك فإننا بعقولنا البسيطة وعبر تفسير أهل الذكر من الناس كل مرتكز إلى حقله المعرفي واهتماماته، تجدنا نلجأ دائماً إلى التصنيفات من قبيل: الاجتماعي، والفلسفي، والتاريخي. والنفسي. .

أمّا مشرّع الحج ـ سبحانه ـ الذي يعلم أنه ما من ثقافة أو حضارة في أي حقبة من الزمان وعبر أي نظام أو بنية اجتماعية أو طبقة أو علاقات اجتماعية، فإن كل واحدة من القوى الثلاث تكون في موقع سدة الحكم بينهما القوتان الأخريان يدعمانها، . وعندما ترمي واحدة تفتح الأبواب للنصر وتبدأ احتفالك بالعيد! . .

إذاً عندما تبلغ (منى) محملاً بذخيرتك عليك أن تهاجم وتقتل الصنم الأخير. .

بغض النظر عن المكان الذي أتيتم منه: من مجتمعات رأسمالية متقدمة. . أو مجتمعات عتيقة مظلمة متخلفة. . أو أنظمة فاشية ديكتاتورية. . أو مجتمعات حكم الفرد. . فإنكم جميعاً ترمون نفس الصنم، . لكن النوايا تختلف وتتعدد!

الصنم الأخير يدعم الصنمين الآخرين. .

(فرعون) يعطي المشروعية للنهب الذي يزاوله (قارون). .

(قارون) يدعم (بلعم) بماله . .

(فرعون) يدعم (بلعم) بسلطانه . .

(بلعم) يقوم بربط سلطة (فرعون) بالقوة الإلهية المطلقة . .

تماماً كما نفعل حينما تتشابك أيدينا حتى يجد كل منّا السند لنفسه، وفي نفس الوقت ندعم بعضنا البعض . . !

وهكذا ليس مهماً من أي مكان جئت، ولا إلى أي نظام تنتمي ما دمت في مقام إبراهيم وتتحمل مسؤوليته، ونيتك متوجهة لضرب الأصنام الثلاثة . .

ارم الصنم الأخير، وبذلك تنتصر على قاعدة الشيطان، وتبطل إغواءه . .

إذاً! هل رميت الصنم الأخير؟

وفي وجهه؟

وعلى رأسه؟

هل اخترقته الرصاصة؟

سبع رصاصات؟

سبع مرات ترمز إلى أيام الخلق السبعة، وإلى السماوات السبع، وأيام الأسبوع السبعة (جهاد ماض إلى الأبد منذ أن بدأ مع بدء الخليقة متصلاً إلى يوم القيامة، ومعركة لا يتخللها هدنة، ولن تقوم خلالها علاقة سلم مع أي من الأصنام الثلاثة . . كن كأنك

دائماً في منى وفي حالة حرب مع الأوثان).

يا إبراهيم، عندما يسقط الصنم الأخير يتعطل الشيطان ويقتل تحت وابل رصاصك! أيها الإنسان.. يا خليقة الله في الأرض، لقد طردت الشيطان كما فعل الله! وهزمت المَلكَ[1] الوحيد الذي رفض السجود للإنسان..

الآن أنت إنسان حر مثل إبراهيم، وأصغيت للرسالة، وأدركت الحقيقة.. وبعد أن ترمي الصنم الأخير ضحِّ بإسماعيلك..

من أجل الحق وفي سبيل الحب. كل شيء يمكن أن يضحى به... تقدم إلى محل الأضحية بقلب يملأه الحب..

ولتتبع إبراهيم..

خذ إسماعيل بيد (كائناً من كان أو كائناً ما كان.. فهو ذلك الذي يقع لديك موقع إسماعيل لدى إبراهيم) واقبض باليد الأخرى على «سيف إيمانك» الذي ستقطع به عنق إسماعيل أمام عينيك..

تجاوز كل شيء، وانشد عون الله فيما أنت مقدم عليه بكل وعيك وإدراكك وكامل يقظتك وانتباهك.

أيها الإنسان!...

---

(١) هنالك من يرى أن الشيطان (إبليس) كان من الجن العابد، فرفعه الله إلى مصاف الملائكة.

من أجل الحب والحق ضحِّ بإسماعيلك وبكبش فداء في أرض (منى)! . .

إنَّ الله تعالى ليس متعطشاً للدماء في مذبح منى وليس في حاجة إلى إسماعيلك[1]، بل سوف يرسل لك الكبش فدية . . .

لقد جاء بك من ركن بيتك إلى بحيرة الدماء في مذبح (منى) لتعبر وتهاجم وتقتل رموز الشيطان وأنت تضحي .

وحينما تكون على استعداد للتضيحة بإسماعيلك في سبيل الله تنتصر على الشيطان، وسوف يسلم إسماعيلك ويقف فخوراً إلى جانبك . . .

عجباً! . . . .

مثل هذا الدرس العظيم يتلقاه الإنسان في شعاب هذه الجبال . .

لقد فعلت ما فعله إبراهيم، وصار إسماعيلك معك، أما ما ضحيت به فهو حبه وهو ذاته الذي أغواك به الشيطان . . .

فإسماعيل هبة من الله، والله يحبه، وسيدفع فديته! . .

عندما تعود من (منى) لا تنس أن تكون وفياً لعهد السير على سُنّة إبراهيم وقبول مسؤولية الدعوة إلى الرسالة . . اذهب إلى

---

(١) يقول تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ سورة الحج، الآية: ٣٧.

شعبك، ونادي فيهم ليؤسسوا أرض السلام، ويعيشوا في مجتمع السلام، ويبنوا بيتاً هو رمز الأمن والسلام والحرية والمساواة والحب . . . للإنسان!!

* * *

العيد

لقد اكتملت المشاهد والحج على وشك الانتهاء!

أين؟!.. في منى؟!

يا للدهشة!.. على مرمى حجر من مكة؟!...

لماذا ينتهي الحج هنا بدلاً من أن ينتهي هناك في مكة إلى جوار الكعبة؟!

يجب أن تدرك مغزى مناسك الحج، وتكون على وعي تام بما تفعله وأنت في خضم هذا الزحام... يجب أن تكون قادراً على التفكير هنا وليس هناك في ركن بيتك وأنت هائم في أحلام اليقظة!

الحج هو كل ما يحضّ على التماسك.

الحج هو البقعة التي تلقى فيها الله وإبراهيم ومحمد.. والناس.

خليطٌ مجتمعٌ من الكثير من الأعراق والأجناس والألسنة والأنظمة . .

ومع ذلك تجد هذه الثلة منسجمة متآلفة ومتناغمة ثقافياً وعقيدياً وغاية وحباً! . .

إنهم ليسوا مجموعة منتقاة من أصحاب السلطة أو من طبقة اجتماعية معينة، إنهم أنماط منحدرة من كل أنواع الأجناس والطبقات والطوائف . .

إنهم هنا تجمع له مشكلاته المحددة هي ـ على وجه العموم ـ واحدة وإن تعددت؛ فهم الممثلون الحقيقيون لأمم مختلفة يلتقون هنا .

❊ ❊ ❊

«الاستطاعة» في الحج تعني قدرتك على الذهاب وعلى فعل ما سبق أن فصلنا فيه القول، وليس معناها أن تكون غنياً كما شاع في الفهم الخاطئ . .

إنَّ الحج ليس ضريبة على الثروة، ولكنه واجب مثل الصلاة . .

إنَّ معنى استطاعتك هو أن تكون قادراً وعندك من الحكمة ما يجعلك تدرك ما الذي تفعله . . إنها نفس الشروط التي يجب توفرها لأداء أي واجب! . .

❊ ❊ ❊

أيام أخر في منى

ما زال أمامك يومان تبقى فيهما بمنى.

أمعن التفكر فيهما في عقيدتك، وفيما فرغت لتوك من أدائه..

بحلول العيد وبعد الأضحية تنتهي المناسك..

لكن لا بدَّ أن تبقى في منى يومين، أو ثلاثة أيام ـ إن كان في مقدورك ـ لا تغادرها، ولا حتى لتعود إلى مكة! لماذا؟! لقد انهزم الشيطان، وقُدِّمَ القربان، وخُلِعَ الإحرام، واحتفلنا بالعيد! لماذا يجب أن يبقى أكثر من مليون من البشر في هذا الوادي ليومين أو ثلاثة؟!.. في هذا الوقت يتاح لهم أن يتفكروا في الحج، ويتفهموا ما فعلوه..

وبإمكانهم ـ كذلك ـ تداول مشاكلهم مع المسلمين القادمين من بقاع شتى من المعمورة، فهو مؤتمر إسلامي عام يضم المؤمنين

ليقرروا ما يصلح دينهم ودنياهم . .

إنَّ مفكري الإسلام ومثقفيه الذين يجتمعون هنا، والمجاهدين في سبيل الحرية ضد الاستعمار والطغيان والفقر والجهل والفساد في بلادهم يتعرّفون على بعضهم ويتداولون مشكلاتهم ويصلون لبعض الحلول، ويشدون أزر بعضهم بعضاً متعاونين متساندين.

إنَّ عليهم أن يدرسوا المخاطر التي تحدق بالأمة، ووسائل مقاومة المؤامرات التي تحيكها القوى العظمى وعملاؤها المندسون داخل البلدان الإسلامية.

إنَّ عليهم أن يعقدوا العزم على محاربة الاستغفال والإعلام والتفرق والضلال والمذاهب الهدامة، وأمراض أخرى كثيرة تهدد كيان الأمة . .

إنَّ عليهم أن يرفعوا راية الجهاد العام خفاقة في أرجاء العالم، من أجل تقديم حقائق الإسلام ومساندة قضية الحرية لكل الشعوب المستعبدة، ومن قبلها لتلك الأقليات المسلمة التي تعاني الاضطهاد من أنظمة غاشمة جائرة . . .

وعبر هذا النسق من التعاون وتبادل الرأي والشعور، تكتسب الأمة المسلمة مزيداً من القوة في جهادها ضد عدوّها المشترك . . .

إنَّ فهماً أفضل لعقيدة الإسلام قد ينبثق عندما تحلّ بعض الخلافات العقائدية بين الطوائف المذهبية للمسلمين.

*** ***

أكثر من مليون مسلم من كل فجاج الأرض يبقون ثلاثة أيام في (منى) ذلك الوادي القفر؛ حيث لا تجد مكاناً يجذب الناظر أو يشغل وقته بممارسة أي فعل أو لشراء شيء، ليس به حتى ميدان أو حديقة تتجول فيها، كما أنه ليس مكاناً للسكنى؛ فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا بناء في منى». .

في لحظات البقاء هذه يكتسب المرء ـ عبر مرانه خلال ما مر به في رحلة الحج ـ حرية إرادته من كل سند وتدعيمها بإرادة (إبراهيم) القوية وشخصيته العظيمة. .

لقد هزمت كل المخاوف والأطماع والغرائز في ذروة من توهج قوة الإرادة والشعور بالمسؤولية، والقلب يملأه إحساس الانتصار في الميقات والطواف والسعي وفي عرفات وعند المشعر الحرام ومنى: الرمي، والأضحية، والاحتفال بالعيد في إخلاص عظيم.

نعم. . في هذا الوقت وعلى هذه الأرض أكثر من مليون مسلم لا يختمون الحج متفرقين ـ كي يستأنفوا حياتهم الخاصة ـ كلا! . . بل يجلسون مجتمعين في هذه البقعة يتداولون حول مشكلاتهم ومستقبلهم.

فالحج هو أن تأتي هنا في الميقات المحدد، وأن تؤدي هذه المناسك مع الناس، أما غير ذلك ـ كأن تذهب إلى كل أماكن الحج في ميقات الحج وليس معك أحد ـ فليس هذا بالحج. ، بل هو سلوك لا معنى له! . . وقد يعتبر جولة سياحية!! . .

ولكن هذا الوقت ـ الذي يوجد فيه الناس ـ هو الوقت الذي يعبقه المناخ الروحي، أما غداً ـ عندما يرحل الجميع ـ تعود (منى) مرة أخرى مثل كل البقاع لا يميّزها عن غيرها إلاَّ أنها جدباء قفر من السكان.

إنك هنا لتتعلم أنه: «دون الناس» فإن السعي للجنة لا يعدو أن يكون إحدى طرائق الرهبنة المستقبحة، وأن: انتظار العائد المادي المؤجل أسوأ من دفعه لك في الحال؛ لأنه الطمع الذي يحتفظ بشراهته إلى يوم القيامة.

وبكلمات أخرى: إنه نفس سلوك البرجوازي الذي يفضّل التأجيل على أن يدفع له في الحال لأنه يضمن له رصيداً أكبر.

والمنقطع أناني مثل المادي، فالأخير يستعمل تقنياته، والأول يستعمل إيمانه... المادي ينتفع بالعلم ليستمتع بحياته، والمنقطع يستعمل الإله لتلك الغاية..

كلاهما يسعى للهدف نفسه، لكن أحدهما يريده لحاضره والآخر لآخرته.

لكن إسلام إبراهيم عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وآله يعلمنا أن الله سبحانه يكره المنقطع الأناني:

«من بات ولا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»

صحيح أنك أديت فريضة الحج، وسموت إلى مقام إبراهيم عندما ذبحت إسماعيلك، لكن هذه ليست نهاية المطاف بقدر ما هي بداية واجبك..

كل هذه المناسك إنما كانت لتنكر «خدمة الذات» ولتنتقل «لخدمة الآخرين» ليس من أجل ذلك دعيت إلى هنا أثناء موسم الحج لتكون مع الناس. . أما أن تأتي هنا وحدك فليس هذا بالحج.

***

الآن. . . . . . .

في خاتمة هذا الأداء. . . . .

والجميع قد هزم الشيطان ـ كما فعل إبراهيم ـ وذبحوا الذاتية واحتفلوا بالنصر وقبل العودة إلى مكة للوداع. . يجب الوفاء بأمرين واجبين:

* أن يأسسوا حلقة حوار علمي ونظري «سمينير»[١] حيث يتاح لكل شخص أن يحضر.

* وأن يقيموا مؤتمراً عالمياً شاملاً.

اليومان الزائدان في منى هما من أجل أن يختصر الحج في هذه المؤتمرات التي لا تنعقد خلف الأبواب المغلقة وداخل القاعات المضاءة، ولكن في الهواء الطلق في هذا الوادي، حيث لا يوجد سقف يقترب من الرؤوس، ولكن تحت سماء زرقاء صافية بلا جدران ولا مداخل ولا حدود ولا حرس. . ولا مراسم!. .

هذه المؤتمرات لا يحتشد فيها رؤساء الدول ولا ممثلوهم

---

(١) سمينير: Séminaire: مدرسة إكليريكية خاصة بدرس فرع من العلوم العالية. «المصحح».

ولا الدبلوماسيون ولا القيادات السياسية ولا أعضاء البرلمان ولا الوزراء ولا أعضاء مجلس الشيوخ ولا أساتذة الجامعات ولا العلماء ولا المفكرون ولا أئمة الدين. . . كلا! كلا!

﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[(١)].

كما يقول (إيمى سيزار)[(٢)]: (ليس لأحد الحق في أن يكون قيّماً على الأخرين).

وكما يقول بروفسور (شاندل): (إن الحديث باسم الآخرين وهم غائبون كذب وعار، إذ إن الله وحده له الحق في التقرير للناس لأنهم خلفاؤه في الأرض)

هذا هو الغرض من المؤتمر الذي يعقد في (منى)، حيث القيّم هو الله تعالى الذي يجتمع الناس هنا في ضيافته. . .

بعد هزيمة الشيطان والعودة من محل (الهدي) يدعو الله تعالى الجميع ليشهدوا هذا اللقاء، وليجدّدوا وعدهم مع إبراهيم، وليكون الله شهيداً على بذل الوسع في دعم عقيدة التوحيد وتحطيم كل الأصنام الباقية في العالم وتأسيس مجتمع العدل والسلام.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٢٧.

(٢) إيمي سيزار: شاعر وسياسي فرنسي. زنجي الأصل. تأثر بالسريالية، وعبر عن توقه لتحرير الزنوج. دعا إلى الانعتاق من الثقافة الغربية والعودة إلى ينابيع التراث الزنجي. «المصحح».

إنهم الأتباع الصادقون للنبي محمد ﷺ الذي صنع أولئك البشر المفكرين الواعين الذي حملوا مسؤولية الرسالة، وشيدوا المجتمع النموذجي والأمة الشاهدة على قاعدة التوحيد، وساندوا أمانة الحكمة والإمامة والقسط في حياة الناس.

(منى) هي أرض الحب والجهاد والشهادة. .

(منى) هي المكان الذي يتواثق فيه الناس مع الله. . .

إنهم أمة واحدة تتعاهد على فعل الخير ومقاومة الشر في حياة الناس، وعلى تلبية نداء الرسول ﷺ الذي حمل كتاب الله بيد والسيف باليد الأخرى، متخذاً القرار الصائب بمواجهة العدو العنيد والتحالف مع الأصدقاء.

في هذا المؤتمر المنعقد بعيداً عن أقطار تغمر أراضيها دماء القتلى، يدعو رب الناس ملك الناس إله الناس. . يدعو المسلمين من كل فجاج الأرض، ومن مختلف النُظُم السياسية ليجتمعوا تحت سماء هذه الجبال في حديث حر ينشد التعاون للقضاء على مشكلاتهم. . وهو أيضاً اجتماع علمي، لكنه لا ينعقد في قاعات أكاديمية، ولا يشبه تلك الملتقيات المتكلفة لأساتذة الجامعات وحلقات العلماء وأصحاب التخصصات العالية.

كلا. . . إنهما يومان تنعقد فيهما حلقة الحوار العلمي مؤتمر روحي وفكري حيث يشارك فيه أي متعلم أو أُمي، أستاذ أو حرفي، قائد روحي أو مزارع بسيط، . . . . كل من يريد المشاركة له حق الحوار المفتوح. . كل الرتب وكل المواقع وكل الدرجات

وكل الألوان، فقد تركوا الفوارق خلف ظهورهم عند المواقيت!..

هنا الجميع يمثل واحداً... الإنسان.

والكل له ذات الدرجة (حاج!).. هذا هو كل ما في الأمر.

* * *

لا يوجد في مستويات الرقي البشري مستوى أرفع من مقام (إبراهيم) الذي يُطلَب من الجميع هنا أن يتمثلوا دوره...

ومع نهاية هذه المناسك وقبل أن تعود إلى وطنك يجب أن تبقى يومين آخرين في (منى) بعد العيد مع الناس.. تجلسون وتسألون فيهما أنفسكم السؤال العظيم الخالد نفسه:

ما الذي يجب علينا أن نفعله من أجل مجتمعنا؟

لكي تهتدوا للإجابة لا بدّ أن يجلس كل واحد ويفكر في ما قام به أثناء الحج.

* * *

إجمال

الآن دعنا نجمل ما تعنيه بعض المصطلحات التي يجب علينا أن ندرك جوهرها فيما نقوم به من مناسك الحج:

التصوف: يبدأ في (منى) ويبقى هناك إلى الأبد، ولا يعبر إلى عرفات أو المشعر الحرام.

الفلسفة: تأتي إلى المشعر ولكنها لا تبلغ منى.

المدنية: تبقى في عرفات ولا تصل المشعر الحرام أو منى.

الإسلام: يبدأ من عرفات في رحلة مليئة بالمسؤولية والحركة، ويواصل إلى منى في رحلة المثل والحب واللقاءات المدهشة مع الله، ثم الشيطان!..

* * *

هنا يتحدثون عنك أنت وعن مصيرك، وليس عن موجودات العالم الأخرى...

فالله تعالى الذي يملك كل موجودات هذا الكون يتحدث هنا عن الإنسان الذي يضم بين جنبيه النفخة الربانية والطين اللازب أو الحمإ المسنون . .

هذه الثنائية موجودة في الإنسان، ولكنها لا تقوم في الطبيعة . .

إنَّ (منى) هي أرض الحب والإيمان والمستقبل، فحينما تتصارع في داخلك نوازع الخير الربانية وهمزات الشيطان ووساوسه من أجل إسماعيلك تكون (منى) هي أرض آمالك ورغباتك.

ولكن تكون دهشتك حين يأتي يوم نصرك في يوم العيد الدامي، وبدلاً من حفل عيد الميلاد، هناك حفل الفداء من أجل الابن!

إنه عيد الفداء . . . . انظر إلى قيم هذه الأمة وما ينبثق عنها من أعراف وتقاليد وتاريخ وألقاب، إنها لا تعبأ بعلاقة الدم أو الأرض، ولكنها تُعوِّل على العقيدة والجهاد؛ فهي أمة التوحيد التي تحمل مسؤولية حرية البشرية من لدن آدم عليه السلام وحتى يرث الله الأرض ومن عليها . .

إنَّ أبناءها هم جند الإيمان الذين يجاهدون ـ حتى أنفسهم ـ وقد امتدوا على طول جبهة القتال من (بدر) إلى (منى) . .

إنهم العبيد الذين أدركوا بعمق معنى الحرية! . .

لقد حرروا أنفسهم ليس من فرعون فحسب، ولكن من إسماعيلهم أيضاً. .

لقد حرروا أنفسهم ليس من الأعداء فقط، ولكن من ذوي القربى كذلك. . .

* * *

الهجوم التالي المترتب على العيد

أثناء الهجوم الأول الذي قمت به في اليوم الأول عمدت إلى ضرب الصنم الأخير، وأفسحت الطريق إلى محل الفداء، ثم تحللت من ثياب الإحرام واحتفلت مبتهجاً بانتصارك! . .

في اليوم التالي لا بدَّ أن تعود إلى الرمي مرة أخرى، لكن عليك أن ترمي الأصنام الثلاثة جميعاً. . . .

في هذه المرة تدور راجعاً لتضرب الصنم الأول بادئاً به، ثم الثاني، وفي النهاية ترمي الصنم الأخير.

يومك الثالث هو تكرار لما فعلته في يومك الثاني . .

في اليوم الرابع قد تبقى بمنى وقد تغادرها، فإذا قررت البقاء فيجب عليك عندئذ ـ أن تعود للرمي كما كنت تفعل في يومك الثاني والثالث، وإذا قررت أن لا تبقى فعليك عندئذ أن تدفن بقايا سلاحك في مكان ما تحت أرض (منى). . هذا واجب!

* * *

هذه الأيام التي تلي العيد تسمّى أيام التشريق. . . .

ما الذي تعنيه؟

في اليوم العاشر من ذي الحجة تكون قد ارتقيت إلى مقام إبراهيم، وبلغت من الشجاعة ما جعلك تضحّي بإسماعيلك، وهزمت الشيطان في قاعدته الأخيرة ساعة هجومك الأول، وتقدمت بالقربان، ثم تحللت من الإحرام، وغدوت من جبهة القتال في (منى) منتصراً. .

لماذا إذاً تواصل القتال؟!

هناك درس آخر: لا تنس أنّ الشيطان باقٍ حتى بعد أن يهزم. .

كل ثورة مهما يكن مقدار نجاحها هي على خطر من «أعداء الثورة». .

إنَّ الأفاعي الهامدة قد تستيقظ وتبدل ألوانها وأنت فرح بانتصارك وفخور بقوتك أو مستغرق في احتفالاتك! . .

إنها قد تتظاهر بأنها صديقتك حتى يتسنّى لها الانضمام إلى صفك لتحطم حركتك من الداخل وتقطف ثمار ثورتك، ومن ثم تصبح هذه الأفاعي (أعداء الثورة) الوارثين جند العقيدة واللابسين شارة الحداد والحزن على الشهداء. .

إنَّ النصر ينبغي ألاّ يجعلك تخلد إلى الاسترخاء. .

لذا بعد أن تهزم الشيطان في (منى) لا تُلقي بسلاحك من يدك.

لقد قهرت الشيطان حتى أخرجته من بابك ولكنه قد يعود إليك من النافذة! . .

لقد هُزِمَ في خارجك لكنه قد يستيقظ في داخلك . .

لقد صرع في الحرب لكنه قد يستحوذ على السلطة في السلم . .

لقد هلك في منى لكنه قد يبعث فيك! . . .

ما الذي أقول؟! . .

الإغواء له آلاف الوجوه . . . .

فالشيطان قد ينبذ لأنه كافر، لكنه يعود في هيئة رجل شديد الإيمان . .

وقد يطرد لأنه مشرك لكنه يتمثل في ثياب التوحيد . . .

قد تدفنه في بيت الأوثان لكنك تلقاه منتصباً أمامك على المنبر . .

قد تقتله في بدر لكنه يعود في كربلاء . . .

قد يطعن في غزوة الخندق بالمدينة لكنه يظهر في مسجد الكوفة . . .

قد تمسك بيدي الصنم هبل في أُحد لكنه سيرفع المصاحف على أسنّة الرماح في صفين.

يجب ألاّ تكون ساذجاً وتظن أن الحرب قد انتهت عندما

هزمت الشيطان في اليوم العاشر من ذي الحجة بمنى، ومن ثم تخلع عنك زي الحرب وترتدي ثيابك المدنية وتعود إلى الزينة والعطر، وتحتفل بانتصارك، وتتجاهل الخطر، وتستشعر أنك حر لتغادر منى إلى مكة مستغرقاً في العبادة، أو الاستعداد للعودة إلى ديارك لتستأنف أعمالك من جديد.

أنت. . . !

يا جندي الإيمان السائر على درب إبراهيم، لا تنس أن العاشر من ذي الحجة هو «عيد الفداء» وليس «عيد النصر»! . . .

إنَّ التضحية بإسماعيل هي بداية الحج وليست نهايته! . .

بعد نجاح «الثورة» يا جنود التوحيد لا تلقوا بأسلحتكم جانباً، ولا تستغرقوا في نشوة النصر أكثر مما يجب.

إنَّ هناك خطر دائم داهم من الجيش المهزوم. .

لقد أطيح بالقواعد الثلاث، لكن الأصنام الثلاثة ضاربة أطنابها في (منى). .

بعد العيد ينبغي أن تحتفظ بروح البطولة وتظل مستعداً للقتال في أي وقت. .

وعليك ـ بمعونة بقية الجنود ـ أن تعدُّوا معاً خطة محكمة التوقيت ومضبوطة الخطوط للقضاء على تلك المؤسسات، واضعين في اعتباركم الحقائق التالية:

* الثورة دائماً في خطر، بما في ذلك أكثرها نجاحاً. .

* لا تكن فخوراً، حتى بعد أعظم الانتصارات . .

* ما زلت في خطر، حتى لو كنت إبراهيم نفسه، وحتى بعد أن تضحي بإسماعيلك . .

الشيطان له أوجه عديدة وأقنعة لا حصر لها وحيلاً مثل الأقنعة . .

لقد حاول خداعك مرة بحياة إسماعيل، واليوم قد تنخدع له بفخر التضحية به!

كن دائماً مستعداً للقتال ورمي الجمرات!

ما دمت في (منى) إرم رصاصاتك على الأصنام . .

إنَّ (منى) هي أرض الإيمان والحب، ومكان آمالك وحاجاتك، وهي جبهة كل أمجادك وانتصاراتك الكبيرة، وهي حجك وذروة كمالك ومثال حياتك . .

إنَّ (منى) هي الخطوة الأولى نحو التوحيد، وهي في الوقت نفسه الكمين الذي يتربص فيه الشيطان ألد أعداء الإنسان . . . !

أنت دائماً في (منى) أو (منى) دائماً فيك!

أنت دائماً في خطر ما دامت الطواغيت مستعدة دائماً للتمرّد.

بعد العيد وأثناء بقائك في (منى) إرمِ الأصنام كل يوم . . .

* * *

* كن دائماً مستعداً للجهاد في سبيل الإيمان والحرية طوال عمرك . .

* الجهاد في سبيل الإيمان لا يكون من أجل أن تحكم أو تستحوذ على السلطة . .

* بهزيمة العدو لا ينتهي جهادك . .

* احتفل بعيد الفداء لا بالنصر . .

* اخلع زي الحرب، لكن لا تلقي سلاحك . .

* النصر قد يتحقق يوماً لكنه يوشك أن يضيع بالإهمال . .

* قد تكفي رمية واحدة لهزيمة العدو، لكن عليك أن ترميه بسبعٍ لكي تتأكد أنه مات .

* قد يكفي هجوم واحد وسبع رميات لتستولي على قاعدة العدو، لكن حتى تقضي عليها تماماً تحتاج لأكثر من هجوم وترمي أكثر من سبعين رمية . . .

* اطرح السلاح «الحصى» الذي جمعته في المشعر للقسمة . .

كم معك؟

سبعون

هنا أيضاً «سبعة» و «سبعون»!

في اليوم الأول (العاشر من ذي الحجة) يهاجم الصنم الأخير بسبع طلقات . . وفي اليوم الثاني والثالث ثلاث هجمات وسبع طلقات لكل صنم :

ست مرات × ٧ حصيات = اثنتان وأربعون حصاة + سبع في اليوم الأول الحاصل يكتمل بتسع وأربعين طلقة أي رقم فردي!

الهجوم الأخير في اليوم الرابع (الثالث عشر من ذي الحجة) اختياري . .

إنَّ لك فيه الخيار كما تشاء . . .

إذا كنت لا تزال تستشعر الخطر فلك أن تبقى ويجب عليك عندئذ أن ترمي مثلما فعلت في اليومين السابقين.

وبهذا يكتمل عدد ما رميت سبعين حصاة:

تسع وأربعون حصاة + واحد وعشرون حصاة = سبعون حصاة.

من أجل أن تمنع الشرك من التنكر في ثياب التوحيد عليك أن تجاهد ثلاثاً وعشرين عاماً وتهزم الكفر وتحطم أوثان الأرستقراطية وتنتصر على جاهلية قريش . .

ويجب عليك أن تحطم القواعد الثلاث المتمثلة في: الاستعمار والرأسمالية والنفاق. والتي هزمت ـ من قبل ـ في بدر وأُحد والخندق[1] . .

---

(١) * بدر موقعة انتصر فيها المسلمون على مشركي قريش ٣هـ/ ٦٢٤م.

* أحد: موقعة بين المسلمين ومشركي قريش استشهد فيها عمُّ الرسول حمزة على يد الوحشي الذي أرسلته هند (أم معاوية) زوجة (أبو سفيان). وكان خالد بن الوليد هو صاحب الجيش الذي هزم المسلمين وجرح النبيﷺ ٣هـ/ ٦٢٥م.

* الخندق: وقعة تسمى بالأحزاب، حاصر بها المشركون المدينة بقيادة أبي سفيان. فأشار سلمان الفارسي بحفر الخندق فامتنع به المسلمون وارتدّ عنه المحاصرون وعادوا إلى مكة ٥هـ/ ٦٢٧م.

وعليك أن تقضي على الصنم الأخير في مئتي سنة من عمر الإمامة . .

وأخيراً لكي تمنع الخنّاس الذي انهزم في الجانب الآخر من الخندق استدر تلقاء الصف المنتصر وتسلم القيادة الإسلامية حتى وإن احتفلت بانتصار السقيفة ، فإن المقتول سينتقم في كربلاء ، وينشر دماء آل النبي على ضفة نهر الفرات . .

وما أكثر الظلم الذي اقترف باسم الخلافة .

* * *

الرسالة الأخيرة

إنَّ أفعال الحج هي نقل لتلك الرسالة التي حملها لنا القرآن بالكلمات . .

قبل أن تشرع في الحج ينصح بأن تقرأ القرآن ـ على الأقل ـ مرة واحدة، وأن تتعلم درساً من سورته الأخيرة . . .

لماذا السورة الأخيرة؟!

إنَّ آيات السورة الأخيرة تحذر من الخطر، بينما آخر أفعال الحج هو الرمي . .

في خاتمة الحج أنت مقدم على رمي الأصنام الثلاثة، بينما خاتمة القرآن تنكر القوى الثلاث.

في المرحلة الأخيرة من الحج يُحذِّر المسلم من (الخطر)، بينما تحذرنا السورة الأخيرة من (الشر) . . يا للغرابة!! . .

إنَّ القرآن يأتي إلى نهاية، بينما (الشر) لا يأتي إلى نهاية . .

والنبوة تختم، بينما الخطر يبقى . .

في السورتين الأخيرتين من القرآن يتحدث عن «التماس الملاذ من الشر» وهي تحذير لمحمد ﷺ خاتم أنبياء التوحيد الذي أكمل نبوة إبراهيم عليه السلام ، واليومان الأخيران في الحج يمضيان في (منى) حيث يجب على الواحد منا أن يقاتل، وحيث حذّر الله إبراهيم عليه السلام «أبو الأنبياء» . . . .

أنت . . !

أيها السائر على طريق محمد ﷺ وملة إبراهيم عليه السلام، عليك أن تفهم الإشارات وليس فقط أن تقلد الحركات . .

إلى أين ستذهب بعد (منى)؟! . .

أيها الحاج . . !

قبل أن تغادر (منى) إلى ديارك ، دعنا نجلس ونقرأ السورتين الأخيرتين من القرآن لتكتشف أي خطر كان نبينا المنتصر يحذّرنا منه . .

دعنا نصغي إلى ذلك الوحي، لنعرف ما الذي أخبر الله به رسوله الحبيب ﷺ حتى ينشد الملجأ منه :

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ .

مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ .

وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ .

وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾.

وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾[1].

هنا يشير الله تعالى إلى الأعداء الأجانب والغرباء عنك وعن بلادك الذين يجب عليك أن تحاربهم . .

ففي ظلمة الليل حيث يستحيل كل شيء إلى غموض . . يمتد ظلام الشر ويغطي وادي منى ومشهد عرفات . .

وتضيع في حلكة هذا الليل البهيم . .

تأمل المشعر الحرام ومثال الإيمان في منى .

في الواقع أنت في منى لكنك لا تدرك ولا تبصر قضايا هامة . . معك الحب لكن لا تعلم لمن! . .

ومعك الإيمان ولكن لا تدري بمن!

ضحّيت بابنك، لكن ليس في سبيل الله، وإنما أمام الشيطان! . .

الظلام في كل مكان!! . .

نعم رميت . . ولكن لم ترمِ الشيطان، وإنما الملائكة!! . .

وذبحت . . ولكن ذبحت إنساناً وليس كبشاً!! . .

وأديت السعي . . ولكن ليس رغبة وإنما تجاوباً مع شد لجام العدو!!

---

(١) سورة الفلق.

وبدأت الطواف. . ولكن لم تتجه بنيتك إلى الله وكأنك تدور في حلبة على أنغام القرود!!. .

إنَّ الطغيان في كل مكان: غاسق إذا وقب!

هناك مؤامرات خفية وأخرى مثلها جلية يقوم بنسج خيوطها الساسة الأذكياء وغاسلو الأدمغة والثرثارون والنمَّامون الذين يبتغون إزكاء الفتنة والفرقة والبغضاء. . ليحلُّوا «القبضات المرتفعة» محل «الأيدي المتشابكة»!. .

إنهم يتآمرون ليبدلوا العلائق. .

حتى يصبح أخوك هو عدوك، ويتظاهر عدوك بأنه أخوك. .

إنهم يقطعون كل وشائج القربى، ويلحقون الشلل بكل القرارات، ويضعفون إيمانك، ويلبسون الدين ثوب الطائفية، ويشيعون الفرقة بين الجماعة. .

وبذلك يسلس قياد كل الطوائف للصليبية (الإمبريالية) (غاسق)، وعملائها (النفاثات).

أخيراً: الحسَّاد. . !

تلك الفئة التي يجب أن تفكر فيها بإمعان.

هذا النمط من الأشخاص ليس مثل ذلك النوع المريض الذي يكتم غيرته في قلبه، لكنه النوع الحاسد.

ليس هو بالأجنبي الطاغية (غاسق)، والذي يعمد إلى إنفاذ إرادته بالقوة الظاهرة، وفي الوقت نفسه هذا الحاسد هو دون

العميل أو (النفاثة) الذي يعمل خفية من أجل سيده أو من أجل المال. . .

كلا!. . إنه من المعارف أو زميل أو قريب أو مخادع أو دمية تقترف الخيانة وتتظاهر بالصداقة. . .

وهو قاتل يزعم البراءة، أو مفسد لا تحوم حوله الشبهات. . .

أو هو ذلك الذي يصنع المتاعب لا إرادياً مدفوعاً بأشد الأمراض استعصاء على الشفاء: الحسد. . .

هذه العقدة تظلل الثورات المنتصرة، وتصدِّع جند الحرية في تفانيهم وفدائهم، وتبث الأحقاد الدموية بين الأصدقاء. .

والمحصلة هي أن يصبح المؤمن الصادق دمية بين الكفار. .

إنَّ الكفار ليحكموا هذا الأداء بذكاء يحجب عن الناس الوعي بخططهم(١)!. .

ولهذا ترى أن خيمة الطغيان المظلمة قد نصبت في (منى) بالقرب من الكمين الذي يتربص فيه العملاء!. .

لكن ماذا عن ذلك الحاسد المريض الذي لا يبدو عليه أنه العدو؟!. .

---

(١) هناك حقيقة يشير إليها المؤلف وهي عملية توجيه تيارات الفكر والحركة داخل البلدان الإسلامية والعمل على تطويرها لصالح دول العالم الأول (أوروبا وأمريكا) وتجنيد العملاء لهذا الغرض الدقيق الخطير والمستمر.

إنَّه ـ رغم احتمال كراهيته للعدو أكثر منك ـ دمية! . .

إنَّه ـ وفقاً لمصطلح الشر ـ في آخر المواقع؛ فهو يمثل الصنم الأخير الذي يرمى في اليوم الأول. .

إنَّه العدو الخفي لإيمانك ورجائك! . .

* * *

هنا مرة ثانية يتواجد الثالوث:

غاسق: الطاغية القاسي. . الصنم الأول

نفاثة: العميل الذي يفسد الأخلاق والأفكار. . الصنم الثاني.

حاسد: عين الطاغية ودمية العملاء والصديق العامل في خدمة العدو. . الصنم الثالث.

مهما يكن. .

فليس من العسير جداً أن تهزم هذه الشرور. .

انتظر حتى تبزغ أول أشعة الفجر. . مبددة الظلام. . ناشرة الضوء على وادي (منى)، إنها ستشعل النار في خيمة العدو وتطيح بالظلمة والجهل. .

والعميل المختبئ خلف الصخور سيضطر للفرار. .

وتبقى عقدة الحسد وحدها لا تمس، ولكنها سوف تدفن في قلوب أصدقاء مرضى! . .

* * *

كما يلاحظ الإمام الفخر الرازي[١] أن سورة الفلق تشير إلى صفة واحدة من صفات الله وهي: الرب.. بينما سورة الناس تشير إلى صفات ثلاث..

هذه دلالة على أن هناك عدواً أخطر يحتاج إلى جهد أكبر حتى يتم التخلص منه.

في سورة الفلق يصف الله تعالى نفسه بـ: رب الفلق.. أي رب الفجر.

والآيات في السورة تصف الظلام، وقوى الظلام في عدائها للشمس، ولكنها ستموت بالشروق..

أمّا في سورة الناس فإن الله تعالى يصف نفسه بـ: الرب، وبـ: الملك، وبـ: الإله وهي ذات القوى الثلاث أعداء الإنسان التي تعيش بينهم وتدّعي أنها ربهم:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ﴾

سورة الفلق تشير إلى هذا العالم، وإلى المجتمع حين تسيطر عليه قوى الظلام من الذين يعملون في السر ـ وعن إدراك ـ لغسل أدمغة الناس..

---

(١) الرازي: (١١٤٩م ـ ١٢٠٩) فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين الرازي: إمام مفسر أوحد زمانه في المعقول والمنقول من تصانيفه الكبرى «مفاتيح الغيب» في ثمانية أجزاء في تفسير القرآن و«المناظرات» ضمّنه مجادلاته مع المعتزلة وغيرهم. «المصحح».

كما تشير إلى الذاتيين والخونة وهي تتحدث عن ثلاث مصائب تحل بالمجتمع:

الظلم والظلام.. الفساد والانحراف.. حب الذات والخيانة

وفي ذلك من الذي سيضحي؟!

الحركات الثورية.. والمجتمع الإنساني.. والبشرية.

أمّا سورة الناس فهي تحدثنا عن نظام إجتماعي، وبنى إجتماعية..

تحدثنا عن القوى الحاكمة التي تصنع قرار الناس.

إنها تشير إلى العلاقة التي تربط بين الناس وربهم أو أبيهم الروحي..

إنها تخبرنا بالشر الحقيقي والعدو الطبيعي للناس..

إنها تخبرنا من الذي سيضحّى به هنا..

ليس المجتمع البشري، ولا الإنسان؛ ولكن الناس أنفسهم!..

إنَّ الأصنام تُصنع وتُعبد، وهم يدّعون لأنفسهم خصائص ألوهية متميزة ويضعون أنفسهم في مكانة بين الله والناس، وليس بين الناس والطبيعة، أو بين الناس والعالم..

ومن ثم يصبح ذوو العقول البسيطة من الناس عبيداً لهم.

على النقيض مما يرى بعض المتعلمين، ممن يبحثون عن

الحقيقة بين ثنايا الكتب والمخطوطات أكثر من نشدانها في الواقع، فإن الشرك والتوحيد لا يمثّلان نظريتين فلسفيتين، ولا مناظرة تجري في معبد..

لكنهما يعيشان ويرتّبان آثارهما في حياة صاحبهما وفي الطبيعة المحيطة به..

وهما ـ التوحيد والشرك ـ في قلب حركة وكفاح الشعوب: الاجتماعي والاقتصادي، وعبر كل الحقب والأزمنة..

وبكلمات أخرى فإن الشرك هو العقيدة التي سيطرت في التاريخ..

نعم إنه أفيون الشعوب!!

ومن الناحية الأخرى فإن التوحيد هو الدم والعون والفطرة والمرشد للشعوب..

إنه العقيدة التي أوذيت في التاريخ.

إنه لمن أعظم وأسوأ وأخفى مآسي الإنسانية، والتي لم تُفهم بعد جيداً من قبل الكثير من المفكرين **استعباد الشعوب بذات وسائلهم للتحرر! وتقتيل وتعذيب الناس باسم مصدرهم الوحيد للحياة الكريمة!**.

كيف؟!..

بالخلط بين عقيدة وأخرى؛ شأن الشرك الذي يتخفّى في ثياب التوحيد، والذي تمثّل في أكبر منافقي التاريخ: إبليس المتنكر في صورة القديس!

التوحيد في خدمة الشرك.. والأب الروحي ممثل الشيطان.. وأخيراً الخنَّاس المخادع عدو الناس.

في سورة الناس تتكرر كلمة الناس عدة مرات..

من هؤلاء الآباء الروحيين الذين يعيشون بين الناس ويملكون هذا السلطان النافذ؟

من هؤلاء الطغاة الذين يعصون الله ويستخفُّون بحقوق الناس؟..

للمرة الثانية تظهر الطواغيت الثلاثة: الثالوث!..

التي هي ملك لله وحده كما وُصِفَت في سورة الناس.

إنهم يغتصبون المواقع الثلاثة التي هي:

التوحيد: وحدة الصفات..

الشرك: تعدد الصفات.

التثليث: قابيل القاتل الذي يظهر بثلاثة أوجه ويحكم أطفال هابيل..

هناك قابيل واحد، وفرعون وقارون وبلعم هم وجوهه..

إنهم ليسوا ثلاثة أشخاص، ولكن ثلاثة أوجه.

المدهش أنه في كل تاريخ التثليث يرمز للإله دائماً برأس واحد له ثلاثة أوجه!!..

❊ ❊ ❊

في غابر الزمان كان الناس أمة واحدة متآخية، وكانوا شركاء في أنهار الأرض وغاباتها وكلٌ له نصيب مساوٍ لأخيه في خيرات مائدة الطبيعة الحرَّة.

صيد البر وصيد البحر كان وسيلة جلب الطعام اللازم للبقاء..

والله وحده هو المالك، والبشر كلهم متساوون.

لكن.. جاء قابيل وصار مزارعاً وادعى لنفسه ملكية الأرض..

ومن ثم استعملت الحواجز والضوابط..

لقد خرقت الوحدة!

واستبدلت عبادة الله الواحد بعبادة الآلهة المتعددة..

وظهر قابيل بثلاثة أوجه حيث عبده الناس من دون الله.

مثلث مشؤوم: التثليث..

إنه مقبرة كل الرسل والمجاهدين والشهداء.

مقبرة تتمثل في أغلال التهديد المشؤومة التي تحاكي سلاسل العبودية التي استغلت ـ من قبل ـ لإخضاع عباد الله المغلوبين ليكونوا عبيداً للحاكم..

إنَّ الثالوث أشبه ما يكون بالشركاء الثلاثة في شركة واحدة:

حيث يقوم الأول بالدعاية والإعلان..

ويتولى الثاني سرقة ما في جيبك. .

بينما يعد الثالث نفسه للمشاركة في الأرباح.

هذا الشريك الثالث هو الذي يتظاهر بمظهر رجل الدين الذي يهمس في أذنيك بما يزعم أنه «كلمة السماء»:

(يا أخي! كن صبوراً ودع هذه الدنيا لطلابها وكابد المعاناة فيها حتى تدخل الجنة في آخرتك. .

حتى وإن مت جوعاً أملأ قلبك بالتسامح! إن الذين شغلوا أنفسهم بهذه الدنيا سيعلمون أن الجزاء في الآخرة سيكون لأولئك الذين اعتصرهم الفقر والطغيان! إنهم سيحسدونك على سعادتك تلك المرجوة في المستقبل!! لا شيء يمكن أن ينجز وكل ما يصيبنا هو قدرنا المقدور مسبقاً؛ السعيد سعيد في بطن أمه والشقي شقي في بطن أمه. . إن أي رفض هو معارضة لمشيئة الله، ولهذا فكن شاكراً قانعاً بما عندك ودع الحكم لك في الدار الآخرة! كن صابراً ولا تشكو فقرك وقهرك لئلا تفقد أجرك يوم القيامة! تذكر أن حق إصدار الحكم إنما هو لله فقط وليس للناس، وفي الدار الآخرة وليس في هذه الدنيا.

أي حكم ينبغي أن يصدر من الله وحده وهو أحكم الحاكمين، ومن ثم فكن يقظاً حتى لا تخجل يوم القيامة حيث ترى الله الرحمن الرحيم يعفو ويصفح عن الطواغيت الذين لا يمكن أن تعفو أنت عنهم في هذه الدنيا.

كل واحد مسؤول عن خاصة عمله.

إذا أردت أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر يجب عليك؛ أولاً أن تكون محقاً وعالماً وذا تأثير، وإذا استشعرت أن ذلك خطر عليك فإنك غير ملزم بالقيام به). .

هكذا الأصدقاء الثلاثة وثيقي الصلة ببعضهم. .

وقابيل ـ صاحب الأقنعة الثلاثة ـ هو إله التثليث الأبدي. .

هؤلاء الثلاثة لا يهم أن يعملوا تحت راية الإسلام أو تحت راية العداء له!. .

باسم التوحيد أو باسم الشرك!. .

أولئك هم الذين باسم الإيمان صنعوا الدساتير والقوانين ليتحكموا في الناس أبد الدهر وفي كل مكان!. .

الطواغيت الثلاثة هي وجوه قابيل الثلاثة. .

ذلك المالك الذي قتل أخاه هابيل الراعي، وأصبح هو من بعده مسؤولاً عن أطفاله اليتامى وأضحى القاتل وريثاً للضحية!. .

الغريب أن كل الأنبياء الإبراهيميين والذين دعوا إلى التوحيد والعدل والورثة الحقيقيين لهابيل كانوا جميعاً في مراحلهم الأولى رعاة، وكذلك نبينا محمد ﷺ آخر هذه السلسلة من الرسل كان راعياً للغنم بقراريط[1]، وقد قال: «ما من رسول إلاَّ رعى الغنم».

وهذه سنّة قابيل وأبناءه الثلاثة (الذئب والثعلب والفار)

(١) قراريط مكان بالقرب من مكة.

وسعيهم الدائم في التاريخ لممارسة الاستبداد أو الاستعمار أو الاستغلال لأبناء هابيل (الناس) وسوقهم بزيّ راعي الغنم.

هذا يفسر لنا معنى ظهور «راعٍ» أو «أمي» كل حين ينهض من قلب الصحراء ويترك قطيعه ويصبحِ قائداً ومحرراً لضحايا سلطان قابيل..

وهكذا يكون الرسول راعياً وليس فيلسوفاً أو متعلماً أو زعيماً في أحد مراكز الحضارة أو أحد معاهد العلم أو أحد التجمعات العلمية أو أديرة الدين!..

إنهم ينهضون ليقرعوا بعصيّهم رؤوس الذين يدعون أنفسهم «آلهة الأرض» من نوعية الذي قال: أنا ربكم الأعلى.

وهنا ندرك جمال المعنى الذي تحمله كلمات النص القرآني:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾[١].

يساند إنسان مسؤول قضية العدالة ويدعو في الناس بالتكافل والتآخي والجهاد في سبيل العدل وأن يكونوا على وعي بما يدور في مجتمعهم، حتى تتحرك القوى المسيطرة في الحال بدوافع ملء القلب لتغتال هذا الفرد.. أو تغتال شخصيته.

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٥.

لكن بعد جيل أو أكثر هؤلاء القتلة أنفسهم سيتفجّعون على الفقيد ويصبحون ورثة رسالته ويستأنفون قيادته:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [1].

ومهما يكن الأمر، فإذا كان النبي هو المنتصر في المعركة فإن المعارضة ستهادنه مؤقتاً، وتبدل مواقفها وتغير أقنعتها، ريثما يتم لها الانتصار وترث كتابه وسيفه بعد أن تدور العجلة بجيل جديد.

* * *

* هناك قابيل واحد بسبعة وجوه وسبعة ألوان وسبعين قناعاً وسبعة آلاف اسم وسبعين ألف حلية!

* هناك قابيل واحد هو القاتل الذي اغتال أخاه!

* هناك قابيل واحد هو الذي يملك وكل الناس مملوكة له!

* هناك قابيل واحد هو الحاكم وكل الناس عبيد له!

* هناك قابيل واحد هو الذي صنع عدوّين من أخوين!

* هناك قابيل واحد: يجعل المتساوين غير متساوين!.. هو الذي قسّم الناس إلى عرقين، والمجتمعات إلى طبقتين، وجعل من

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢١.

التاريخ قطبين، وأحال الوحدة إلى تثنية. . ذلك الفعل الذي يعبر عنه القرآن بكلمة «الاستكبار». . ذلك الفعل الذي يجعل الناس ضعافاً متهالكين! . .

* هناك قابيل واحد يمارس الاستكبار منطلقاً من قواعده الثلاث. .

١ ـ السلطة: السياسة. . الطغيان. . (فرعون).

٢ ـ إراقة الدماء: الاستغلال. . الاقتصاد. . (قارون).

٣ ـ الخداع: الإيمان. . الاستغلال. (بلعم).

إنها طبقة واحدة حاكمة لها ثلاثة أوجه: ثلاث قوى.

* هناك قابيل واحد يحيل التوحيد إلى التثليث! . . وهو يوظف لذلك كل الأساليب: التخفي أو الصراحة، الكفر أو الدين، الشرك أو التوحيد، العصا أو القانون، الديكتاتورية أو الديمقراطية، العبودية أو الحرية، الإقطاعية أو البرجوازية، المذهب أو العلم، رجل الدين أو المفكر، الفلسفة أو التصرّف، اللذة أو رياضة النفس، الوحشية أو التمدن، الانحطاط أو التقدم، المادية أو المعنوية، المسيحية أو الإسلام، السنّة أو التشيّع. . .

هذه وجوه تغدو وتروح، قد تلقي بهم من الباب، ولكنهم يتسللون إليك من النافذة! . .

على سبيل المثال: فإن الرق قد تمت معارضته، لكن آلت

السيادة للإقطاع، وأضحى الأرقاء فلاحين، ثم هزم الإقطاع بثورة عظيمة[١]، ولكنها تبدلت إلى رأسمالية وصار الفلاحون عمالاً في المصانع.

بعون من الله وقوته أغرق موسى عليه السلام (فرعون) في البحر ووارى (قارون) باطن الأرض، وسخَّر عصاه في مقاومة السحرة، ولكن بعد حين عاد فرعون الذي غرق في البحر للظهور مرة أخرى وخرج من نهر الأردن.. لقد سمى نفسه «شمشون»[٢]! وحمل عصا موسى بدلاً من السوط، أما سحرة فرعون فقد أصبحوا أحفاد هارون ورفاق موسى وحملوا الكتاب المقدس بعد أن تخلوا عن حبال السحر التي كانت بأيديهم، وصار «بلعم باعورا» هو الزعيم الروحي!، وقارون استولى على الكنز وأضحى أميناً على ملة التوحيد!، ثم تعاضد ثلاثتهم: «فرعون وقارون وبلعم» وحولوا فلسطين إلى أرض الميعاد، وصار الأقباط القدماء هم الإسرائيليون الجدد!..

ثم ظهر عيسى عليه السلام ونسخ اليهودية وقضى على إمبراطورية الرومان، لكن قيصر بدل اسمه إلى البابا، وحلّ أحبار النصارى محل الإكليروس وكاردينالات الفاتيكان، حيث دعي القصر كنيسة! وقام «جوبيتر»[٣] مقام عيسى عليه السلام.

---

(١) يقصد الثورة الفرنسية.

(٢) شمشون: من قضاة العبرانيين في القرن الثاني عشر ق.م. اشتهر بقوته الجبارة التي تكمن في شعره. احتالت عليه «دليلة» فقصّت شعره وحرمته من سرّ قوته وسلّمته لأعدائه.

(٣) جوبيتر: كبير آلهة الرومان. هو زفس اليونان. له هيكل على الكاپيتول وآخر في بعلبك «المصحح».

وجاء محمد ﷺ وهزم أكاسرة الفرس وأقاصرة الرومان، وأبطل عمل القساوسة والكُهّان وألغى مشروعية أرستقراطيي العرب والفرس، ولكن لم يلبث أن استبدل الملوك والأكاسرة بالخلفاء، وحل الأئمة والوعاظ محل القساوسة والكُهّان.

أمّا طبقات الزرادشتية[1] الاجتماعية ـ من الدهاقنة والقياصرة والأرستقراطيين والاقطاعيين ـ فقد أسمت نفسها أحفاد الإمام وأصحابه، وخلعت على نفسها ألقاب الأشراف والنبلاء..

لقد أبدلت إمبراطورية الرومان ومملكة الفرس أسماءها فأصبحت خلافة خلفاء الرسول ﷺ وألبست المذابح مسوح الجهاد! وصار السلب زكاة! واعتبرت معاناة الناس هي مشيئة الله!..

أمّا أسرة النبي ﷺ فقد توزع مصيرها بين القتل والنفي والسجن، وضاع حق الذين اتبعوا رسالته بإحسان، وأصبحت خلافته من نصيب عائلة أبي سفيان[2] والعباسيين.

أمّا علي عليه السلام الذي اقتفى سنّته وأدى أمانتها بحقها هو

---

(١) الزرادشتية: ديانة فارسية قديمة تنسب إلى زرادشت الذي تشبه ولادته ونشأته ولادة ونشأة المسيح. ونُسبت إليه خوارق كإحياء الموتى وإبراء الأعمى؛ وكان للزرادشتية تأثير كبير في الطوائف الباطنية من قرامطة وحشاشين وغيرهم. «المصحح».

(٢) أبو سفيان: (صخر بن حرب بن أمية) (ت ٣١هـ/ ٦٥٢م: ثريّ مكيّ قرشيّ. من أشد المناوئين للإسلام. قاد المشركين في أُحد والخندق. أسلم يوم فتح مكة. والد معاوية مؤسس الدولة الأموية. «المصحح».

وأنصاره، وقاوم منهم من قاوم بغي الخلفاء لمدة قرنين ونصف، إلاَّ أنهم جميعاً راحوا في عداد الشهداء. .

لقد تصدوا لتقاليد الجاهلية وأرستقراطية الخلفاء، ونذروا أنفسهم أتباعاً لعليّ، وبذلوا أرواحهم للقضاء على النظم الفاسدة الجائرة، وكانت شعارات حزبهم الشيعي:

الإمامة والعدالة. .

لكن فجأة. . أصبح الخليفة شيعياً!!!

وتبوأ ملك الصفويين[١] مكان القيادة من الشيعة، وصار بيت الخليفة هو قصر السلطان. .

وهكذا دواليك. . . . !

* * *

وفي أوروبا استطاعت الثورة العلمية أن تهزم الكنيسة، وأخذ العلم مكانة الدين، وتحولت مدارس اللاهوت القديمة إلى الجامعات الحديثة، ونفي المؤمنون إلى أركان المعابد القصية بواسطة العلماء. . .

وقد ترك (بلعم) الكنيسة وظهر في الجامعة!

الثورة الفرنسية ألغت الإقطاع كنظام، لكن (قارون) الذي

---

(١) يفرق المؤلف بين التشيع الصفوى والتشيع الحقيقي، فيدين الأول وينكره ويرى أنه تشيع منحرف ظالم تجب محاربته ومحاربة آثاره، ويؤيد الثاني لأنه يعود إلى المبادئ الإسلامية الأصيلة المستمرة من النبي محمد ﷺ والذين اتبعوه بإحسان.

هُزِمَ في الريف اندفع في المدينة لينشىء البنوك!

ورغم أن فرعون قد فصلت عنقه المقصلة الثورية ودُفِنَ تحت ثرى قصر (فرساي) بنظام التصويت الديمقراطي، إلاَّ أنه انبعث من جديد مستعيناً بثروة (قارون) وسحر (بلعم). . وجاء (ديغول)[1] إلى السلطة!

لا يمكننا ـ أبداً ـ أن نتخلص من أبناء عمومتنا من أحفاد قابيل الذين يعاضدون بعضهم البعض. .

فإذا هزمت أحدهم وقبضت على يده، فإن الآخر يحاول شراءك بماله، وإذا فشل هذا فسيحاول الثالث خداعك باسم العقيدة! وإذا لم تفلح أياً من هذه الحيل فإنهم سيحاولون الوصول إلى غايتهم مسخرين في ذلك العلم أو الفن أو الفلسفة أو الإيديولوجيا، وإذا أثبتت إحدى هذه الوسائل تأثيرها، فإنهم عندئذ يلجأون إلى النحيب والبكاء والتوسل والدعاء. . أي ببساطة ـ ما يشغل عليك ذهنك ولا يدعك تعي ما الذي يحدث.

إنهم سيزيّفون لك الاعتقاد بأن أقدار التاريخ هي وحدها المسؤولة عما في هذا العالم من كره وبغضاء وخطايا، وأن كل الحب والخير إنما هو في الحياة الآخرة! . . . .

وإذا لم تُجدِ معك أيّاً من هذه الأساليب فإنهم سيحولونك

---

(١) ديغول (شارل) (١٨٩٠ ـ ١٩٧٠) قائد فرنسي ورجل دولة دعا إلى مقاومة الألمان. رئيس الجمهورية الخامسة (١٩٥٩ ـ ١٩٦٩). «المصحح».

إلى مستهلك مجنون، ومن ثم تَجِدُ نفسك تنفق كل ما كسبت من أجل أن تعيش حياة الرفاهية، والنتيجة المترتبة هي الحصار المستمر بالديون، والاستغراق في العمل طيلة اليوم بلا جدوى ومن أجل لا شيء.

هل هذا هو ما نسميه: حياتنا؟!

أن تعمل وتعمل حتى تحصل على مزيد من الرفاهية، وفي الوقت ذاته تقتل نفسك بالعمل ليلاً ونهاراً، ثم تجدك تجرجر رجلك متخلفاً سنوات إلى الوراء!!!

كل قيم الإنسانية والتحرر تمت التضحية بها على الطريق الذي ينشد الرفاهية... لقد بيعت حياة البساطة واليسر ليُشترى بثمنها حياة الترف..!

وأخيراً.....

إنْ لم يُجْدِ كل ذلك: فهناك الإعلام الطاغي بالجنس وموسيقى الجاز (الصاخبة العنيفة) وهناك الهيروين، والماريجوانا، و L.S.D، وغيرها من آلاف الطرق الشيطانية الأخرى.

بالخطأ أو الصواب يتمّ استيعابك حتى يبقى عقلك مشغولاً، وتمنع من التفكير في حاضرك وتُدفَع في شُعَب الضلال مؤمناً أو غير مؤمن!..

❊ ❊ ❊

نحن يتامى التاريخ المساكين المقهورين في الأرض..

نحن أحفاد الشهيد هابيل والمؤمنين الصادقين بالله، وأبناء آدم الذين أعطوا المثال للنوع الأسمى، وناصروا الإخاء والحب والمساواة وتمثلوا الطبيعة الخالصة النقية للإنسان، وكانوا صورة حقيقية للتوحيد والوحدة والسلام. . !

نحن ذكرى الحقبة السعيدة في التاريخ حينما كان هناك المجتمع الواحد الذي يأكل من مائدة الطبيعة المشتركة. .

لكن. . .

كل ذلك قُبِرَ يوم استشهد أبينا هابيل، وسفكت دماءه أخلاق الخداع، وصار الضحية البريء لرأس المال ولثروة قابيل. . .

الرغبة في الثأر تبقى دائماً أملاً وأمنية في قلوبنا. .

نحن ننتظر بشوق عظيم اليوم الذي نرى فيه نبينا يساعدنا في حمل قضيتنا! . .

التوحيد هو السراج المميز، وهو شارة النبوة التي حملتها أكتاف رعاة الغنم عبر التاريخ.

لقد تناوبوا حمل هذه الراية من جيل إلى جيل ومن يد إلى يد:

من يد (هابيل) إلى يد (إبراهيم) ومنه إلى يد (محمد) ومنه إلى (الحسين) ثم مضت من بعد لكل مكان وكل زمان حتى اليوم الأخير. . يوم العدل!

لقد رفعتها ثورة العدل باتساع العالم، وحملتها قيادة ضحايا

الطغيان وورثة المستضعفين في الأرض..

وهكذا كانت تسير الراية وترسم على الأرض الخط الأحمر القاني بدماء الشهداء.

وفي المقابل والنقيض تمضي راية الكفر التي تجسد القوة والجهل والشراهة للدماء من يد إلى يد حتى تبلغ دائماً آلهة الزيف: الطواغيت الثلاثة..

الإيمان والكفر ليسا عصبية، ولا تشتيت للوحدة ولا هما تصور بسيط أو حجة من حجج المتصوّفة[١] والفلاسفة، ولكنه التوجيه الذي يؤدي بالبشرية إلى سبيل الرشاد والرفعة، أو يؤدي بها إلى سبيل الضلال والغي..

إنَّ معنى هاتين الكلمتين: «إيمان وكفر» واضح الوضوح نفسه الذي نراه في الفرق بين الكلمتين «عدل.. وظلم».

أمّا بقية النعوت والأوصاف فهي زائفة وخاطئة، وقصد بها أن تشكل علينا وتخدعنا.

كن حذراً حتى لا يخدعك الزيف..

إنَّ التاريخ مليء بالنفاق لدرجة أنه أباح لأحفاد قابيل

---

(١) التصوّف: فلسفة كانت وليدة نزعات الزهد القوية التي ظهرت بوادرها في صدر الإسلام، تساندها آيات من القرآن الكريم تحضّ على النسك. فكان الزهد حركة احتجاج ضد التحلل الأخلاقي، وثم أصبحت فيما بعد عدة فرق على رأس كل فرقة «إمام» يسمى بشيخ الطريقة وتعرف باسمه. «المصحح».

ـ وحدهم ـ حق الحديث عن العدل والإيمان! أما أحفاد هابيل فلم يستطيعوا الحديث حتى عن أبيهم الشهيد!!

استمع فقط للقرآن الكريم، ولا تستمع لأولئك الذي يتحدثون عنه.

ذلك أن بعض ذرية قابيل أصبحوا من مفسري القرآن الكريم، ومن ثم فعليك أن تقرأ النص نفسه وتفهم ما يقوله لك بنفسك، لأنه الوثيقة الوحيدة التي حفظها الله بمنأى عن تدخلهم. . استمع إلى القرآن لتتعلم منه قصة البشرية ومعنى النبوة:

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾(1).

إنَّ الله تعالى لم يرسل الأنبياء لأنّ هناك خلاف طفيف في الرأي، أو لمجرد التحيّز! كلا. . لكن لمقصد عميق، ودون أي شبهة غير جعل الإيمان والكفر. . .

ولتستمع إلى الله مباشرة يوضح لك ذلك:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾(2).

---

(1) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.

(2) سورة الحديد، الآية: ٢٥. نص الآية: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ويلاحظ أن القرآن يذكر الميزان والحديد في نفس الآية، وتشير الآية إلى استعمالات عسكرية للحديد إلى جانب استعمالاته كقوة اقتصادية فهو في ميدان المعركة وفي الحياة اليومية.

ابحث في القرآن مرة ثانية تجده يخبرك بجلاء ووضوح، ليس بصورة نظرية فلسفية ولا بلغة معقدة ولا حتى بمصطلحات مركبة من حواش لاهوتية . .

بل نزل بكلام بسيط يستطيع أن يفهمه حتى الأمي من الناس:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ، فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[١].

نعم! قاتلوا أولياء الشيطان . . الطواغيت الثلاثة الزائفة.

يا من تريدون أن تنصروا الله . .

يا من تحمون أنفسكم من الشيطان الثابت بالحكمة والوعي . .

يا من تقاومون إغواء الشيطان وحيله بالتقوى[٢] . .

إنَّ العدو كالعنكبوت الذي ينسج بيته من المال والسلطة ممهداً الطريق لاصطياد البشر، ثم مص دمائهم.

لا تخف من الموت، ولا تهرب، ولا تؤجل المعركة، بل تزود بالتقوى وعندها لن تواجه أثراً لخطر[٣] . .

---

(١) سورة النساء، الآية: ٧٦.

(٢) التقوى هي أن تتقي، وليس أن تهرب كما شاع في الفهم السلبي الذي انحسر أزاءه المعنى الإيجابي السليم.

(٣) في كل آيات القرآن يوصف الشيطان بأنه عدو خطير وقوي، إلاّ في سياق هذه الآية حيث ورد ذكره موسوماً بالضعف . . لماذا؟ . . ذلك لأن القرآن هنا يتحدث عن القتال ويخاطب المجاهدين الذين لا تعني لهم أنظمة الطغيان أكثر من بيت=

يا من يدين بالتوحيد، وبالمسؤولية تجاه دم هابيل. .

يا من يحمل عبء الأنبياء على كتفيه: الكتاب. . والميزان. . والحديد.

أنت يا ابن آدم.

أنت أيها القائم بين الناس. . . .

أيها القدوة في: القدرة. . والحرية. . والوعي. . .

أنشد الملجأ عند الله: ربّ الناس. . . ملك الناس. . . إله الناس. . . وأَحِبَّ الناس!.

أيها الحاج. . . . . . .

يا من مشى على درب الشهادة الأحمر بالعبور من عرفات إلى منى. .

= العنكبوت، وقد أطلق الله تعالى اسم العنكبوت على إحدى سور القرآن التي حدثتنا عن قصة النبي الذي يقوم وحده بين الناس يجاهد القوى العظمى الحاكمة، وقد وصف القرآن القوى التي مثلت الشرك ببيت العنكبوت الذي نسج لاصطياد الناس ومص دمائهم وهي مع ذلك واهنة واهية، وقد أسقط الله قصور الطغيان ومعابد السحر بالأيدي المجردة وليس بالسلاح، ولكن الذي جعل هذا التأثير لهذه المصيدة ليس قوتها ولكن جهل الناس. . . إن الناس يجب أن ينالوا قسطاً من المعرفة الصحيحة مما حمله الأنبياء من الحكمة والنور ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ سورة العنكبوت، الآية: ٤١. ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ المصدر نفسه، الآية: ٤٣. «المؤلف».

يا من خطا على مقبرة الصنم الأخير: طاغوت العقبة..

يا من سما إلى ذروة الحرية بالتوحيد....

يا من هزم الشيطان في أرض منى..

أيها السائر على سُنّة إبراهيم عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وآله... كن يقظاً وتزوّد بأقصى انتباه..

إنك على خطر دائم: خطر قابيل والخوف من عودة الآلهة الزائفة..

الرسول في خطر، ورسالته في خطر، فكن حذراً من الطواغيت، وانشد الملاذ عند:

ربّ الناس.... ملك الناس... إله الناس

حتى الآن هناك ثلاثة أوثان تمثل شيطاناً واحداً!.

قابيل واحد.. لكن:

﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾

من.. أو ما هو «الوسواس»؟!

القاموس يشير إلى ذلك الذي يهمس بالشائعات والأراجيف أو الإيحاء بها..

وكذلك يعني «الحالة السوداوية» ذلك المرض الذي يقتحم الذهن ويقلب وعي الإنسان إلى شعور باللامعنى.

إنَّ الذي يقترحه عليك يتسلل إلى لاشعورك . .

إنَّه يظهر لك ويتحدث إليك، وتستطيع أن تستمع إليه، ولكن ليس بأذنيك . .

تستطيع أن تراه، ولكن ليس بعينيك . .

إنَّه خناس.

ما هو الخناس؟!

القاموس يشير إلى كل ما يقودك إلى الضلال، وكل ما يجذبك ويستغرقك ويتبعك ويخدعك حتى إن حاولت أن تهرب منه يلح في تعقبك.

ما الذي يفعله الوسواس الخناس؛ ذلك الذي يشعل فيك الإغواء ويوحي لك بالمقترحات الشريرة!

ما هو الإغواء؟!

القاموس يحدد معناه بالذي يزيّن عمل السيئات والفساد . .

ذلك المرض الذي يقتحم على المرء حكمته ويحيله إلى حالة من الهذيان والاضطراب واللامعنى.

من أي شيء خلق الوسواس الخناس؟!

قد يكون من الجن، وقد يكون إنساناً . .

ما هو الجن؟!

هو قوة غامضة خفية ذات طبيعة غير بشرية تحاول التأثير في تصرفات الناس.

ما أوضح التعريف الذي أعطي لها، لكنها اليوم أشد ذكاء وأشدّ سحراً. . . .

هذه الطواغيت الثلاثة خفية، ولكنها تظهر وترى. .

إنها تذهب لتبدل ألوانها وتعود.

قد تهزم. . ولكنها تنهض مرة أخرى. . . . .

اليوم الرأسمالية والاستعمار المباشر يبدلان جلدهما ويظهران في ثوب الاستعمار الجديد، ويعود الطواغيت الثلاثة لاستلاب البشرية من جديد، وغسل الأدمغة بمعونة الخبراء والتكنولوجيا المتقدمة. . كما يقول البروفسور شاندل:

(إنَّ الخطر الأكبر على البشرية اليوم ليس تفجير القنبلة النووية، ولكن محاولة مسخ الطبيعة البشرية).

عناصر الإنسانية في البشر تدمر في سرعة هائلة بما ينتجه التسابق غير الإنساني، ويتحول الإنسان إلى آلة في مظهر بشر لم يخلقها الله ولم تنشأ في الطبيعة! ويصير الإنسان عبداً لم ير سيده ولم يعرفه، ولا حرية له سوى بذل وسعه ليكون العبد الأفضل.

لقد تمت مبادلته بالمال، لكنه هو نفسه الذي دفع الثمن! وغدا واقفاً لساعات في طابور طويل أمام أوكار اللصوص[١] الذين ينتظرون عودته حتى تتم سرقته.

(١) إشارة إلى البنوك.

لقد أضحى الإنسان عبداً غير قابل للنمو؛ يأخذ كل ما يحتاجه بكل ما يملكه!..

إنَّه مؤمن فقط بالتبادل المادي، وعقيدته تدفعه لأن يدفع أكثر مما يأخذ..

إنَّ حياته صُمّمت له على طراز معين قبل أن يولد، وبذلك صارت عبارة عن مهمة تؤدى، أكثر مما هي حياة حقيقية..

الآن أمامه فرصة لاكتشاف العالم، ولكنه أضاع إيمانه والإنسانية.. للأبد[١]..

إنَّ المأساة فوق مستوى التصور، وفطرة الإنسان تتغير، والشياطين الثلاثة المغوية لا تملك قوة السلاح وسلطان الذهب وخداع المسابح فحسب، بل يسخِّرون أيضاً قوة العلوم الخارقة، وسحر الفن المبهو، وطاقة الآلة المتفوقة لإمضاء حيلهم وخططهم المحكمة..

اختفى من حياتنا المعاصرة نير العبودية الواضحة، لكن ـ في واقع الأمر ـ الناس مستعبدين بسلاسل غير مرئية..

نعم هم أحرار في أن يدلوا بأصواتهم في الانتخابات لمن يريدون، لكن قبل أن يقرروا ذلك بزمن طويل، فإن الوسواس الخناس ينفث في قلوبهم.

---

(١) الكلام مأخوذ من كراسات شاندل (Les Cahiers).

مأساة اليوم هي إحدى نتائج الاغتراب[١] الذي يعني أن تكون غير قابل للصداقة ولا مبالياً!.

وهي حالة غير صحية تغطي على وعي المرء وشخصيته الحقيقية...

اختفت بالتدريج صور الطغيان السياسي والتفرقة الاجتماعية وطرق الاستغلال الغربي القديمة، ولكنها عادت في أشكال أبشع، كما تختبئ اليوم الأنظمة الرأسمالية تحت أقنعة الليبرالية والديموقراطية..

انتهى زمن السلب والنهب التي مارسها التتار وطبقها قانون جنكيزخان المسمى بالياسق، ولم نعد نرى طغيان وبربرية التعذيب التي ارتكبها تيمورلنك وهولاكو[٢]..

ولكنها عادت اليوم في مظهر أشد خداعاً باسم التحديث والحضارة، حتى تخفي الوجه الحقيقي للاستعمار.

اختفى هذا النمط من الحكام المستبدين محترفي القتل من قدماء الاستعماريين في ثنايا العالم الثالث، ولكن نظمهم الاقتصادية والسياسية وعلاقاتهم الاجتماعية والتعليم والفن والأخلاق والحرية الجنسية والمذهبيات والإعلام الدعائي والأدب والموضة والجنون

---

(١) ترجمة لمصطلح (Aliénation)

(٢) التتار قبيلة من أشد القبائل وحشية، وجنكيزخان قائد هذه القبائل، والياسق قانون هو خليط من الأديان السماوية والأديان الوثنية والأهواء الشخصية، وتيمورلنك وهولاكو كلاهما قائد مغولي من التتار حكما بعد جنكيزخان ومن ذريته.

الثقافي والعدمية والاستهلاك بلا حدود والتغريب، كلها تعاود الظهور في خفاء تحت ثياب الاستعمار الجديد. .

لقد ظهروا مرة أخرى، ولكن ليس على صورة الجند في القواعد العسكرية، ولكن في الإدارات والمكاتب وفي الشوارع والأسواق! . .

وهكذا بطرائق غير مرئية لها أيادٍ خفية وعلاقات سرية تشكلت بنية الاقتصاد والنظام الاجتماعي والمعتقدات والفطرة، والروح والقيم والتوجهات وعقول الناس.

إنَّه الاغتراب. . .

في هذه القرون الأربعة عشر منذ مهبط الوحي لم يتجلَّ معنى هذه السورة الرائعة (الناس) كما يتجلى الآن. . . .

لخمسة قرون مضت من حياة البشرية لم يكن «الوسواس الخناس» يفتك بالإنسانية بإغوائه الظاهر والخفي، ولم يكن يحطم أفئدتهم بضلالاته كما يفعل الآن. .

آه. . ! نعم! . . . . لم يكن يفعل ذلك أبداً على النحو الذي يمارسه الآن. . .

إنَّ معاني هذا الوحي الكريم تتجلى بوضوح عبر أحداث التاريخ ومسيرته! . .

إنَّ علماء الاجتماع والمفكرين الذي يعيشون في انسجام وألفة مع الاستعمار الجديد والرأسمالية يعرفون جيداً أن هذه

الأنظمة (قد تشعل النار في السوق كله إذا أرادت منديلاً)[١].

إنهم يعرفون كيف يمسخون العلم ليبلغوا به غايتهم، وكيف يطوّرون الجهل باسم الحضارة..

إنهم يعرفون كيف يوظفون الجنة والوسواس لإفساد إيمان الأمم ومعتقداتها وإرادتها ووعيها، ويتركونها خالية الوفاض فارغة القلب، ومن ثم تتهيأ للدخول في حالة الاغتراب، حيث ينظر المرء إلى ذاته بسلبية وسوء ظن، وحيث تكون عملية مسخ الناس محكمة تؤدي بهم حتماً إلى أن يكونوا مجرد مستهلكين مقلدين ولا شيء سوى ذلك[٢].

* * *

اليوم.. هناك ثلة من أهل الوعي ـ العاملين من أجل الإنسان ـ الذين لا تحدّ نظرهم التصورات التقليدية الطائفية، ولم تسبق إلى عقولهم المشكلات المحلية أو التحيزات التاريخية أو المهنية أو التعليمية أو الأحوال السائدة..

وهؤلاء لم يقنعوا بدور المراقب للعلميات السياسية المتقلبة، كما لم يكتفوا بإصدار التقويمات السطحية لما يقع للناس.

(١) غالباً هذه عبارة مقتبسة من نص مسرحي شهير.

(٢) تحدث المؤلف عن هذه الحالة بإسهاب في مؤلفه «العودة إلى الذات» الذي ترجمه المرحوم الدكتور إبراهيم دسوقي شتا، والكتاب سيصدر عن دار الأمير بحلّة جديدة هذا العام. «الناشر».

ومع كل ذلك وفوقه، استمروا أمناء على الإنسانية وحقوقها . .

أولئك هم الذين يدركون ما فعله الاستعمار من نهب لموارد الشعوب الطبيعية في العالم الثالث، ومن تمكين للعملاء الطغاة من السيطرة على مقاليد الأمور في هذه الأقطار . .

كل هذه مآسي حقيقية جاءت من الأجانب، إلاّ أن المأساة الكبرى تتمثل ـ مع ذلك ـ في ما لحق بقلوب الناس من تبديل، وهو ما أسماه الله تعالى: صدور الناس.

وهذه المأساة الكبرى لا تقترب منها أي مأساة أخرى، ولا تبلغ مبلغها من الأهمية حتى، ولا تلك المأساة المتمثلة في خطر حكام الشر الخارجي، المشار إليه بكلمة «غاسق» في سورة الفلق، وكذلك خطر «الحاسد» المتجسد في الفساد والغيرة المضطربين المرتكبين من بعض الناس. ! . .

إنَّ أفظع مأساة تهدّد سكان العالم اليوم هي أن غربة الإنسان المعاصر أصبحت غير إنسانية، بمعنى أن الوسواس لم يعد يدمر الجسد فحسب، بل الروح أيضاً، وهو ما يفزع المفكرين ذوي الوعي والمسؤولية في هذا العصر؛ إذ إنّ المفكر يعرف الناس بالقدر ذاته الذي يعرف به الوسواس، ويعرف بالتالي، ويفهم مدى قوة الاغتراب. . .

فهو يرى الإنسانية تذبح كلما أسيء إلى حقوق الإنسان. . .

وهو يرى مقترفي الشرور وصناع الأوثان الذين لا تتيسر

للكثيرين رؤيتهم بعد أن غيروا وسائلهم من سلاسل العبودية المادية إلى التسلل في الخفاء، أو الكمون داخل القوى الغامضة والوسوسة في القلب، وكل ذلك في هدوء وستر. . يلجون إلى العقل ويربكونه ثم يغيرون الشخصية ويمسخون شخصاً في شخص آخر وهذا هو الاغتراب! . .

نعم! الخطر يرقد هناك في مكمن كأسوأ ما يكون. . . .

ليس خلف الصخر أو في شعاب الجبال، ولكن في أعماق قلبك أو ضميرك. .

إنَّ الكمين لم ينصب من أجل اقتناص حياتك ومالك، ولكن من أجل إيمانك وإنسانيتك ومعرفتك وحبك ونصرك وجهادك وميراثك من تاريخك وطريقك، حتى لا تكون مثل إبراهيم، ولا تبقى في السبيل الذي يقربك من الله تعالى.

عدوك ليس دائماً مسلّحاً أو في شكل عسكري، وليس بالضرورة أن يكون أجنبياً معروفاً. . فقد يكون أنظمة، أو مشاعر أو خواطر، أو ملكية، أو أسلوباً في الحياة، أو نوعاً من العمل، أو الاستعمار، أو غسل الأدمغة باسم الدين، أو الاستغلال، أو العلاقات الاجتماعية، أو الدعاية ووسائل الإعلام. . .

وقد يكون الاستعمار الجديد، أو البيروقراطية، أو التكنولوجيا، أو التسيير الذاتي. . وفي بعض الأحيان هو الاستعراض والقومية والعرقية. . وفي أحيان أخرى النازية البرجوازية والعسكرية! . .

وقد يكون هو المتعة (الأبيقورية)[١] أو هو الأفكار المثالية، أو هو المادة (المادية) أو هي الفن والجمال (الرومانسية) أو هو العدم (الوجودية) أو هو الأرض والدم (العنصرية) أو هو البطل والسلطة المركزية (الفاشية) أو هو الفرد (الفردية) أو هو المجموع (الاشتراكية) أو هو الاقتصاد (الشيوعية) أو هو الحكمة (الفلسفة) أو هو الشعور (الغنوصية) أو هو السماء (القدرية) أو هو الجنس (الفرويدية)[٢] أو هو الغريزة (البيولوجية) أو هو الآخرة (الإيمان) أو هو الخرافة، أو هو الفائض الاقتصادي. . . .

هذه أوثان الشرك الجديد والحضارة الجديدة، تضاهي اللات والعزى وأساف ونائلة[٣] لقريش الجديدة.

كيف إذاً تدرك معنى العبادة الخالصة والمحبة الخالصة لله تعالى؟ . . .

ما هو مدى عظمة معنى عقيدة التوحيد وجلال نبوته؟ . . . .

الناس اليوم أقدر على استعمال العقل عن طاعة الله تعالى؛ لأسباب ترجع إلى نفوذ العلم الحديث الذي جرف هؤلاء الناس إلى منحدر إهمال العقيدة، وبذلك أنكروا الله تعالى، وخرجوا على ربقة الإيمان. . وفي المقابل لم ينجزوا شيئاً بذلك العصيان لله

---

(١) نسبة إلى أبيقور. فيلسوف يوناني دعا إلى الاستمتاع باللذات المعنوية؛ كان من أبرز شخصيات العصور القديمة ومن أقوى مفكريها. «المصحح».

(٢) نسبة إلى فرويد: طبيب نمساوي، مؤسس علم التحليل النفسي. «المصحح».

(٣) أصنام عبدتها قريش في الجاهلية أمر النبي(ص) بسحقها بعد فتح مكة «المصحح».

ورفض عبادته، سوى أن الشرك الجديد له آلهة أكثر حقارة بكثير من أصنام الشرك القديم (أصنام عصر الجاهلية)!

العرب القدماء كانوا يعبدون أصناماً صنعت من الذهب ورصعت بالجواهر، وكانت أصنامهم رموزاً للقوة والجمال والوفرة والخير والإحسان. . وبذلك كانت موقرة ومقدسة، أما الشرك الجديد فهو اليوم أشدّ وضاعة من أعضاء جسد الإنسان السفلي. . وقد بلغت الآلهة الثلاثة الزائفة الأبدية اليوم أعظم ما بلغت من الطغيان. .

حيث لم يعد فرعون فرداً، وإنما نظاماً. .

ولم يكن قارون واحداً، ولكن طبقة. . .

أمّا (بلعم) فقد أقلع عن كلام الإيمان، وصار يتحدث عن العلم والتكنولوجيا والفن والأدب!. .

من العجيب أن يتحدث القرآن في السورة قبل الأخيرة «الفلق» عن شياطين ثلاثة لها خاصية واحدة فذة، بينما في السورة الأخيرة «الناس» يتحدث عن شيطان واحد له ثلاث شخصيات: الرب، الملك، الإله. . . وهذا أشد خطراً. . .

الشياطين الثلاثة هم تعبير عن القهر وغسل الأدمغة والخداع والاغتيال والخطايا الجسيمة. . . وهي الأشياء التي تسيء للإنسان وحقوقه وحريته وتستعبد الناس وتستبقيهم فقراء وجهلة، وبطريقة أو بأخرى تضغط الناس وتستبقيهم تحت وطأة ثقيلة من هذه المآسي. .

أمّا أكبر المآسي اليوم فهي محاولة القوى العظمى المعادية للإنسان المثابرة على إحداث شلل للقيم الإنسانية عن طريق إفراغ أفئدة الشعوب؛ من أجل استغلالها لمصلحتها . . بعد أن علمها التاريخ أنها ـ لكي تأخذ بزمام الأمر الاقتصادي والسياسي ـ لا بدَّ لها من تحطيم تلك القيم التي يرعاها الناس، ثم مسخ طبيعتهم البشرية . .

بكلمات أخرى: لا بدَّ من تغريبهم (Aliénation).

هذا الشيطان هو أشد سوءاً من أسلافه . .

على الرغم من أنهم جميعاً لهم القدرة ذاتها على إثارة المتاعب في أي مكان . .

إنَّ نظام الثالوث «الخناس» هو تحطيم الفطرة البشرية، وهو الخطر نفسه الذي يهدد ضمير الأفراد المسؤولين.

هذا هو عدو الإنسان المبين، يذهب ويجيء في كل مكان بثلاثة أوجه، وفي كل مرة بقناع مختلف! . . .

«الوسواس» هو السم القاتل الذي يحقن به الجسم البشري . . برؤوس ثلاثة ومئة وجه . . للخناس.

لم يستطع الشيطان إغواء آدم وإخراجه من الجنة إلاَّ بعد أن تمثل له في صورة ثعبان.

«الوسواس» هو الذي أنجب الشياطين الثلاثة . . .

«والخناس» هو ممثل هذه الأصنام الثلاثة. . وإغوائه أشد دماراً ومسخاً. .

* * *

يعلمنا كتاب الوحي الكريم في السورة الخاتمة أن الوسواس أكبر خطراً من الأصنام الثلاثة، وأن الوعي الرباني هو أن نقطع الطريق على الليل، ونزيح سدوله بالفجر الذي نقاتل فيه القوى الثلاثة التي استعبدت الإنسانية. .

لمقاومة القوى الشيطانية للخناس يجب التماس الملاذ في التوحيد. .

ولتحطيم بناء الشرك في وعي الإنسان والمجتمع لا بدَّ من الاعتصام بالقوى الثلاث:

الربوبية. . والملك. . والألوهية

لله العلي القدير

وبذلك نستطيع أن نقيم مجتمع هابيل!. . .

مجتمعنا يقوم على المساواة والوحدة بين جنس الإنسان. .

يجب أن نبني مجتمع القدوة الذي كانت تنشده نبوة إبراهيم، وحملنا مسؤوليته النبي الخاتم محمد ﷺ.

لقد فهمنا أبعاد المأساة، ونحن مسؤولون عن حلها. . .

وورثنا سُنّة إبراهيم، ومن ثم يجب علينا أن نعلمها للأجيال الجديدة المثقفة التي تجاهد في سبيل العدالة الاجتماعية.

نعم!.. بمعية القرآن والنبي وآل النبي ﷺ والحج أُعطينا مسؤولية عظيمة.

* * *

ظلام الشر محيط بالعالم ومتحكم فيه..

والساحرات الماكرات أقوى من ذي قبل..

والوسواس الخناس أمضى وأشد مسخاً...

* أنت أيها المعتصم بمقام إبراهيم وبوحي النبي الخاتم..

إنك مكلف بمواصلة حمل الرسالة وأدائها..

* أنت أيها الإنسان الواعي، وخليفة الله في الأرض، ووريث محمد ﷺ...

عليك أن تجعل الرسول قدوتك وزعيمك، وتكون أنت نفسك قدوة للآخرين..

* أنت أيها المكلف ببناء الأمة...

لقد بنيت عقيدتك على أساس: الكتاب.. والميزان.. والحديد.

* أنت يا من سترسّخ العدالة الاجتماعية في الأرض..

قاتل العدو، وانتصر للبريء...

* أنت أيها المجاهد..

إصغ إلى بكاء الناس وأنين المضطهدين، وإلى صوت الذين يتعوّذون من ظلام الوسواس الخناس..

* * *

كان «توينبي»[١] يرى أن الحضارة الإنسانية مهددة بأعداء مؤبدين: (النشاط المحموم الغبي من أجل الاستهلاك، ثم الاستهلاك، ثم الاستهلاك). . .

«ماركوز»[٢] حذّر من أنّ الإنسانية أصبحت (ذات بعد واحد كأنها آلة). . .

«إراك فيروم»[٣] مثل «ديجون»[٤] كانا يبحثان عن مدينة (الشخص الواعي). .

«كامو»[٥] رفع صوته أنّ: (الطاعون صار وباءً في طهران وفي معبد الحضارة) وأن: (أطفال أبرياء يموتون من أمراض غامضة). . .

«جون أسولت» كان يتحدث عن الأمير المسلح الذي يعاني من المرض الذي لا شفاء منه. .

---

(١) أرنولد توينبي: مؤرخ وفيلسوف إنجليزي، وصف نفسه بأنه مؤرخ ينظر في ما وراء التاريخ. ولد عام ١٨٨٩ وكان مجال بحثه هو الحضارة.

(٢) هربرت ماركوز ولد في برلين عام ١٨٩٨م، والإشارة هنا لكتابه الشهير: الإنسان ذو البعد الواحد. الصادر في عام ١٩٦٤.

(٣) إراك فيروم ولد عام ١٩٠٠م بفرانكفورت وعاش في ألمانيا الغربية، ويعتبر من فلاسفة علم الاجتماع والتحليل النفسي وقد عمل في عدد من الجامعات الأمريكية، وقدم إسهاماً متميزاً في دراسة ماركس وفرويد والمقارنة بينهما، كما أن له جهداً هاماً في مجال البحث في علم النفس الديني.

(٤) ديجون لوتروي: من فلاسفة الإغريق في القرن الثالث قبل الميلاد. «المصحح».

(٥) ألبير كامو: (١٩١٣ ـ ١٩٦٠م) وهو روائي فرنسي ومنظر اجتماعي وسياسي وقد وضع الخطوط الأساسية لنمط من الوجودية الفردية المؤسسة على الأحادية الإنسانية.

ذلك النحات الواعي الذي صمم التمثال في ساحة مدينة نوتردام في شكل رجل تتساقط أطرافه، وقد وصف الكاتبان «إليوت»[(١)] و«جويس»[(٢)] هذا التمثال الذي يحمل اسم «تريزي» والمزدوج الطبيعة والمأخوذ من أقاصيص إغريقية قديمة بأنه: (رمز للإنسان المعاصر)...

«إيجون أنسكو»[(٣)] وصف الحالة المأساوية بالذي خرب روحه الخناس، ومسخه في صورة وحيد القرن...

«كافكا»[(٤)] يصف الرجل الذي يفترض أنه يمثل الله[(٥)] وقد أعطى روحه، ثم أظهره كيف لحق به التغيير التام.

نعم!... إن صورة (دوريان فري) ليست في صورة (كاندل) ولكنها صورة الرجل المغترب[(٦)].

* * *

إغتنم انبثاق نور الفجر واهرب.. أنت أيها الضحية المدرك للمأساة!.. إن ظلمة الليل ناشرة أجنحتها السوداء على المكان كله.

---

(١) إليوت: كاتب أميركي معاصر.

(٢) جويس: كاتب بريطاني معاصر.

(٣) إيجون أنسكو: كاتب روماني ولد سنة ١٩١٢م في جنوب رومانيا.

(٤) كافكا: (١٨٨٣ ـ ١٩٢٤م) اشتهر برسائله في الفلسفة الإنسانية والأدب والتي نشرت بعد موته وأحدثت ضجة. «المصحح».

(٥) خليفة الله.

(٦) إشارة لرواية الكاتب الإنجليزي (أوسكار وايلد) التي تتبدل فيها صورة جميلة لإنسان بصورة أخرى بشعة.

إنَّ الساحر الماكر يوسوس في صدور الناس . .

إنَّ الحاسدين دمى في أيدي السحرة . . والليل والأصدقاء يساعدون العدو . .

إبحث عن ملاذ عند إله الفجر لتقتل الظلام بمشرق الشمس عند عرفات . . ثم ترقب : إن آلهة الزيف عادت لترتدي بذكاء قناعاً من زحام الجماهير . . متقلدة أسلحة خفيفة . . . أنت يا وريث هابيل . . إثأر لاغتيال أبيك . .

قابيل لم يمت . .

أنت يا وريث آدم . . يا من سجدت له الملائكة . . الشيطان ينتقم الآن!

أهرب من شره ذي الثلاثة أوجه ، الألوان السبعة ، والسبعين ألف حيلة! . .

الذي يوسوس في صدور الناس . . إلتمس الملجأ منه عند الله إله الفجر . . ربّ الناس ، ملك الناس . . إله الناس . .

وأنت أيها الحاج . . إبق في منى بعد عيد الفداء ، وارم الأصنام الثلاثة سبع مرات في كل يوم :

كل يوم مثل يوم الأضحية . .

كل شهر مثل ذي الحجة . . .

كل أرض مثل منى . .

الحياة مثل الحج . .

❊ ❊ ❊

العودة

إنقضى زمن البقاء في منى . .

إنتهت المناسك خلف أسوار مكة . . قريباً من حدودها! . .

بقي أمامك طواف واحد وسعي آخر يتاح لك أن تؤديهما في أي وقت قبل اكتمال ذي الحجة . .

انتهت مناسك الحج ، وهذا هو كل المطلوب منك أن تؤديه . .

أنت أيها الحاج المغادر . . العابر من الفصل الأخير للحج . . لبيت دعوة إبراهيم . .

وفررت من الدائرة الفاسدة لحياتك اليومية الفردية . .

وجئت في الوقت المحدد للميقات . . وأصغيت للوحي الكريم . .

وخلعت عنك ثيابك ، ولبست ثياب الموت الأبيض . .

تركت بيتك ووطنك وجئت ضيفاً على بيت الله وأرض الجهاد . .

لقد عاهدت الله عندما صافحت يمينه في الأرض ودخلت إلى محيط الطواف . . وأفنيت النفس في لجة نهر الحب . . .

أنكرت الذات وغسلت نفسك وبذلت وسعك بحثاً عن الماء في قمة الجبال . . ثم هبطت من مكة إلى عرفات . .

ومن فصل إلى فصل تمضي من المشعر إلى منى . .

ورجعت إلى الله بالرجوع إلى مكة . . .

إكتسبت الوعي تحت شمس عرفات المشرقة . .

وجمعت أسلحتك في جنح ظلام المشعر الحرام .

وفي الوقت ذاته عبرت إلى حدود منى في صحبة الآخرين . .

وانهزم الشيطان ساعة هجومك الأول ، وسموت إلى ذروة الشرف . . تلك المرحلة التي تعلو على الشهادة . .

وأخيراً . .

ضحيت بكبش في خاتمة هذا الجهد . ! .

إلى أين وصلت بعد هذه الرحلة العظيمة المقدسة ، وبعد التسامي إلى مراتب سمو الإنسان ، وعبر أخطر وأفزع دروب الخلق : الطواف (الوحدة) . . والإيثار . . والجهاد . . والشهادة . . وقتال إبليس . . وهزيمة أرض الحب . . ؟

ما الذي فعلته؟ ! . . تضحي بكبش . . لماذا؟ ! . . ما هي

الفلسفة في ذلك. .؟! ما السر في ذلك؟. . ماذا يعني أن تقتل كبشاً في ختام الحج؟. .

لا أستطيع أن أقول. . .

لكن فلندع الله سبحانه يجيب عن التساؤل:

﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾[1].

﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾[2]. .

* * *

أيها الحاج. .

إلى أين أنت ذاهب الآن؟. . عائد إلى بلادك. . وإلى حياتك. . وإلى عالمك؟ هل ستعود من الحج على الدرب ذاته الذي جئت منه؟. . كلا لا يمكنك ذلك البتة!

لقد أديت دور إبراهيم في العرض الرمزي. .

إنَّ أداء هذه الشخصية الفذة وتجسيدك لها كأنك هو وكأنه أنت، لهو الأداء الجيد. . إذا أحسنت الأداء في الحج فإنّ العرض سوف ينتهي وأنت لم تؤدِّ عمل إبراهيم بعد. . وكم من مؤدٍ لم يمنح البقاء للشخصية المجسدة، ومات!. .

لقد أديت دور إبراهيم. . ليس مجرد أداء، وإنما عبادة وحب. .

---

(١) سورة الحج، الآية: ٣٦.

(٢) سورة الحج، الآية: ٢٨.

لا تعد لأداء دورك بعد أن أديت دور إبراهيم! . . .

لا تترك بيت الناس! . .

لا تعزل نفسك! . .

لا تبدل ثياب إحرامك بثيابك السابقة . .

غادر منى إلى مكة، وخذ معك إسماعيل! . .

أنت الآن مثل إبراهيم الذي كان أعظم مقاتل في تاريخ البشرية للأوثان . . أنت مثل إبراهيم مؤسس ومرسخ التوحيد في هذا العالم وحامل مسؤولية القيادة في شعبه والقائد المتمرد الذي كانت روحه تعاني وقلبه يحب وأفكاره تضيء . . .

الفأس بيده.

والإيمان يرتفع في قلب معقل الكفر . .

والتوحيد يتألق في وسط الشرك . .

إبراهيم ـ قاهر الأوثان ـ يجيء من بيت (آزر) صانع الأوثان ويحطم الأوثان والنمرود. لقد قاتل ضد الجهل والطغيان والسلبية، وتمرّد على صمت المعاناة وعلى «الأمن» المؤسس على القهر، وصار قائداً لقومه ومؤسساً لحركته وحياته واتجاهه وأمله وغايته وعقيدته الموحدة . . .

أنت الآن مثل إبراهيم . .

قاتل الآن مثل إبراهيم . .

قاتل ضد النار. . نار الطغيان والجهل. .

وبذلك قد تساهم في إنقاذ شعبك. .

النار هي قدر كل المسؤولين من الناس، وهي واجبك في القيادة والخلاص. .

لكن. . .

الله جعلها محرقة للنمرود. .

ولكنه زرعها حديقة لإبراهيم وأتباعه. .

لن تحترق، ولن تغدو رماداً. .

ولكن ذلك يعلمك الاستعداد للقفز إلى النار في سبيل الله ثم. .

ثم لن تكون منها. . دع نفسك في النار لتمنع الاحتراق عن الناس في المرحلة الأشد إيلاماً في الشهادة. .

أنت الآن مثل إبراهيم. .

ضحِّ بإسماعيلك. . ضع السكين على عنقه بيديك. . خلّص أعناق الناس. . من الذبح.

الناس دائماً يضحّى بهم على أبواب قصور السلطة ومعابد التعذيب!. .

ضع السكين على عنق ابنك، وبذلك ستأخذ السكين من أيدي القتلة. .

لكن الله سيدفع فدية إسماعيلك . .

لن تقتل إسماعيلك ولن تفقده . .

هذا كله ليعلمك أنه يجب عليك الاستعداد للتضحية بحب إسماعيلك بذات يديك في سبيل إيمانك (في المرحلة الأشد إيلاماً من الشهادة) . . .

والآن أيها الحاج العائد من طواف الحب، وأنت في مقام إبراهيم . .

لقد وصلت الآن إلى النقطة التي بلغها . .

عندما وصل إبراهيم إلى هذه النقطة كانت حياته ملأى بالجهاد :

حطم الأوثان، وقاتل النمرود، وصبر على ناره، وجاهد إبليس، وضحى باسماعيله، وهاجر، وتشرّد، وتوحّد، وتعذّب . .

الدرب من مرحلة النبوة إلى مرحلة الإمامة هو الانتقال من الفردية إلى الجماعية، وهو الذهاب من بيت (آزر) إلى حيث يبني بيت التوحيد (الكعبة) . .

في خواتيم حياته، وقد اشتعل الرأس شيباً، وتقدمت به السن بنى إبراهيم بيت الله، ووضع الحجر الأسود، وكان إلى جواره مساعده إسماعيل يحمل إليه الحجارة . .

يا للروعة . .

إبراهيم وإسماعيل يبنيان الكعبة : أحدهما نجا من النار،

والآخر نجا من الذبح، وكلاهما خليفة الله في الأرض، وكلاهما مسؤول أمام الناس. . .

إنهما مهندسا أقدم معبد للتوحيد في الأرض، وأول بيت وضع للناس: البيت العتيق. بيت الحب والعبادة. . البيت الحرام. . رمز خصوصية السماء.

أنت في مقام إبراهيم. .

أصبت مكان وقوفه آخر خطوة في صعوده إلى المعراج في أقرب الطرق إلى الله. . أنت باني الكعبة. . ومهندس بيت التحرير. . ومؤسس التوحيد. . وعدو الأوثان. وعدو الملأ من زعماء القبائل. . والمقاتل ضد الطغيان والجهل والكفر. . الآن إبنِ بيتاً. .

ليس لنفسك، ولا حتى ليكون سقفاً لأولادك، ولا لإسماعيلك. . كلا ولكن بيتاً للناس، ومأوى لأولئك المشرّدين الذين لا مأوى لهم من الذين جرحوا وعذبوا أو كانوا من ضحايا الطغيان وليس لهم مكان يأوون إليه ولا جهة يذهبون إليها. . فالنمرود يطاردهم حيثما ذهبوا. .

لقد أضحى الحرم سراجاً منيراً في ظلمة الليل، وصوتاً مدوياً شق صمت الطغيان الرهيب. . إنه آمن وطاهر ومفتوح للناس. . عيال الله.

كل مكان عداه غير آمن، وغير مشرّف. . بعد أن صارت الأرض ماخوراً كبيراً للبغاء، إنها أيضاً مسلخ حيث غدا كل شيء ممنوع سوى البغي والتفرقة. .

❊ ❊ ❊

أنت واقف الآن بمقام إبراهيم، ومقدم على أداء دوره، لكي تحيا مثله، وتكون مهندس كعبة إيمانك.

خلّص أفراد شعبك من حياتهم الفارغة.

أنفخ روح جديدة في أجسادهم بدلاً من روحهم الآسنة، لتغيّر حياتهم التي تشبه المستنقع العميق بعد معاناتهم الطغيان والجهل والظلام..

حثّهم على أن يقفوا على أقدامهم، وأعطهم اتجاهاً وهدفاً ونادِ فيهم حتى يأتوا للحج والطواف..

بعد الولوج في الطواف انبذوا الذاتية، وطهروا النفس، وتبينوا شخصية إبراهيم. لقد عاهدتم الله على اتباع طريقه والله على ذلك شهيد..

* * *

لكي تكون مثل إبراهيم:

* اجعل أرضك حرماً آمناً، إنك في الأرض الحرام..

* بدّل زمانك واجعله كالأشهر الحرام كأنك دائماً في مقام إبراهيم..

* إجعل الأرض مسجداً حراماً..

* فقد جُعِلَت الأرضُ كلها مسجداً لله..

* وانظر!.. هل الأمر كذلك؟.. إن الأمر ليس كذلك.

الشهادة أعظم من الحج

لقد علّمنا (الحسين) درساً أعظم من شهادته، إنه **عدم إتمام الحج!** والتوجّه نحو الشهادة. الحج تلك السُنّة التي جاهد جميع أسلافه وأجداده وجدّه وأبيه من أجل إحيائها. إنه لا يتم هذا الحج، ويختار الشهادة. لا يكمل مراسم الحج ليعلّم كل حجّاج التاريخ ومصلّي التاريخ والمؤمنين بسنّة إبراهيم أنّ الطواف حول بيت الله سيكون كالطواف حول بيت الأصنام إذا لم تقم الإمامة ولم يكن القائد، وضاع الهدف، وافتقد الحسين، وكان يزيد.

ففي اللحظة التي قطع فيها الحسين حجّه وتوجّه نحو كربلاء، فإنّ كل من استمر بالطواف في ظل غياب الحسين، فإنه تماماً كمن كان يطوف حول القصر الأخضر لمعاوية[١].

فالحجّ سنّة إبراهيم محطّم الأصنام.

---

(١) أنظر خطبته: بعد الاستشهاد.

في بيت الناس أو في بيت الله، فما هو الفرق؟ ما الخبر هذا العام؟

عاصفة من البشر تطوف في تدافع وحرارة، الوجوه قد لوّنها الشوق، والقلوب قد انخلعت من العشق، لبّت دعوة الله، فحرارة الإيمان وهدير الإسلام والخوف من الله والوحشة من عذاب الآخرة والخوف من عقاب النار وشوق العبادة، دفعت الأمة إلى الدوران المقدّس.

ومن بين الوجوه: أصحاب النبي، السابقون في الإسلام، أبطال الجهاد وفاتحو بلاد الكفر، محطمو بيوت أصنام الأرض، حماة التوحيد، حفّاظ القرآن، المتعصبون للسنّة وعلماء الدين الحنيف؛ الكل يطوفون ويجدّدون العهد مع إبراهيم. متخلّين عن الدنيا الدنيئة وعن هذا العالم الترابي وعن كل وضيع على سطحها، تعلقت قلوبهم بالله، يطوفون والجنة تتراقص أمام أعينهم، وتغامزهم الحور العين، وتصفر لهم الملائكة من تحت العرش، وجبرائيل ينشر أجنحته تحت خطوات طوافهم!

مَن هذا الذي شقّ العاصفة المتراصّة لطواف المسلمين وخرج من بينهم غضبان ثابتاً هكذا، تاركاً خلفه مدينة **الحرم والأمن والقداسة؟**

وحيث المسلمون كلهم يستقبلون الكعبة، إلى أين يتوجه يا ترى؟ ولماذا لا ينظر خلفه ليرى تلك الدائرة التي تطوف بالناس حول بيت إبراهيم وبصوت النمرود. ويهرولون بين الصفا والمروة

سعياً، ويتحركون من **عرفات** ـ التي هي بداية التاريخ وأول لقاء بين آدم وحواء على الأرض ـ يتوجهون في ظلام الليل إلى **المشعر الحرام**، ويدعونهم للنوم في أرض حرام الشعور ـ المحرّم دخولها على عبدة الليل والجهل ـ حتى إذا بانَ الفجر وطلع الصباح، حرّكوا قطيع أغنام الله نحو **منى** ـ أرض أصنام التثليث المشؤوم ـ ليمازحوا إبراهيم، ويخدعوا الله، ويلعبوا لعبة الرمي مع الثلاثة من معبوديهم منذ آدم وحتى آخر الزمان. ويلقوا سبعة حصيات جميلة ملونة بأطراف أصابع مداعبتهم نحو الوجوه البيضاء للثلاثة من آلهة أرضهم وزمانهم مداعبة وعربون محبة لهم! ويذبحون الخراف كرمز لمصيرهم الذليل، حيث هم أغنام الله، وأولئك الممثلون الدائمون للإله ينعمون دوماً من صوفهم وجلدهم ولحمهم، فأولئك هم ضحاياهم الدائمون، ويذبحونهم في كل مكان من أجل أنفسهم حيث **الألسنة معقودة**. وتجري دماؤهم الحمراء في عروق **القصر الأخضر ومسجد ضرار وبيت مال قارون**. وفي الختام يحلقون رؤوسهم رمزاً لخضوعهم لعبودية **الجمرات الثلاث**. ورمزاً إلى أن **آلة فعل الجور هي الجهل** وعبيد المصالح الذين **تلطخت أيديهم بدماء الحقيقة، وأولئك هم الذين يهيئون لشهادة الإنسان بسبب غيابهم**. حيث يرقد الطاغية خلف أقنعة تقواهم وقدسيتهم، إنهم الحجاج الذين يذبحون بأيديهم ـ دوماً وفي كل مكان بوسوسة من الاصنام الثلاثة ـ يذبحون إسماعيل عند أقدام النمرود، فيحتفلون في يوم **التضحية بالإنسان بذبح إسماعيل الزمان**. عندها يخلّفون الكعبة خلفهم، ويتوجهون نحو قبلة الذل والحياة،

ويشترون **جنة الآخرة** بثمن **جهنم الدنيا**، ويستلقون على **الرماد الحار لمطبخ الزعماء** سكارى من خمر العافية، غارقون في لذة اجترار بقايا وفتات موائد النهب.

الدكتور علي شريعتي

الفهرس